
أبو الجعل والأثرم
رواية
د. حامد العطية
2021

أبو الجعل والأثرم

رواية

د. حامد العطية

2021م

ولادة (أبي الجعل)

قال له (عقعق):

- كنت سأكون أباك!

كانا جالسين في مقهى (أبي سربت)، والنهر على يمينهما، والسوق الكبير عن يسارهما، ومن خلفهما السراي الحكومي، يضفي مبناه الرمادي القبيح عليه مهابة، فوق مهابة اسمه، والأرض من تحتهما ملوثة بالبصاق والطين وآثار روث حديث. لقبوه عقعقاً درءً للحسد، وبطريقة ما غير مدركة تشكل الآدمي على هيئة الاسم الحيواني، ومن دون مبالغة أو تجني. من يراه ويسمع باسمه أول ما يرد إلى ذهنه: اسم على مسمى، أو مسمى على اسم.

لم يكن عقعق أول خاطبي (الملطومة)، كلهم ملطومون. يلطمون على أنفسهم، إلا هي كانت تلطم على نفسها وتتلقى اللطمات، ثم تبث آلامها هماً وغماً على ابنها الأصغر (الأثرم)، سماها (الملطومة). سبق (عقعق) ابن عمها (السايس)، مربي الخيول. هو أيضاً متزوج وله أبناء. أرادها زوجة ثانية، لخدمته ورعاية الخيول. من يزور اسطبله يظنه موسراً، ولكنه لم يمتلك حصاناً واحداً منها بالكامل. ربما عرض على أهلها ساقاً في حصان مهراً لها. رفضوه. نهى خطابها، وهدد كل من يتقدم لها بالقتل، والنهوة بين القبائل المنحدرة من العصر الحجري أمضى من الحديد المسنون. اكتفى أخو (الملطومة) بالوعيد والثبور، هو مثلها يتيم مكسور الجناح.

ذهب عقعق إلى (اليقطينة المخرومة). حتى شيخ القبيلة لا حرمة له، تلاحقه اسماء التندر مثل القدر المحتوم. اختلف مع أحد أقاربه، فتبادلا الشتائم، ذاك (شبر ونص) لقصر قامته وهو (اليقطينة المخرومة). اليقطينة أكبر الثمار وأثقلها، وثغرة صغيرة كافية لاهترائها وتحولها إلى هيكل خاو.

(الأثرم) لقب ابنها الأصغر بعد سقوط أسنانه العليا الأمامية. السخرية دين قومه، فلو كان اسم أبيه عقعق لكان الأثرم بن عقعق، وهم يكرهون طائر العقعق، لأنه سارق ويتهمونه بإفساد تمورهم بفسائه.

- أبوك سرق أمك مني.

تصنع (الأثرم) البلاهة، وكأنه لم يسمع بالقصة من قبل.

- نخيته ليخطب لي أمك.

تفرّس في وجهه، وأطال البحلقة. لم يكن ضعيف البصر. شاهده يدلق الشاي من فنجان زجاجي مزخرف بأزهار ملونة على صحنه البلوري، ثم يحتسيه ببطء ويصوت، ولم يهرق قطرة واحدة. استشف في كلماته ونظراته بقية من سُخط لم يمحوه حت السنين.

- ذهب وخطبها لنفسه.

تقول (الملطومة):

- بعد زيارة عقعق سأل (اليقطينة المخرومة) عني فوصفوني له فقرر التقدم للزواج مني.

قالتها من دون تفاخر.

من حق عقعق أن يغضب، ولو أنشب منقاره في (اليقطينة المخرومة)، وخرقها لما ظلم، ولكنه ملام لأن العقعق الحكيم لا يستعين بالضبع الخبيث على مآربه.

عندما يغضب (الأثرم) من (الملطومة) لزواجها من (اليقطينة المخرومة) ترد بأنهم لم يوافقوا حتى أقسم بالإمام العباس على الصلاح. رفضوا تزويجها من ابن عمها لأنه متزوج من واحدة لكنهم قبلوا بمزواج مشكوك بصلاحه.

تزوجها قبل انتحار هتلر في برلين، ولم يسمع بالخبر إلا بعد أشهر. كان خبراً ملفقاً لأنه بعد أعوام شاهد (الأثرم) أدولف هتلر في شارع العميد ما بين شارع السماق وسوق الشورجة. قابله وجهاً لوجه، وتمعن في ملامحه. كان مرتدياً سترة بصفين من الأزرار ويعرج، هو نفسه بشاربه الهزلي وشعره اللماع بالدهن والملتصق بفروة رأسه.

انشغل (اليقطينة المخرومة) بزوجته الجديدة ومن بعدها بحصاد الأرز. تقول (الملطومة): وجهي خير عليه، هكذا أخبرها (اليقطينة المخرومة) فصدقته. خطفها من عقعق، واحرق قلب (السايس)، وضاعفت الحرب أسعار محصول الأرز، ووافق أخيراً أخوه الأكبر (المكوي) على قسمة الأرض. اكتسب اسم شهرته في العاصمة (المكوي) لاهتمامه الفائق بهندامه، فهو مذ حطت قدماه في العاصمة خلع الشماغ والعقال ولبس السدارة والبدلة الإفرنجية، بأمر الملك كما يدعي ابنه، لكن غيره من رؤساء القبائل لم يخلعوا لباسهم التقليدي. يروى أيضاً بأنهم سموه (المكوي) لطاعته العمياء للحكام، وهما بالطبع أصحاب المكوى في بلاد (الدهن والدبس)، ومنه خرجت كل البدلات المكوية التي ارتداها سكان بلاد (الدهن والدبس) لأكثر من مائة عام، العسكرية منها والمدنية. يتذكّر كهول القبيلة استيلاء (المكوي) على خزنة الإدارة المحلية بعد انسحابها من (أم السرجين) أمام القوات البريطانية الغازية، لكنهم لا يستقبحون فعلته. أخيراً وافق (المكوي) على قسمة الأرض، احتفظ بحصة الأسد والذئب والثعلب لنفسه، وكانت حصة الحمار من نصيب (اليقطينة المخرومة)، فبلغ قمة حياته، ليبدأ بعدها الانحدار.

سافرا إلى البلدة المقدسة، لقضاء الشهر الأول بعد الزواج. لم تُكره ضرّة مثلها من قبل، لأنها كانت الزوجة الرابعة والأخيرة، ولأنها أُسكنت البلدة المقدسة شهراً بالكامل. كانت تلك الجنة الموعودة لسكان بلدة (أم السرجين)، والفردوس الأعلى لأهالي قرية (أم الجواميس)، فيها مزار مقدس يلبي طلباتهم، ومقبرة مفضية للجنة كما يظنون، وسوق لا مثيل له في مدنهم وقراهم، فماذا يتمنون أكثر من ذلك؟ على مدى أسابيع طرد النوم من عيون ضرّاتها احتمال مرعب: هل سيقلد شقيقه (المكوي) ويطلقهن ويسكن هو و(الملطومة) في البلدة المقدسة أو العاصمة؟ استمر عضّهن الأنامل من الغيظ والنفث في عُقَد السِحر حتى عادت ليتبين لهن بأنها حامل، ولولا الخوف من غضب (اليقطينة المخرومة) لأقمن مناحة.

حملت (الملطومة) بابنها البكر (أبي الجعل) في البلدة المقدسة، ولم يكن حملاً عادياً. في تخمين ابنها الأصغر، ثلاثة اشتركوا في صنع الحمل: (الملطومة) و(اليقطينة المخرومة) وأرواح، والبلدة المقدسة مسكونة بأرواح، بشهادة (الملطومة) نفسها.

تروي: في البلدة المقدسة استأجر لنا بيتاً له سرداب عميق، وجاء لي بخادمة. في السرداب بئر ومخزن للمؤن، ولا ماء للشرب والغسل أو طعام مطبوخ من دون النزول للسرداب مرة واحدة يومياً على الأقل. في اليوم الأول نزلت الخادمة لجلب الماء والمؤن، وبعد ثوان صعدت مذعورة ويداها خاليتان. كانت ترتجف من الخوف. قالت بأن السرداب مسكون، ورفضت النزول مجدداً.

لأن مواجهة الجِنّ أهون من مخاطرة (الملطومة) بإغضاب زوجها تسلحت بفانوس وتعاويذ ونزلت إلى السرداب. ادعت بأنها سمعت أصواتهم قبل أن تراهم. ظنتها أصوات الجيران، ثم تبينتهم. كانوا أشبه بأطفال. يلعبون ويضحكون داخل الماء، وتحلف على ذلك. صدقها (الأثرم) حتى من دون يمين. تقول بأنها خافت عليهم من الغرق فنصحتهم بالخروج من البئر، وتضحك مستهزئة من بلاهتها.

مضت عشرات السنين منذ سماع ابنها الأصغر للقصة أول مرة، وما زال يتذكّرها بالتفاصيل، لكنه لم يربط بينها وبين حملها بابنها البكر (أبي الجعل) إلا بعد سماعه بحكايته مع التمثال المقدس الذي رفع ثلاثة أصابع باتجاهه، لا بحركة فاجرة بل ليدله على الصراط كما يدعي.

في البلدة المقدسة حملت بابنها (أبي الجعل)، وكانت الأرواح حاضرة، أرواح شريرة من دون نقاش، تفضّل سكنى أجساد البشر الدافئة على مياه الآبار الباردة. بعد هروب الخادمة المذعورة لم يبق سوى ثلاثة: (الملطومة) و(اليقطينة المخرومة) والعلقة التي ستكبر فيما بعد لتكون (أبا الجعل)، عافت الأرواح (الملطومة) لأنها محصنة بالتعويذات وأجدادها، ووجدوا (اليقطينة المخرومة) مسكوناً بالشياطين حتى سمت رأسه، فلم يتبق أمامهم سوى العلقة، وهكذا سكنت أرواح البئر الشريرة (أبا الجعل) حتى قبل ولادته.

ليست كل الآبار مسكونة، ولا السراديب أيضاً، فلا بد أن قوة ما أرسلتهم، وهكذا قادت الظنون إلى الضرّائر. هن استدعينها بالسِحر، لتسكن في علقة (أبي الجعل).

فرحت (الملطومة) بوليدها (أبي الجعل)، وازدادت الضرّائر كرهاً لها. تعزّت الضرّة الكبرى (القهرمانة) بمفتاح غرفة المؤن المستقر في جيبها، يدفأ فراشها المهجور صيفاً وشتاءً. كانت تتلذذ بتقنين كل شيء على ضرّائرها، حتى الخبز. شنقت قطاً سرق لقمة من طعامهم. ليس الرجال وحدهم يقتلون القطط في أعراسهم، فلا يتساءل أحد بعد اليوم عن جذور الوحشية في بلاد (الدهن والدبس). لا يعرف (الأثرم) كيف أمسكت بالقط، وهل استعانت بخادمة؟ لكنه لم يفلت منها بالتأكيد. وضعت حبل جنبة غليظ حول عنقه، وعلقته من قبضة باب غرفة المؤن. لا يظنه مات بسرعة، خرجت أرواحه السبعة الواحدة تلو الأخرى، وكل روح تلعن قاتلتها. مع كل روح مغادرة دوى صريخه، رددت صداه جوانب البيت الأربعة، فانزعجت الضرّة الثانية (أم لسان الزفِر) وأطلقت لسانها بسيل من الشتائم البذيئة، وصفعت ابنة جالسة بجانبها، وفزعت (الملطومة) فلاذت بغرفتها، وأقفلت الباب عليها. بعد استعادة خادمة رباطة جأشها قالت بصوت مرتجف بأنها تخاف من انتقام الجِنّ التي تسكن جسد القط.

ثم اكتشف (اليقطينة المخرومة) ما استحقت عليه (القهرمانة) صفعة مدوية وخسران المفتاح، فهل كان ذلك انتقام جِنّ القط المشنوق؟ ادعوا بأنها كانت تسرق المؤن، ولها شريكات من نساء القرية، يترددن بانتظام، ويخرجن بأحمال ثقيلة من الأرز (أبي رائحة) والحنطة الكردية والسكر الإنجليزي الفاخر والقند الفارسي والهيل الهندي والشاي السيلاني المعطر. أخفين المسروقات ما بين العباءات والثياب، واشتراها صاحب دكان في القرية مقابل ثمن زهيد، دراهم معدودات. تتهم (الملطومة) (الأملس) الأخ غير الشقيق لزوجها بأنه شريك (القهرمانة) في المكر واللصوصية، فهو حاضر في كل مضابط الاتهام التي رددتها على مسامع ابنها الأصغر. كانت هي المدعية وهو القاضي، وفي كل جلسة حكم (الأثرم) على أعدائها بالموت شنقاً فداءً للقط.

استعاضت (أم لسان الزفِر) عن محبة زوجها بغزارة ذريتها، وأحياناً فرّجت عن غيظها بالشتائم. كانت تشتم مثل أي امرأة سوقية، بعيداً عن مسامع زوجها بالطبع، ولكنه يعرف ويسكت.

بعد معاناة طويلة نضب صّبر الضرّة الثالثة فتفتق عقلها عن خطة لكسر ربق العبودية المطوق عنقها. تفتعل الشجار مع (اليقطينة المخرومة)، وتتجاسر عليه بالسباب، فيرد عليها بضربات من يده وجلد بعصاته. شهد على ذلك ابن أخيه: كان يرعب الجميع بدرّته، فلم يتوقف سيل شتائمها حتى ملّ وتعب من صفعها وجلدها فطردها هي وأولادها من بيته، فلم يتبق سوى (الملطومة) وضرّتان. كانت هي الأضعف، وبدلاً من كسر السلسلة أحكمت طوقها حول عنقها، وارتضت أن تكون أدنى وأحقر من جارية عند (اليقطينة المخرومة).

ولد (أبو الجعل) في بيت أشبه بساحة معركة، ولولا الخوف من (اليقطينة المخرومة) لتقاتل سكانه بالفؤوس والسكاكين. كان من المؤمل نصرته لأمه (الملطومة) حامياً ومدافعاً، لولا الأرواح الشريرة التي خرجت من البئر ودخلت علقته في البلدة المقدسة.

بعد أقل من سنتين ولد شقيقه (المقتول)، كلما تتذكّره (الملطومة) تسيل دموعها:

- قتلوه.

صدقها (الأثرم) وكذّبها (أبو الجعل).

– قبلها بساعة كان يركض ويلعب مثل عصفور، ثم عاد إلى غرفتي. اشتكى من ألم في صدره.

تتنهد بحرقة، فيكاد يشم رائحة لحم قلبها المشوي، ويتهدج صوتها بفيض عبرات مكتومة، ثم تكمل:

- كسروا أضلاعه.

ترجّت (اليقطينة المخرومة) ألا يرسل وليدها إلى الطبيب النصراني في البلدة القريبة، لكنه أصرّ. لم يأخذه بنفسه. أرسله مع ابن الضرّة التي تتهمها (الملطومة) بتكسير أضلاعه.

أرقده (بمقدساتي) في القارب بجانبه. اعتاد (بمقدساتي) الحلف بمقدساته، لا بالعباس أو حتى بالله. من يعرف (بمقدساتي) يبتسم بخبث كلما سمعه يردد ذلك، وأول ما يرد إلى ذهنه من " مقدساته" القمار وعاهرات الغجر والمال الحرام. ليس بهذا الترتيب دائماً. إذا كان في عقل (الملطومة) ذرة من الشك في مسئولية الضرّة وابنائها عن موت ابنها فقد تبددت بعد عودة وليدها جثة هامدة مع (بمقدساتي).

رددت بثقة شاهد رؤيا أو نبي يوحى إليه:

- برطل الطبيب بدنانير ليجهز عليه.

لم تزر قبره يوماً، ولا أظنهم تجشموا عناء نقله إلى مقبرة البلدة المقدسة الموصولة بالجنة. دفنوه في مقبرة قريبة، مع السُّقْط واللقطاء والزانيات المذبوحات، لكن شبحه ظل مرفرفاً فوق الرؤوس، مثل هامة من جاهلية أجدادهم، تجسمه كلماتها، وتبعث دموعها الروح فيه، لكنها والحق يقال لم تطالب يوماً بأخذ ثأره من (بمقدساتي).

قبل سنين أفاق (الأثرم) من حلم رأى فيه طفلاً صغيراً بملابس ناصعة البياض. قاده إلى مائدة كأنها مائدة العشاء الأخير في لوحة دافنشي، جلس حولها رجال عليهم مسحة من قدسية، وأجلسه بجانبه. يومها صمم على البحث عن قبره، ولم يؤخره عن ذلك سوى الطغيان ما قبل وبعد الاحتلال الأجنبي.

تركها (أبو الجعل) وذهب ليلعب مع أبناء الضرّة وأقرانهم القرويين، وتشتكي بأنه لم يسمع كلامها.

- هجرنا من أول عمره.

لم يطق البقاء بجانبها، وخافت عليه من مصير مشابه لشقيقه المقتول.

- لا اتذكّر عدد المرات التي عاد فيها يشكو من ألم أو جرح. أتوسل إليه بأن يلعب أمام باب غرفتي، لكنه يرفض.

لا يهدأ قلق (الملطومة) على ابنها (أبي الجعل). كلما تناهى إلى سمعها صخب أطفال يلعبون تنصت جيداً لعلها تتبين صوته. قناة البزل القريبة لا ضحلة ولا عميقة، وعرضها

حوالي متران، لكنها في مخيلة (الملطومة) بخطورة محيط. توقعت سماع خبر غرقه في قناة البزل القريبة كل يوم، وتخيلت المشهد المرعب: في غفلة من الأعين يدفعه أحدهم ليسقط في البزل، وتمسك يد غادرة مأجورة برأسه تحت الماء حتى يلفظ آخر أنفاسه، ولن يكون أول الغرقى في العائلة. من قبل غرق صبي كان يسبح في النهر مع أخيه غير الشقيق. اشتبهوا بالأخ لكنهم سكتوا عنه، لأنهم لو قتلوه بجريمة قتل أخيه لخسروا ولدين، ثم واتت (الملطومة) فكرة الاستعانة بسعدية، زنجية من بقايا عبيدهم. ذهب للحج واشتراهم في سوق النخاسة الكبير في جدة، وأحضرهم مع بقية الهدايا التي يجلبها الحجاج عادة لأقاربهم. يقال بأنه أعتقهم في الطريق، لكنهم عاملوهم كالعبيد. مثلت سعدية دور السعلاة. كانوا يخوفون الصغار بها، أقصد السعلاة، وحش على هيئة امرأة تسكن الماء، وتلتهم الأطفال، وتغوي الرجال. تلفلفت سعدية بعباءة سوداء، وختلت له عند ضفة البزل، وانتظرت حتى اقترب منها ثم قفزت أمامه، وهي تصدر أصواتاً مفزعة. صرخ مرعوباً، وهرب مبتعداً، ولم يتوقف حتى حضن أمه، لكنه لم يرتدع.

أوسط أبناء (أم لسان الزِفِر) همجي، كره حياة المدن والتحضر، وعاش طيلة حياته في الريف، ولم يغير عادته بعد سكنى زوجته في (أم السرجين)، كان يزورها لمجامعتها. تلد له البنات فيعذبها، وكنيته (العرقجي) لإدمانه على شرب العرق ولطبعه المشاكس. أحضر خنزيراً برياً صغيراً، اصطاده فلاح من الأهوار القريبة. يخاف الفلاحون الخنازير، ويروون قصصاً عن رجال أشداء شقت أجسامهم خنازير بأنيابها الطويلة، ولو اختفى أحدهم فجأة لشكوا بأن أشلاءه في بطون خنازير. حبس (العرقجي) الخنّوص في غرفة، وكان يردد على مسامع (الملطومة) بأنه يربيه ليفترس ذريتها. ولا تتعجبوا من خنزير في بيت مسلمين، فالدين كان ولا يزال لعقاً على ألسنتهم، وأين كان شيخ القبيلة (اليقطينة المخرومة) ذي السَطرة المخلخلة لعظام الرقبة؟ قيل إنه صفع فلاحاً متمرداً فلوى رقبته، فقدم له الفلاح خده الآخر لا امتثالاً لأمر المسيح بل ليصفعه حتى تعود رقبته المعوجة إلى مكانها الطبيعي. وهو مثل بقية القرويين يؤمن بفائدة الصفع التربوية. يمارسونه يومياً

مع أبنائهم وعند الحاجة مع زوجاتهم. والعنف علاجهم المفضّل للجنون، بعد التكبيل بشباك مرقد ولي. وأحياناً يستعينون بحفيد ولي، ليجلد مجنوناً بحزامه. سمع (الأثرم) قصة الصفعة من (الملطومة) مرات عديدة، وصدّقها في الصغر، عندما كان (اليقطينة المخرومة) بطله شبه الأسطوري، وربه الثاني كما تصفه (الملطومة)، ثم تبين له بالفعل بأنه مجرد يقطينة مخرومة ذات خوار.

لم يكبر الخنوص ليلتهمهم. في غياب (العرقجي) فتحت له (القهرمانة) الباب فخرج من بيتهم إلى المستنقع القريب.

ثم اكتسب (أبو الجعل) شهرته.

عاد في إحدى الأمسيات إلى غرفة (الملطومة) يلعق جراحه، ويشكو من معاملة أقرانه الفظّة ومحملاً برعب من نوع آخر.

- لم أنتبه لذلك إلا قبيل الفجر.

كان نومها في الليل متقطعاً، تنام ساعة أو اثنتين ثم تصحو، وهكذا حتى الفجر، وظلت على ذلك حتى ماتت. تقطع نومها بسبب الخوف. تخشى أن يباغتها الأعداء وهي نائمة، فيقتلوا ولديها، لذلك تفيق لتنصت وتستكشف، مثل الحراس والعسس، حتى تطمأن ثم تعود لفراشها. في تلك الليلة شاهدت منظراً غير معتاد في فراش (أبي الجعل). كان الوقت صيفاً، وولدها نائم في ثوبه الأبيض، وهي تتذكّر جيداً بأنها ألبسته ثوباً أبيضاً، وأحياناً تتذكّره بلون فاتح، المهم لم يكن أسوداً أو غامق اللون، ذلك لشهر محرم والحداد. أشعلت نار الفانوس، فأرعبها المنظر: تحول ثوب (أبي الجعل) من الأبيض أو الفاتح إلى الأسود، ولعل عقلها المكبّل بالخرافات صوره لها إنذاراً غيبياً ببلاء آتٍ. أمعنت النظر فرأت السواد يتحرك، وقرّبت الفانوس من جسد ابنها، فرأت عشرات الخنافس والحشرات السوداء تدب على ثوب ابنها ورأسه وأطرافه.

أجلسته أمامها، وخلعت ثوبه بسرعة، ونكثته خارج الغرفة، وعادت لتلتقط الخنافس من على جسمه، غير عابئة بقرصاتها الموجعة. سالت الدموع على خديها بصمت، وحمدت ربها لأن الحجي (اليقطينة المخرومة) كان غائباً في زيارة إلى البلدة المقدسة أو العاصمة.

أخبرها (أبو الجعل) بأنه جمع الخنافس، وخزّنها في جيوب ثوبه، ليلعب معها فيما بعد.

عبد الأجداد الشيطان بعل أو بلزبوب (أبو الذباب باللغة الأوغاريتية)، لأن الشياطين تجتذب الحشرات والهوام، والنار مادة الشياطين. ليست الفراشات وحدها ترمي بأنفسها إلى النار، فلو أنرت ضياءً في (أم الجواميس) لهجمت عليك جيوش من الحشرات والخنافس. لو لم يكن (أبو الجعل) من نسل (أبي الذباب) لما تولع بالحشرات.

تسهد (الملطومة) خوفاً على ولديها من شرور ضرائرها، ولم تدرك بأن أحدهما كان مسكوناً بالشياطين من صغره، وكل تعويذات أجدادها وأنواع التمائم التي اشترتها هي ووالدتها من كل المشعوذين في القرية لن تطرد شيطاناً واحداً من شياطين (أبي الجعل)، ولم تدر (الملطومة) بأن شياطينه ستنشط بعد حين، وتهاجمها في حياتها، وبعد وفاتها ستنقض على بقية ذريتها.

ظنت (الملطومة) أن (أبا الجعل) قد نجا من سموم الخنافس، فنذرت النذور ووفّت بها، لكنها كانت متوهمة، ولم ينقض وقت طويل حتى ظهرت أعراض التسمم الشيطاني على جسده.

مرض (أبو الجعل). التهب جسمه بالحمى، وتورم تحت ابطيه، وسرى سم الخنافس في جسمه، وظل راقداً في فراشه، يعذبه المرض وصخب الأطفال السابحين في البزل. لا تذكّر (الملطومة) زيارة للطبيب في (أم السرجين)، فبعد مقتل ابنها كرهت الأطباء، ولكن (اليقطينة المخرومة) وحده يقرر، فلا قيمة لو اعترضت على كشف الطبيب عليه، ويجهل (الأثرم) سبب اختيار (اليقطينة المخرومة) لحكيم بدوي، وموافقته على علاج البدوي لابنه المريض بدلاً من طبيب.

كان (اليقطينة المخرومة) شغوفاً بالمدارس العصرية، ويتمنى أن يرى جميع أبناءه خريجي جامعات، لا حباً بالمعرفة بل ليتفاخر بهم أمام الناس، مثلما كان فخوراً بشقيقه (المكوي) وحظوته لدى الوصي على العرش. قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات أرسل ابنه البكر (المخبول) ابن القهرمانة ليدرس في لبنان، وتولى (المكوي) رعايته، وكان وقتها يعالج من التدرن الرئوي. في إحدى زياراته لـ (المخبول) في مدرسة رهبان لاحظ صليباً كبيراً معلقاً حول رقبته فنقله إلى مدرسة أخرى، حتى دخل الجامعة، وكان أول خريج جامعي في العائلة.

خير (اليقطينة المخرومة) أبناءه بين مهنتين لا ثالث لهما:

- أما تنجحوا في الدراسة أو تصبحوا رعاة غنم.

التخرج من جامعه أعظم ما في الوجود في رأيه وما عداه مصير وضيع مثل رعي الغنم. خمسة من أولاده اختاروا الدراسة وثلاثة رعي الغنم.

لكن عندما أشرف ابنه على الهلاك بمرض خبيث اختار (اليقطينة المخرومة) راعي غنم بدوي لعلاجه بدلاً من طبيب خريج جامعة. من عادة القبائل البدائية الجائعة التضحية بصغارها، والأقل انتاجاً هم الأقل قيمة، ويذكر كلام (الملطومة) بعادات الأجداد الوحشية:

- بعد علم شقيقه (المكوي) بزواجه مني وبخه: قلت لك طلق زوجتك، فتزوجت بأخرى! فرد عليه: هي عجوز لا تبزّر.

(المكوي) يأمر أخاه بتطليق زوجته (أم لسان الزفِر)، أم نصف أبنائه. في حينها كان عمر (اليقطينة المخرومة) قد تجاوز الخمسين، لكنه تمرد على أخيه فلم يطلق (أم لسان الزفِر) وتزوج من (الملطومة)، العجوز التي لا تنجب أولاداً، كما وصفها لأقاربه. تتذكّر (الملطومة) دخول أخيه غير الشقيق (الأملس) على البيت يوم عرس (بمقدساتي) ابن (أم لسان الزفِر) على ابنته. تروي بانه دخل عليهم من دون نحنحة أو يالله يالله لنستتر. شاهدها فضحك وقال: هذه هي العجوز! هذي أجمل من العروس، و(الملطومة) مثل كل

النساء يطربها المديح، وأجزم بأنها أخبرت زوجها بذلك، لكنه لم يفعل شيئاً لأخيه غير الشقيق، ولو حدث ذلك لقبلي لا لشيخ قبيلة لربما قتل المتطفل على حرماته أو على الأقل كسر أضلاعه.

كانت (الملطومة) عجوزاً في تصنيف قريتها للنساء عندما تزوجت أواخر العشرينات من عمرها، ويبدو بأن (اليقطينة المخرومة) قد اكتفى من الذرية قبل زواجه منها، لذلك كان أولاد (الملطومة) في نظره زائدين عن الحاجة، فلم يكترث لموت ثانيهما مقتولاً، وجاء للأول بحكيم بدوي بدلاً من طبيب، وسيأتي دور (الأثرم) فيما بعد ليتعزز هذا الظن.

كشف البدوي على (أبي الجعل) ووصف لمرضه الكيّ، ووافق (اليقطينة المخرومة) على الرغم من توسلات (الملطومة). أحرق الحكيم خرقة من شماغ قطني ثم أطفأها، وأمسك الرجال (أبا الجعل) من يديه ورجليه، واضجعوه على بطنه، ثم كواه الحكيم، ثلاث كيات على قفاه. يتوتر كلما تذكّر الكيّ، فيلعن الحكيم البدوي، ويكفهرّ وجهه، ويتشنج جسمه.

شهد (اليقطينة المخرومة) عملية الكيّ، واستاء من عويل (أبي الجعل) المتواصل فقرّعه بالتوبيخ و"كن رجلاً!"، تاركاً مسح الدموع عن وجهه واحتضانه لوالدته المنتظرة على أحر من العطابة عودة ابنها بسلام.

شفي (أبو الجعل) من المرض بعد كيّ البدوي لقفاه.

تردد (الملطومة) التي لم تشهد عذاب ابنها بالكيّ:

- كتب الله له عمراً جديداً.

لكن مشاعر (أبي الجعل) تجاه البدوي خالية تماماً من أي عرفان بالجميل. كلما يتذكّره يتحسس على قفاه الندبات الثلاث التي خلفها الكيّ، دوائر مشوهة مرصوصة. وزع (أبو الجعل) سخطه بين الثلاثة، القليل منه للحكيم البدوي، فهو مأمور مأجور، وحصة لأمه لأنها لم توقفهم، والباقي ضمره لأبيه، فالكلمة الأخيرة له وحده.

لا يرى (أبو الجعل) ندبات الكيّ في المرآة، لكن يذكره بها كل من يقف وراءه، حتى لو لم يسأله عنها أو يسخر منه بسببها، ولأن قومهم ساخرون بالفطرة، فلا يكاد يمر يوم

من دون أن يهزأ منه ابن فلاح أو يعيره زميل في المدرسة. ولو وقف أحدهم وراءه لأكثر من دقائق يضطرب، يميل برأسه إلى الخلف، أو يتشبه بالسلحفاة عندما تسحب عنقها داخل صدفتها، ليخفي الندبات وراء ياقة ثوبه أو قميصه، لكنها بقيت مطبوعة على ذاكرته.

كان مرض (أبي الجعل) جزاء لؤمه. لم يتعلم اللؤم من (الملطومة) بالتأكيد فقد كانت أشبه بالإنسان الآلي، ولا تعرف اللؤم لأنها ببساطة لم تنشأ على ذلك في صغرها، واكتفت بالتفرج على شرور الاخرين والتشكي منها، لذلك فشلت في التصدي لهم، وفضّلت الانزواء في ظل (اليقطينة المخرومة)، ولو عرفته على حقيقته لأدركت بأنه مجرد ظل غير ظليل لشقيقه الأكبر (المكوي).

ظهر لؤم (أبي الجعل) في تعامله مع مهندس زراعي. أرسلته إدارة الريّ في العاصمة في مهمة، وتلك أول مرة فارق بها المهندس مدينته، وكل ما في الريف يخيفه، وأشد ما يكره هو ما يحب (أبو الجعل). كان منظر الخنافس كافياً لبث الرعب في قلب المهندس الحضريّ. هو في قاموس قريتهم غشيم، والغشيم في عرفهم القاسي هدف مشروع للمقالب والتندر. حرك رعب المهندس لؤم (أبي الجعل)، وساءه تقزز المهندس من خنافسه المحببة. كان المضيف يومها مليئاً بزوار (اليقطينة المخرومة) وفلاحيه، وتصدر الشيخ المجلس وأجلس المهندس على يمينه، كما تقتضي أعراف القبائل معاملة الضيوف من خارج القبيلة. تعمد (أبو الجعل) الجلوس بجانب المهندس، ثم انتظر انشغاله بالحديث مع والده، ليخرج خنفساً كبيراً من جيبه ويضعه على قميص المهندس. ما أن أحس الحضري بدبيب الحشرة فوق قميصه حتى قفز من مكانه مذعوراً، ويداه تتحركان بسرعة لتنفض الحشرة من على ثيابه، وسط ضحك واستهزاء الحاضرين. في رواية (الملطومة) للحادثة لا ذكر لردة فعل (اليقطينة المخرومة)، فلا صفعة من صفعاته المشهورة أو حتى توبيخ قاسي. المقلب إهانة للضيف، وسكوت (اليقطينة المخرومة) على سلوك ابنه المشين معيب. لعله تلذذ بمنظر الحضريّ المرعوب مثل بقية القرويين الحاضرين في مضيفه فهو مثلهم يستفزه احتقار الحضريين لأمثاله، مهما علت مرتبتهم الاجتماعية.

بعد أن شوهت الحشرات قفا (أبي الجعل) تحولت إلى وجهه. اختارت عينه اليمنى لتزرع على جفنها بثرة. أفرغت ذبابة فيها يرقة ليشمانيا. هي جرثومة خبيثة تأكل لحوم البشر، وكادت أن تطفأ نور عينه. بعد أشهر ماتت الجرثومة وجفت البثرة مخلفة ندبة بارزة، وغير قابلة للإخفاء مثل الندبات على قفاه، فلا ينفع معها تطويل الشعر ولا تمييل الرأس إلى الخلف.

تمدد سخط (أبي الجعل) ليشمل الحلاقين. قبل موضة تطويل الشعر أصر الحلاقون على حلق شعر قفاه بالمكنة والموسى، فتظهر الندبات الثلاث بكاملها. تمنى لو وجد حلاقاً أخرساً، على الأقل لن يسأله عن سبب الندبات. أسهل عليه اختلاق قصة عن تعرضه لحادث سيّارة من قول الحقيقة. لو ذكر البدوي والكيّ بالعطابة سترتفع الحواجب بالتعجب: طالب، أفندي، وابن شيخ ثري، ويتداوى بالعطابة مثل القرويين! ومن دون أن تغادر العيون قفاه سيقرأ في نظراتها التي عكستها مرآتهم الكبيرة كلاماً لم تنطق به ألسنتهم: معيدي، شرقاوي، متخلف.

أصيب بالصلع المبكر. امتد من مقدمة رأسه حتى قفاه، فلم يبق من شعر قفاه سوى زغب قليل، لا يغطي الندبات تماماً. عندما سكن مع شقيقه (الأثرم) لبضع سنين توقف عن التردد على الحلاقين، وصار حلاقه الخاص. قبل كل جلسة حلاقة يذكره بتجنب تقصير الشعرات القليلة على جانب رأسه الأيسر التي يتركها طويلة ليسدلها على صلعته حتى الجانب الأيمن وعدم المس بالشعيرات المتبقية في قفاه لإخفاء ندباته.

ولادة (الأثرم)

ولدت أمي توأماً: الخوف وأنا

الفيلسوف ثوماس هوبس

ولد (الأثرم) بعد (أبي الجعل) بثلاث سنوات وبسنتين بعد شقيقهما المتوفي بالهرس على أيدي الضرة (أم لسان الزفِر) وابنائها وخدمها.

ولد تحت حراسة مشددة. عندما اشتد حمل (الملطومة) استنجدت بالحبوبة، أمها الأرملة. توفي ستة من أبنائها الذكور، الواحد تلو الآخر. قطفهم الموت قبل الفطام، فلم يبق من ذريتها سوى (الملطومة) وشقيقها الأصغر. صورتها في ذهن (الأثرم) امرأة عجوز، حرثت السنين أخاديد في وجهها، وتقوس ظهرها، وكلّ بصرها. عندما تكشف عن رقبتها يتبدى وشم أزرق. يبدأ أسفل حنكها ثم ينحدر على رقبتها مثل شلال، ثم يصير جدولاً على أعالي صدرها والباقي مستور، ولكنها تؤكد بأن نقش الوشم لا يتوقف هنا. جمعت بين الحبوبة وابنتها المصائب، لكن (الملطومة) لم تأخذ من أمها كل صفاتها، وتمنى (الأثرم) لو اكتسبت النزّر من قوة شخصية والدتها وإرادتها الصلبة التي لم يحطمها الثكل ست مرات والترمل المبكر والفقر المدقع، وكانت رغم ذلك أكثر رقة من ابنتها. يتذكّر (الأثرم) حنانها، ويحزنه خذلانه لها في شيخوختها. أول مشهد لها في ذاكرته بعد ختانه بموسى حلاق. وقف رافعاً ثوبه لئلا ينكأ الجرح، وبكى متألماً، فتطوعت لتسليته. كفكفت دموعه ووعدته بامتطاء حمار بعد شفائه.

بين الحبوبة و(الملطومة) نهر سريع الجريان. في كل يوم تصحو قبل الفجر لتحضر الطعام لابنها، وعند ضفة النهر تنتظر مرور زورق، لينقلها عبر النهر، من دون مقابل غالباً، طلباً لثواب ورضا أجدادها. تجلس عند الباب الخارجي حتى خروج (اليقطينة المخرومة)، ثم تدلف إلى غرفة ابنتها، لتحرس ابنتها وحملها الثمين، وقبل موعد عودة (اليقطينة المخرومة) من الحقل والمضيف تغادر عائدة إلى كوخها.

بعد ولادة (الأثرم) ركض (أبو الجعل) إلى أبيه في المضيف ليخبره بأن شقيقه عاد من الأموات، من أين له هذا الكلام الغريب؟ لعلها وسوسة الأرواح الشريرة الخانسة فيه. كان في الثالثة من عمره، وربما سمع (الملطومة) تقول: شقيقه الأكبر (أبو الجعل) صغير ولم يقدر على حمايته. سمعتها المخلوقات الشيطانية، وأوحت له القول بأن أخاه القتيل بعث من الأموات، وهكذا اختفت من ذهنه أي بذور لتأنيب الضمير فيما بعد.

كانت تريد تسميته (جبر)، لأن الله جبر خاطرها المنكسر بمقتل ابنها، لكن (اليقطينة المخرومة) أصرّ على تسميته باسم القتيل، نزولاً على إرادة شياطين (أبي الجعل)، فأما أن يكون (اليقطينة المخرومة) بدون إحساس أو هو الآخر مسكوناً بالشياطين. في كل يوم رأته (الملطومة) فيه أو سمعت صوته أو خطر على بالها تذكّرت ابنها القتيل وتجددت أحزانها. عندما يموت أحد سكان المدن يطبعون تعزية ويعلقونها على جدران المباني وأعمدة الإنارة، وبعد أسابيع أو أشهر يزيلها كناسو البلدية أو يلصقون عليها تعزية لميت أخر، فلا ترى عائلة الميت الأول تعزية فقيدها. كان تعزية ابنها القتيل الحية الناطقة، التي لا تصل أيدي الكناسين لكشطها، ولن تطمسها تعزية جديدة. لم يكن (اليقطينة المخرومة) غبياً إلى هذه الدرجة، لكنه لم يكترث لمقتل ولده الصغير أو لحزن زوجته الدائم، لذلك وافق (أبو الجعل)، وسماه على اسم القتيل.

فدى الله ابن نبيه بذبح عظيم، وافتدت الشياطين (أبا الجعل) بشقيقين، الأول المغدور وكان ثانيهما (الأثرم). عندما تجوع القطة وصغارها تأكل أصغرهم، وفي عائلتهم وأمثالها يضحون بالصغار لا خوفاً من مجاعة ولكن للاستئثار بالميراث وربما لحرق قلب الأب أيضاً. بعد ولادة الشقيق الأوسط حل محل (أبي الجعل) في مرتبة الأصغر، فتحول اهتمام القتلة في عائلتهم إليه، ولم تمض سنتان حتى واروه التراب، ثم جاء دور (الأثرم) ليفتدي (أبا الجعل). لم يلتهموا (الأثرم) دفعة واحدة بل بالتقسيط. في كل العائلات المتحضرة أصغر الأبناء مدلل ومحسود، وفي عائلتهم سيكون محظوظاً لو بقي على قيد الحياة.

تاريخ طفولة (الأثرم) محفور في ذاكرة (الملطومة)، مثل كتابات سكان بلاد (الدهن والدبس) القدماء على ألواح الطين، تستخرجه بين حين وآخر، لتنفض عنه غبار النسيان، وتعيد قراءته على مسمعه، هي فصول حياتها أيضاً. يتخيل نفسه بطلها، تقبع هي في خلفية المشهد – مجرد توزيع درامي، هي ترسم الأحداث، وما هو إلا مجرد طرف لشخصيتها، أو ظفر في إصبعها.

بينما خضع (الأثرم) للحراسة المشددة من (الملطومة) والجدة كان (أبو الجعل) يلهو مع أقرانه في الحقول أو يسبح في قناة البزل.

يوم للعذاب ويومان لمحاولتي اغتيال، ثلاثة أيام في السنة الأولى من حياة (الأثرم)، لا تنساها (الملطومة)، ولا تترك للزمن فضل محوها. يوم العذاب صيفي قائظ. يتصوره تموزياً، هواءه ناضج بشمس النهار، ومضمخ برطوبة سقي حقول الأرز، المحيطة بمنزلهم في (أم الجواميس) من كل صوب. أجبرها الحر على الخروج من حصنها في غرفتها إلى باحة البيت، خطوة أو خطوتين لا أكثر. وفراشها حصير من ألياف النخل مدته قرب باب الغرفة. أدمى العبث بالعيدان المنسلة من أطراف الحصير أصابعه مرات.

بيت (اليقطينة المخرومة) مستطيل الشكل، أربعة أضلاع لأربع زوجات، لكن الأضلاع غير متساوية، فلا عدل حتى في حصص الزوجات من البيت. يتفرع من نهاية الضلع الشرقي ممر قصير، يقع على جانبه مطبخ، ويفضي إلى مدخل البيت الخلفي. لدى (الملطومة) أسباب كافية لكراهية البيت، ولدها المقتول ومحاولات القتل والضرّائر وحاشيتهن وقناة البزل القريبة.

جلست (أم اللسان الزفِر) أمام ضلع البيت الخاص بها وابنائها، ترمق (الملطومة). نظراتها شواظ من حقد نحاسي وحديدي ذائب. تشعر (الملطومة) بأشعة الكراهية المنبعثة من عدستي عيني (أم لسان الزفِر) الزرقاوين، فلا تكلّ من ترديد تعويذاتها ضد الحسد: من عين أفرق ومن عين أزرق، ومن عين ما صلت على محمد وآل محمد، وتهمس بكلماتها لئلا تسمعها أم العينين الزرقاوتين.

سر العيون الزرقاء مجهول، حتى زوجها (اليقطينة المخرومة) لا يعرفه، أو هو لا يكترث. المهم بياض بشرتها وزرقة عينيها، ولا يعيبها في نظره لسانها الزفِر، ودواءه الصفع حاضر. لون عينيها وبياض بشرتها أعميتا (اليقطينة المخرومة) عن كل عيوب (أم لسان الزفِر)، ولم يدرك وقتها بأنه سيدفع ثمن ذلك فيما بعد، ربما لم يسمع بالتحذير من خضراء الدمن، وليس معذوراً، حتى لو لم يسمع به. لو أنصت لصوت عقله بدلاً من حسيس أعضاءه الجنسية لعاش حياة أفضّل ومات ميتة لائقة. أصل عائلة (أم لسان الزفِر) غير معروف. اسمهم القبلي يدل على أنهم من منطقة بعيدة في الشمال، خالية من العرب، وعند القبليين المتعصبين لأصولهم أما أن تكون قبلياً أو أنت غجري أو عبد، ولون بشرتها وعينيها ينفيان عنها العبودية، فلا يبقى سوى احتمال واحد.

كانت (أم لسان الزفر) مهووسة بأحقاد، حتى تظن بأن داخلها عين نضاحة بالحقد، فاضت به نفسها، وزعته على أولادها، تركة ضخمة، وهم بدورهم ورثوها لأبنائهم، وما تزال أحقادها حية حتى اليوم. بعد ولادة (الأثرم) أصبح لأحقاد (أم لسان الزفِر) هدف وحيد، وهو التخلص منه.

في ذلك اليوم القائظ تفرجت (أم لسان الزفِر) من كثب على عذابه، ولم يشف غليلها. يتصورها جالسة على فراشها أمام غرفتها، ومن حولها بناتها وخدمها. في كل بيوت الشيوخ عدد من الخدم السود. اغتصب (العرقجي) ابن (أم لسان الزفِر) خادمة شابة سوداء، وحملت منه سفاحاً، وشهدت (الملطومة) على اختفاء الخادمة السوداء الحامل فجأة، ولم يعد أحد منهم يذكرها. عندما تختفي امرأة فجأة في الريف، ويتفادون ذكرها أول ما يخطر بالبال بأنها قتلت غسلاً للعار، هو عار (أم لسان الزفِر) وابنها، لكنهم تخلصوا من الضحية لا الجاني لئلا ينفضحون، ومثل هذا العمل لا يتم من دون معرفة (اليقطينة المخرومة).

لا تحضر ذكريات عذاب (الأثرم) بالمفرد، تهجم عليه بالجملة، مثل خلية نحل هائج، ويحاول عبثاً الهروب منها، ويبقى ألم وخزها حتى بعد أن يستل إبرها من عقله.

لا يتذكّر إن كان دهن الكافور أم مرهم أبي شوارب الإنجليزي، ونساء الشيوخ يتجملن بالدهون، تحت وفوق الجلد، حتى (الملطومة) تقول بأنها كانت قبل الزواج نحيلة، جلد وعظم، وبعد الزواج امتلأت، ثم ترهلت في الكبر.

طارت رائحة المرهم النفاذة من على جسم (أم لسان الزِفِر)، ودارت بين جدران البيت، فلم تجد مخرجاً، حتى تشبع بها الهواء الحار المثقل برطوبة الحقول، فسقطت على (الأثرم) الرضيع. بعد أول نفس من الرائحة القوية تشنجت رقبته. ذعرت (الملطومة) من منظر رقبته الملتوية. تدعي بأنها عرفت السبب بسرعة، وتوسلت إلى (أم لسان الزِفِر) لتكف عن وضع المرهم، فنادت (أم لسان الزِفِر) على بناتها، وتناوبن على فرك أيديهن وأرجلهن بالمرهم. حملته (الملطومة) إلى داخل غرفتها، وقضت بقية النهار والليل تبكي وتبتهل.

في الصباح جاءت الحبوبة ونصحتها بدهن رقبته الملتوية بنفس المرهم، فلم تنتظر إذن (اليقطينة المخرومة)، هو خذلها من قبل وترك ابنها لتقتله ضرّتها. دهنتنه بالمرهم، فعادت رقبته إلى وضعها الطبيعي. تشنج رقبته مزمن، وحتى اليوم يتكرر كلما اشتم رائحة غريبة.

تلك كانت مجرد مقدمة لما هو آت، صحن شوربة قبل المقبلات والوجبة الرئيسية، وكان طعامه أحياناً أشبه بالسمّ الزعاف.

هل تعرفون أحداً تعرض لمحاولتي اغتيال في العام الأول من عمره؟ وقعت أول محاولة بعد أسابيع من ولادته. دبّرتها (أم لسان الزِفِر)، ونفّذتها أكبر بناتها (المهسترة). ظهرت عليها بوادر الهستيريا في طفولتها. تصيبها النوبة لأتفه الأسباب، فتبدأ بالزعيق، ولا تفلح توسلات ثم صفعات أمها في تهدئتها، و(أم لسان الزِفِر) غير مقنعة في دور الأم. تردد (الملطومة) بأن البشر يولدون بقلوب بيضاء مثل الحليب، فإن حقدوا وقعت نقطة سوداء في بياض القلب، وكلما كبر الحقد توسعت النقطة السّوداء، وعندما يخيم السّواد على قلب إنسان فلا أمل في إصلاحه. في محل القلب من صدر (أم لسان الزِفِر) قطعة من الفحم

الحجري، لذلك كان دواؤها لنوبات (المهسترة) صفعات، وإذا تعبت استعانت بأبنائها، فترد (المهسترة) عليها بصراخ أقوى وبالبصاق، ولديها خزين لا ينضب من اللعاب، وكأن في داخل فمها حنفية بصاق. فشل أطباء الاعصاب في علاجها، ولعلهم استعملوا الصعق بالكهرباء كما فعلوا بأخ (اليقطينة المخرومة) غير الشقيق؟ لعائلتهم حصة كاملة من المعتوهين، اثنان من أخوة (اليقطينة المخرومة)، ومعظم أبناء وبنات (المكوي)، وأحد أحفاده محجور في مصح لذوي الاحتياجات الخاصة في بلد مجاور، تخلصوا من عبئه وحفظاً للسمعة. الجنون أرحم من القتل. إذا أراد أخوك نهب أموالك، ولم تطاوعه نفسه على قتلك لأنه جبان يدعي بأنك مجنون ويحبسك في البيت.

أثناء إقامة (المهسترة) في المستشفى زارها ابن عمها، وأخته زوجة (بمقدساتي)، وهو خبيث مثلها، وعربيد عديم الحياء. استفزَّها وخرج بعد ثوان من غرفتها يمسح عن وجهه آثار بصاقها.

تدربت (المهسترة) على الوقاحة في حجر أمها، ولأنّها البكر كان نصيبها الأوفر. ترضع وتنصت وتتعلم. يقال أن طعم حليب الأم من مزاجها، وثدياها وعاءان للتقطير، ويرضع بعض المواليد حليباً محلى بطيبة أمهاتهم، ولم يكن أبناء (أم لسان الزفِر) من بينهم، ولو صَدقوا فلا بد أن طعم حليب (أم لسان الزفِر) أمرٌّ من العلقم، وحتى لون حليبها يتلون حسب مزاجها، إذا غضبت احمرّ، ولو سبت ولعنت وكفرت نزل مصفرّاً، ولو حسدت تخثّر.

تتذكّر (الملطومة) أحداث ذلك اليوم الكالح. كان يوماً رتيباً حتى أطلَّ وجه (المهسترة) عند باب غرفتها الموارب، وتبرر ذلك:

- لو أوصدته لضاقت أنفاسنا من الحر، وانقبضت روحي من الحبس والعتمة، وشباك الغرفة صغير ومطل على باحة الدار، ولو تركت الباب مفتوحاً على مصراعيه لساقوا إلى داخل غرفتنا حيواناتهم وأطفال الفلاحين.

كانا محبوسين في (أم الجواميس)، (الملطومة) وابنها (الأثرم). قضيا معظم أوقات النهار والليل في غرفتها المزرية. تزورّ الشمس عنها ذات اليمين وذات الشمال، ولا يمكثا خارج الغرفة الزنزانة سوى ساعات قلائل. يتذكّر مشهدين لا أكثر خارجها، في الأول يرى نفسه واقفاً بين مدخل البيت والمضيف يراقب خروج (اليقطينة المخرومة) من الإسطبل على فرسه الأصيلة، وكان لونها أبيضاً بنقط سوداء عند بطنها. غالب خوفه واقترب من (اليقطينة المخرومة) أملاً بابتسامة، فاضطربت الفرس، ولم يكن السبب. ألا يقولون بأن للحيوانات حاسة خاصة؟ ولعل الفرس أدركت بحاستها خوار المتطي صهوتها، لذلك لم تطعه ونفرت. انتهره بحدة فهرب إلى (الملطومة) والغرفة الزنزانة. في المشهد الثاني يقبع خائفاً في زورق صغير داخل المستنقع القريب من بيتهم، وفي القارب (اليقطينة المخرومة) ورجل جالس بيده مجداف وآخر واقف يحمل مردياً، وخلفهم أسطول صغير من الزوارق المليئة برجال مسلحين. كان (اليقطينة المخرومة) يقود حملة صيد خنازير. أطلق النار من بندقيته فلم يصب خنزيراً.

تعود(الملطومة) لسرد أحداث ذلك اليوم:

– تحيَّرت من رقة تحية (المهسترة) وسؤالها عن حالنا، وهي عادة تسمعني الشتائم وتعبس في وجهي وتغمني بيديها، ولكنها في ذلك اليوم تصرفت مثل فتاة مهذبة، ولم أدرك بأن تهذيبها كان مصطنعاً إلا بعد فوات الأوان.

مدت(المهسترة) يدها بصرّة ورقية:

- أمي تسلم عليك وتقول لك هذا مرهم لزيادة حليب الرضاعة، مُجرّب ومفعوله أكيد.

صدقتها (الملطومة)، فهي ساذجة حتى البلاهة، وفي عقلها تساكنت البلاهة مع الجبن فكانت صيداً سهلاً، ولم تعلمها التجارب الحذر منهم. كانوا هم الأقوياء وهي مثل كل الجبناء في بلاد (الدبس والدهن) توسلت رضاهم وعطفهم، وبالتأكيد شكرتها وطلبت منها إبلاغ والدتها سلامها وامتنانها على الهدية الثمينة، وسارعت إلى فتح الصرّة وخلط المسحوق بالماء حتى تحول إلى عجينة ثم دهنت به صدرها. أكملت (الملطومة) الرواية:

- لا أدري كيف صدّقتها! مصّة واحدة ثم عافت نفسه الرضاعة. قذف برأسه إلى الخلف وتلوى جسمه وكأنه يريد الابتعاد عني، وبكى بحرقة وغضب، ويداه الصغيرتان تضربان جسمي.

لم يعودها على مثل هذه النوبات. حاولت إرضاعه بعد قليل، فتكرر المشهد نفسه. احتارت (الملطومة) في تفسير سلوكه غير المعتاد، وخذلها ذكاؤها المحدود، لذلك بكيت، وبكيا الاثنان. بكي هو من الجوع والصدمة، وبكيت هي بسبب قلة الحيلة واضطراب نفسها، وكانت (الملطومة) وحتى وفاتها ماكنة بكاء متطورة، باستطاعتها أن تبكي لساعات عديدة، أو حتى نهار كامل. عندما تحتار أو تنزعج تبكي، وأحياناً تستدرج ذكرياتها الحزينة لتبكي، بل تبكي من دون سبب. شاهدها مرة تبكي بحرقة وهي تغسل القدور والمواعين تحت حنفية الحديقة وبجانبها كومة من تراب الطحين الذي يزودها بها أخوها الضامن لمطحنة (اليقطينة المخرومة)، وقبل أن يعرفوا بمساحيق الغسيل كانت قشور القمح المهروسة أفضّل مزيل للدهون وبقايا الطعام من القدور والمواعين. قالت له بأنها تبكي على أختها غير الشقيقة، وتلك أول مرّة عرف بأنّ لها أختاً. وفي عائلتهم وقبائلهم لا أحد يبكي على أخ او أخت من غير الأشقاء. يتظاهرون بالحزن أمام الناس ويفرحون في سرِّهم، ما عدا (الملطومة)، فهي بكاءة، فلا أحد يسبقها في البكاء في عاشوراء، ولو سمعت بموت غريب تنزل الدموع من عينيها. يقال أن المصابين بالكآبة المزمنة سريعو الدمعة أيضاً.

لم يكن لديها أحد تستعين به، وكعادته كان (أبو اليقطينة المخرومة) غائباً، و(الحبوبة) في كوخها على الضفة الأخرى من النهر، ولن تأتي حتى صباح الغد، ولم تنتظر مساعدة أو نصيحة من نساء البيت، ومَنْ لا تكرهها منهن تخاف من نقمة (أم لسان الزفِر) لو ساعدتها.

اخيراً وبعد ساعات من البكاء المرّ جاءت (المهسترة) لتنهي حيرتها. لم تحنّ قلوبهم عليه بل أزعجهم صراخه، وأرادوا التشفّي:

- تقول لك أمي المسحوق الذي أعطيته لك صَّبر.

تعرف (الملطومة) الصَّبر. استعملته من قبل لفطم (أبي الجعل) وشقيقه المقتول هرساً، ولا توجد مادة أمرُّ منه، ولو تذوقه مولود فسيمتنع عن الرضاعة من ثدي أمه. يتصورها ناظرة ببلاهة إلى (المهسترة)، بانتظار عقلها المنشغل بتعديل قائمة الشرور داخله، ولأن عقلها لم يصدّق ذلك لأول وهلة أرادت التأكد بنفسها، فتذوقت المرهم، ووجدته مرّاً.

- ليش يا بنتي؟ الله يسامحك ويسامح أمك.

كلامها من مخيلة (الأثرم)، لكنه يعرفها جيداً، فقد كانت من رأسها حتى قدميها كتلة من المَسكَنة، وكانت المَسكَنة درعها في الدنيا، ولو نزعته لهلكت أو هكذا تعتقد، لذلك يجزم بأن ردها على تدبير ضرّتها وابنتها فطامه المبكر عتاب مسكَنة، ولا بد انها بكت وناحت، وما نواحها إلا نشيد مسكنتها.

بعد ذهاب (المهسترة) غسلت (الملطومة) الصَّبر عن صدرها، بالماء الحار والبارد، وتضرّعت لأجدادها الموتى المقدّسين، لكن من دون نتيجة، وفضّل (الأثرم) الجوع على الحليب المرِّ.

كان عمره أسابيع قليلة وبينه وبين موعد الفطام ما يقارب العامين، وبسبب بلادة (الملطومة) فُطم قبل الأوان فهل يشكر لها ولوالده غير المكترث؟

في لحظة تحول مذاق الأم من الحلو إلى المرّ، وانقطع غذاؤها عنه، وحتى المرضعة ستكون في عينيه أنفع منها. لم يحرمه الفطام في تلك السن المبكرة من حليبها فقط بل منها كلّها، وهي أيضاً حُرمت منه، ليس باختيارهما ولكن بتدبير (أم لسان الزفِر) وتنفيذ ابنتها (المهسترة)، ومع ذلك لم يحببها أحد مثله.

في اليوم التالي جاءت الحبوبة كعادتها، ولا تثق (الملطومة) بغير أمها، وبعد مقتل ابنها الأوسط وفطام (الأثرم) المبكر بالصّبر لم تستبعد أن يدسوا له السُّمَّ في الحليب لو توسلته منهم. سلمت الحبوبة حليّ عرسها الذهبية لتشتري بثمنها بقرة حلوب. في صباح كل يوم ولأشهر حلبت الحبوبة البقرة، وملأت قِدراً من حليبها، ثم أغلقته بإحكام حتى لا ينسكب الحليب، وصرّته في خرقة، ثم مشت من كوخها إلى شريعة النهر، لتطلب من

ملاح زورق مار نقلها إلى الضفة الثانية، ثم تجلس عند باب غرفة ابنتها، بانتظار مغادرة (اليقطينة المخرومة)، وعند خروجه يلتفت عادة نحوها:

- أهذه أنت يا سيدة؟

نفس الكلمات يرددها كلما رآها. يبتعد قليلاً ليبصق، ثم يخرج من البيت.

تدلف الحبوبة إلى الغرفة فتستقبلها ابنتها بلهفة; تخاف عليها من عبور النهار كل يوم مرتين، لو انقلب بها الزورق فستغرق فمن سيجلب لها الحليب صباح كل يوم؟

يحتار (الأثرم) في تفسير عدم اكتراث (اليقطينة المخرومة) لحياة أبناءه من (المللطومة). ظنها عجوز لا تبزّر كما وصفها لشقيقه (المكوي) فكذّبته بولد بعد الآخر، وربما ودَّ لو لم تلد. لم يصدّق (اليقطينة المخرومة) زوجته (المللطومة)، أو فضّل عدم تصديقها، أو هو لم يكترث، لأن مثله يبجل القوي، ويزدري الضعيف، ولولا القوة لكان نكرة، مجرد قروي قبلي. بالأمس كان أجداده يسرحون بالجواميس. يبيت كل ليلة بجانب جاموساته الغاليات. لو هاجت ستكسر أضلاعه بحوافرها أو تبقر بطنه بقرونها. ينام على قرصات القرادات المترعة بدماء جواميسه، ويصحو على روائح روثها. وحدها القوة رفعته إلى مرتبة الشيخ فصاروا ينادونه (يا محفوظ)، ويقبلون يده، ويحلفون ببخته، ثم تمرد على أمر (المكوي) ربما لأول مرة في حياته فلم يطلّق (أم لسان الزفِر) لأنها قوية، والبرهان قتلها لولده من (المللطومة)، ولا يهم لو قتلت الثاني بالصّبر أو غيره، والمهم ألا تستقوي عليه.

(أم لسان الزفِر) قوية بقوة القتلة، فاستحقت اعجاب (اليقطينة المخرومة)، أما (المللطومة) الضعيفة فلم يكنَّ لها سوى الازدراء، ولأنها مكسورة الجناح استبقاها للنكاح وللخدمة في خريف عمره.

لم يمت (الأثرم) نتيجة فطامه المبكر، لكن تسوست أسنانه الأمامية الأربعة، ثم تخلخلت وسقطت، ثم تسوست الدائمة، لكنها لم تسقط لوحدها. بعد سنوات أخذه (اليقطينة المخرومة) إلى طبيب أسنان في بلدة قريبة، وليضمن خنوعه وعده بحلوى

طحينية أو دبسية بعد زيارة الطبيب. عيادته في أعلى مبنى قديم متهالك وسط زقاق قذر يتوسطه أخدود لمياه المجاري الآسنة. لم تمح السنين مسلسل أحداث تلك الأمسية، ويتذكّر بوضوح مشقة صعود السلم المعتم، ويكاد يشم روائح البهارات والمخللات في دكاكين العطارين القريبة، ويسمع أصوات وضوضاء زبائن مقهى ورنين جرس عربة حنطور. تشنج جسمه لرؤية الطبيب في معطفه الأبيض، وتأكد له فيما بعد بأنه بدون شهادة. عمل في عيادة طبيب أسنان يستقبل المرضى ويناول الطبيب أدواته ويكنس العيادة، وتعلم خلع الأسنان وتركيب الاصطناعيّة منها بالمشاهدة. حتى اليوم يرتفع ضغطه لرؤية طبيب، وتبين له مؤخراً بأنها حالة نفسية تصيب البعض كلما قصدوا عيادة طبيب. لم يستعمل مخدراً لأنها أسنان لبنية، وخلعها غير مؤلم، هكذا وعده، لكن صراخه كذّبه، وقبل أن يكمل غافله وهرب. نزل إلى الشارع وركض بأقصى سرعته. أراد الابتعاد عن تعذيب مدعي الطبابة غير مكترث باحتمال الضياع في أزقة وحارات البلدة أو الوقوع في قبضة قصاصي القلوب، وهم سحرة يعبدون الشياطين، ويقدمون لهم قرابين من قلوب البشر، ويروون بأنهم يتسكعون حول المقابر، وفي البلدة أكبر مقبرة في البلاد. يقسم أخ (الملطومة) غير الشقيق بأنه قتل قصاصتين للقلوب بسيفه في المقبرة.

طارده صوت (اليقطينة المخرومة) الغاضب، لكن السائق كان أسرع منه. لحق به عند نهاية الزقاق، وأعاده إلى أبيه وطبيب الأسنان المزوّر ليخلع بقية أسنانه المتسوسة.

غادر (أبو أسنان خائسة) ورجع (الأثرم) أو (أبو ثرمة)، حرمته الثرمة من الضحك أو حتى الابتسام. يتصنع الجد مع الجميع، ولا يتكلم إلا مضطراً، ويكره النطق ببعض الكلمات أو الحروف لئلا يفغر فمه فتظهر لثته العارية، وبها اكتملت متلازمة ثلاثي الرعب في نفسه. يتربع (اليقطينة المخرومة) على قمة المثلث، لا يعرف من تربية الأبناء سوى التهديد والوعيد. كان بعبعاً ملازماً له في الليل والنهار، ومن لا يرضخ لسلطته القاهرة عقابه بصقة أو صفعة تخلخل فقرات الرقبة، لذلك حرص على تحاشي غضبه بالتذلل والمسكنة وتقبيل يده كل يوم وتمريغ جبهته بظهرها، ويكتم تقززه لو كانت

أصابعه قبل قليل تنبش داخل أنفه أو بين أسنانه. عند الرأس الثاني من مثلث الرعب العائلي قبعت (الملطومة). كانت هي الخائفة والمخوّفة، ومنها تعلم المَسكنة والذل، حتى امتلأت نفسه بالرعب، وكأن أفراد عائلته وشرورهم غير كافية لإخافته في النهار تروي له قبل النوم قصص الرعب عن العملاق الطنطل والسّعلاة البرمائية وقصاص القلوب والساحرة (سمنيتك ما أكلتك) التي تسمّن الأطفال ثم تلتهمهم. واكتمل مثلث رعبه بثرمته.

تمنى (الأثرم) أحياناً لو بادله (أبو الجعل) ندباته الأربعة مقابل العورة داخل فمه، ثم اشتهر بكنيته الجديدة، فما عادت محاولته لإخفائها مجدية.

ترددت زوجة فلاح على (الملطومة) بانتظام بعد الدوران على زوجات الشيوخ الأخريات، فلا يكاد يمر وقت طويل حتى يراها في غرفة (الملطومة). هي أشبه بوكالة أنباء متجولة. كلما زارتهم جلس مقابلها وبصره معلق على فمها، لا شغفاً بنشرة أخبارها وإشاعاتها بل لتأمل أسنانها. تذكّر كنيتها: (أم سنون)، لأن أسنانها العلوية بارزة، أربعة اسنان كبيرة عاجية بيضاء، ثنيتان وربعايتان لا شية فيها. أُعجب بجرأتها، لأنها لم تستح من اسنانها الناتئة، كما خجل هو من ثرمته المستترة، وتضحك ملأ شدقيها، ولا تغطيها كما تفعل غيرها من نساء أسنانهن سوية، وحسدها على أسنانها العوجاء، وكان مستعداً لمبادلتها، أسنانها البارزة مقابل ثرمته والكنيتان أيضاً. لو كان له مثل أسنانها لما احتار في قضم تفاحة، ولا يظن (أم سنون) أكلت تفاحتين في حياتها، وهو لديه تفاحات ولحوم ويحتاج لأسنانها لأكل التفاح ونهش اللحم.

بعدها بسنين وتوسلات لا تنقطع من (الملطومة) أخذه (اليقطينة المخرومة) إلى طبيب أسنان في العاصمة، ليصنع له طقم أسنان اصطناعية غير ثابتة، وفي كل مساء وقبل النوم أودعها قدح مملوء بالماء قرب سريره مثل العجائز، ولم يسبقه في العائلة لتركيب أسنان اصطناعية سوى (اليقطينة المخرومة) وبأعوام قليلة، وستمر أعوام قبل أن تلحق بهما (الملطومة). لم يكن شقياً قبل تركيب أسنانه الاصطناعية، لكنه أصبح جباناً بعدها، وصار

يتفادى العراك حتى لا تنكسر أسنانه الاصطناعية بلكمة، ثم تجنب حتى الجدال لئلا يتطور إلى عراك، وهكذا تحول من الفارس الحامي لوالدته في (أم الجواميس) إلى جبان رعديد في (أم السرجين). حتى اليوم لا تزال أسنانه الاصطناعية الثابتة والأعلى تكلفة تردعه عن الدخول في مشاجرة أو جدل حاد، لكنه وفي بعض الأحيان النادرة تغلب على جبنه وتصدى لتحديات أصعب بكثير من رفيق مدرسة شقي أو قريب حاقد أو غريب عدواني.

مع تشخيص لكل مرض جديد وقبل مغادرة عيادة الطبيب أو المستشفى تذكّر (الأثرم) فطامه المبكر، ولمح شبحا (أم لسان الزِفِر) وابنتها (المهسترة) في صورة كل أشعة وعلى شاشة جهاز قياس الضغط، وتخيل رأسيهما على ديدان الإسكارس التي تبرزها، وكلما تشنج جسمه لرائحة قوية أو احمرّ وجهه وتسارعت دقات قلبه بسبب الخجل والخوف لعن (أم لسان الزِفِر) وذريتها.

بعدها بأشهر أرسلت له (أم لسان الزِفِر) وجبة جديدة. يردد (الأثرم) مازحاً:

- ما أظلم الناس! تفاحة واحدة مسمومة خلدت سنووايت (بيضاء الثلج)، وأنا حاولوا قتلي مرتين ولا زلت نكرة.

بعد شوربة دهن أبي شوارب التي لوت عنقه، ومقبلات الصّبر التي فطمته من حليب أمه أطعموه الصحن الرئيسي: ساعة منبه.

تقول (الملطومة): خرجت إلى باحة الدار لأغسل ملابسنا الوسخة. كانت الوحيدة من بين زوجات الشيخ التي غسلت ملابسها بيديها. من المعتاد أن تكون الزوجة الرابعة الأكثر دلالاً، إلا (الملطومة)، وفي كل شيء كانت الأقل نصيباً، حتى في أرغفة الخبز اليومية، وكانت حصتها أردأ ما يخرج من التنور في كل يوم، وتوزيع الخبز مهمة (القهرمانة). من دون شكوى وفي مسكنة يحسدها عليها القديسيون أكلت (الملطومة) وأطعمت ذريتها خبزاً متفحماً، وتناولوا مرقاً قفاراً من دون وَذرة لحم، وفي أفضل الأيام لِاكوا عظماً تعلقت

به ذرات من لحم وشحم وغضاريف، وتحلوا بمخ عظام. أكلوا في صمت ومن دون النبس بكلمة احتجاج واحدة، لأن في غابتهم القبلية لا يأكل الضعيف اللحم بل يؤكل.

يتخيلها (الأثرم) مقرفصة أمام طست الغسيل. أجلسته على جنب، بعيداً عن قدر الماء المغليّ فوق موقد البريمس، ويداها منهمكتان بفرك وشطف الملابس، ونظرها لا يفارقه طويلاً. في ذلك اليوم غابت الحبوبة أو ربما أبكرت بالعودة إلى بيتها. بعد قليل خرجت خادمة سوداء من جهة المطبخ واقتربت منها. سلمت وجلست بجانب (الأثرم)، وبالعادة تتجاهلهم الخادمات، ليس باختيارهن، فلا خادمة تجرؤ على مخالفة أمر (القهرمانة) أو (أم لسان الزفِر)، وكل زوجات (اليقطينة المخرومة) مخدومات إلا (الملطومة). رحبت بها (الملطومة)، وفاجأها عرض الخادمة غير المعتاد بالاعتناء بوليدها حتى تنتهي (الملطومة) من غسل الملابس، فوافقت من دون تردد.

تظن (الملطومة) أن طيبة قلبها تغفر لها كل اخطائها، لذلك لم يخطر ببالها أبداً بأن (الأثرم) سيلومها على ما حدث. بعد مقتل ابنها انصب كل اهتمامها على تحصين ذريتها من شرور (أم لسان الزفِر). سهدت وعسَّت واستنجدت بالحبوبة، وعندما ابتعد الخطر وشعرت باطمئنان نسبي تفرغت لتحذير أبناءها من ضرّتها وذريتها القاتلة. كانت هي الطرف الأضعف في الصراع الدائر في دار (اليقطينة المخرومة) وبحاجة لكل معونة متاحة، لذلك رحبت بعرض الخادمة.

جاءت الخادمة تحمل هدية للوليد، كما أحضرت الساحرة هدية لسنووايت، وانتظرت حتى ادارت (الملطومة) لها ظهرها ثم اخرجتها من جيبها، ووضعتها أمامه: حطام ساعة منبه، وما أن شاهدها على الحصيرة حتى مد يده لأكبر أجزائها حجماً، وكعادة الأطفال في عمره وضع القطعة المعدنية في فمه، ومباشرة انزلقت إلى بلعومه وسدّته، وعند ذلك انتهت مهمة الخادمة، فقامت من مكانها مسرعة نحو باب الدار.

بعد ثوان التفتت (الملطومة) ناحيته، وبصوت متهدج أكملت الرواية:

- **شاهدت لون وجهه المخضر وجحوظ عينيه. وأدركت بأنها سكرات الموت.**

لا تنسوا بأنها شهدت وفاة ستة من أشقائها الرضع، ولعلها صرخت طالبة النجدة، ولو فعلت لما استجاب لها أحد، فقد كان مخططاً أن يلحق بشقيقه، سميّه، في ذلك اليوم. جرعوه الصّبر المرّ فلم يمت، لكن زنبرك الساعة أدهى وأمرّ.

قبل أن يختنق ويسلم الروح جمعت (الملطومة) شتات عقلها. تروي بأنها لاحظت حطام الساعة المنبه فأدركت بأنه ابتلع قطعة منها. بيسارها امسكت رأسه الصغير بحجم شمامة، وأقحمت يمينها المكسوة برغوة الصابون داخل فمه، حتى لمست الزنبرك، وقبصته بأطراف أصابعها وأخرجته بسرعة، لكن كفها الضخم وطرف الزنبرك الحاد حرثا جوفه من أسفل اللوزتين حتى الشفتين، وخرجا مصطبغين بدمه، ولم تتيقن بأنه لم يمت حتى رأت فقاعات الصابون المحمرة المتطايرة من فمه. حملته إلى حضنها، وانهمرت دموعها.

- انكتب له عمر جديد.

يكره هذه العبارة لكثرة ما سمعها منها.

بعد أيام زارتها الخادمة التي دسّت له قطعة المعدن، واعترفت بأن (أم لسان الزفِر) دفعت لها ربع دينار – ما أبخس قيمة حياته! وأعطتها أجزاء الساعة المكسورة، وتوسلت لها لتسامحها. ربما بدافع الخشية من تكرارها المحاولة غفرت لها، ولأنها تجسيد حي للمسكنة والذلة والجبن، أما (الأثرم) فلم يغفر لهم.

في هذا اليوم، وبعد سبعين عاماً على محاولة قتله بالزنبرك، وقد اعتلت صحته وضعف بصره واستوطنت نفسه الهموم ،ومن قبله أمراض وتشرد وظلم، تمنى لو لم تفعل. يردد مع نفسه: يا ليتها ذعِرت، وانشل عقلها، فقامت تطرق الأبواب المؤصدة طلباً للنجدة، فلم يستجب لها أحد. أو لم تمد يدها في بلعومه، أو دسّتها ولم تخرج زنبرك الساعة. دقيقتان لا أكثر كانت تفصله عن الراحة الأبدية. ألم يكن ذلك أرحم من الحياة وسط غابة الأهل ومستنقع وطن (الدهن والدبس)؟

(اليقطينة المخرومة) غائب عن المشهد كالعادة، ولا أظنه اهتز لتجرع آخر العنقود بالصّبر، ولا زنبرك الساعة دق ناقوس الحمية في رأسه. لو كان (الأثرم) حيواناً صغيراً

وهاجمه مفترس لانبرى القطيع للدفاع عنه، لكن عائلته قطيع بشري، لا مكان للعواطف الرخوة بينهم، وأخوك حزام ظهرك كما تتمنى (الملطومة)، ولا حاجة لك لأخ إذا كان ظهرك قوياً، ولا رحمة للأخ الذي يقف عقبة بينك وبين مطامعك. يُعرف معدن الإخوان ليس فقط عند الشدائد بل أيضاً عند تقاسم الإرث. بعد وفاة أبيه استحوذ (المكوي) على كل الأراضي، يقبض عوائدها كاملة بانتظام ويوزع على الورثة رواتباً شهرية، واستمر على ذلك ثلاثين عاماً، حتى اضطره القانون لتوزيعها، ومثل كل الإخوة الجشعين احتفظ لنفسه بأكبر حصة، واختار أخصب الأراضي والبساتين، وكل أخوته حصلوا على أراض ما عدا إثنين، لم ينساهما سهواً (المكوي) الذي يضرب المثل باستقامة طية بنطاله المكوي، بل تجاهلهما وأمر ذراعه الأيمن (اليقطينة المخرومة):

- اطردهما!

أراد (المكوي) حرمان أصغر أخوته من غير الأشقاء، أبناء زوجة أبيه الأخيرة من ميراث أبيهم. أحياناً القتل أهون من الطرد من العائلة في أعراف القبليين. قابيل طُرد هو الاخر من قومه بعد قتله أخيه، ووصف عقابه بأنه لا يطاق. لأول مرة في حياته خالف (اليقطينة المخرومة) أوامر أخيه (المكوي). اقتطع من أرضه مساحة صغيرة وأعطاها لأخويه، ولم تكن من دون مقابل، إذ اتخذ (اليقطينة المخرومة) من الأخ الأكبر (الأملس) مرافقاً وحاجباً، أما الأصغر فلم يفقد كامل حصته من الميراث فقط بل عقله أيضاً.

- انكتب له عمر جديد.

انكتب عمر جديد لأصغر الأخوة لأنه فقد عقله. أخوته طردوا عقله، وبقي جسداً من دون عقل. زوجوه وأنجب أولاداً. كان هو الأصغر والأحبّ إلى أبيه من بقية أبناءه، فانتقم منه الأخوة العصبة بعد وفاة الأب، لأن أباهم على ضلال مبين، وفعلها أخوة يوسف من قبل وهم أبناء نبي، و(الأثرم) مثله أصغر أبناء (اليقطينة المخرومة)، وهو أبعد ما يكون عن النبوة، لكن (أم لسان الزفِر) وجراءها تعجلوا قتله قبل ان يتبينوا إن كان عاقلاً أو مجنوناً.

أخرجت (الملطومة) زنبرك الساعة، لكنه ترك وراءه ذكرى لا تنسى، وكل غصة تعيد تشكيل الزنبرك داخل بلعوم (الأثرم)، فيختنق، وحتى اليوم يتردد الطعام قبل ان ينزل في جوفه، حتى شكّ بوجود تشويه داخله. أوصله القلق إلى عيادة طبيب مختص بعد الحادثة بثلاثين عاماً، لكن خاف مما ستكشفه صورة شعاعية.

يقولون بأن من ينازع الموت يشاهد شريط حياته في دقائق أو ثوان، ولا يتذكّر (الأثرم) رؤية مثل هذا الشريط، وفي يوم تلقيمه زنبرك الساعة لم يكن قد عاش سوى بضعة شهور يبكي ويرضع حليب بقرة (الملطومة) وينام ويتغوط.

في منزل الشيخ (اليقطينة المخرومة) القروي ولد (الأثرم) على الفطرة وبخشم أبيه الكبير وأسنان خائسة، وتولى قطيع عائلته تدريبه: لقنتنه (الملطومة) الرعب والقلق والحذر والشك، وجسدت له (أم لسان الزِفِر) الحقد بأبشع صوره، وابنتها (المهسترة) الوقاحة و(القهرمانة) الخبث، حتى كره النساء، لكنه اختار سبيله الخاص في الحياة، اضطر للوقاحة أحياناً والخبث نادراً بعد استهلاك كل البدائل المهذبة، أما الخوف فقد استوطن داخل نفسه، ثم تمطى وتمدد حتى ملأها، وكان ولا يزال تؤامه السيامي، ولن يقدر أمهر النُّطّس النفسيين على فصله عنه. ولا ينسى الكآبة التي سرت عدواها من أمه. بدأ اكتئابها بعد مقتل ابنها الأوسط، وغالباً ما يصاب أبناء المكتئبة بداء أمهم، كما يؤكد علماء النفس، ليس بالوراثة شرطاً لكن ربما بفعل المساكنة، كما تحدث كتب الطب عن نتائج وخيمة أخرى لاكتئاب الحامل على جنينها: داء السكري وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب وانخفاض الهرمون الذكري وضمور الأعضاء الجنسية للذكور.

تعلم أن البكاء لا يرقق القلب القاسي، ولو سلطت محيطات من الدموع على قلب (أم لسان الزِفِر) لما حتَّ منه ذرة متحجرة واحدة. كانت تتسلى بدموع (الملطومة) كما يتسلى سائح برؤية شلالات ماء في أعالي الجبال. سيول دموعها وقواميس عتابها دفاعات فاشلة أمام مكائد (أم لسان الزِفِر) وسباب ابنتها (المهسترة)، و(اليقطينة المخرومة) حائط مائل لا يمكن الاستناد عليه، وابنها (أبو الجعل) تابع لهم، لا يهمه سوى رضاهم والسماح له

باللعب معهم والسباحة في المياه المالحة للبزل، لذلك عين (الأثرم) نفسه من قبل التطبع على الذل والمسكنة حارساً لغرفة (الملطومة) وسكانها.

تدعي (الملطومة) بأنه كلمها من بطنها، ونطق بكلمة واحدة فقط: "يمه". لم يصدقها (أبو الجعل)، ولو كان هو المتكلم لما سخر منها. أنطقه الحسد:

- قرقرت بطنك.

تبجح (أبو الجعل) بعد سنين بمعجزة خاصة بها، فهل توجد رابطة بين المعجزتين الافتراضيتين؟ لا يكترث (الأثرم) ان كان تكلم في بطنها أو حتى في المهد، ولكن المؤكد هو أن أولى الكلمات التي تعلمها خارج بطنها الشتائم.

تروي (الملطومة):

- ما أن يسمع سباب (المهسترة) حتى يقف عند باب غرفتنا. لم تمض سوى أشهر على تعلمه الكلام – باستثناء الكلمة التي نطقها من بطنها. هي تقف أمام غرفة أمها (أم لسان الزفِر)، وكانت في حوالي العاشرة من عمرها، ويقف هو مقابلها، تفصل بينهما باحة الدار، هي تسب وهو يرد عليها بالشتائم، هي تلعنني وهو يلعنها. يقول لها: ملعون أبوك يا شليلة، لم يقو لسانه بعد على النطق باسمها الصحيح، وأبوها هو أبوه أيضاً، لكنه أصغر من ادراك ذلك، وإن لم يسب أمها وأباها فمن يسب؟

أخيراً جاء من ينصر (الملطومة)، وكان المفترض أن يكون (اليقطينة المخرومة) لكنه خذلها، ولم تتوقع ذلك من ابنها (أبي الجعل) لأنه لا يزال طفلاً ولا تراه إلا عندما يجوع أو ينعس أو يشتكي من اعتداء، وهكذا أصبح (الأثرم) فارسها الحامي في الثانية من عمره، بلا سيف مصقول ودرع فضي براق، وسلاحه الوحيد لسان سليط من كثر ما تسلطوا عليه وعلى أمه البكاءة.

استمرت أشواط السباب بينه وبين (المهسترة). تبدأ هي، ويتصدى لها، وتنتهي حفلة السباب بالتعادل. هي تسب أمه وهو يسب أباها وأمها، ثم تغيرت قواعد مبارزة السباب والشتم بينهما.

- مات خالك يا شليلة.

انتقل (الأثرم) من الشتم إلى الدعاء. لم تكترث (أم لسان الزِفِر) لشتمه زوجها لكنها لم تتحمل دعاءه على أخيها بالهلاك، ولا شيء يخيف القرويات أكثر من الدعاء سوى السّحر، وكلما ارتفع صوت احتجاجاتها كرر دعاءه على أخيها بالهلاك.

استنجدت (أم لسان الزِفِر) بوالدته:

- قولي لابنك ليتوقف عن الدعاء على أخي.

تقول (الملطومة):

- توسلت إليه ليتوقف عن شتمهن والدعاء عليهن لكنه تجاهلني.

ولم يتوقف حتى زجرت (أم لسان الزِفِر) ابنتها (المهسترة) فلم تسّب (الملطومة) بعد ذلك اليوم، فكانت هدنة لا صلحاً.

صورة (الملطومة) معلقة على جدران ذاكرة (الأثرم)، شبح القلق مخيم فوق ملامحها. كان يظنها قديسة. قادها سوء حظها إلى بيت (اليقطينة المخرومة)، سكانه وحوش بشرية، قتلوا ابنها وحاولوا قتله، ولكن بعد حين انقلب على الضحية، لأنها مستسلمة. كان ضعفها دعوة مفتوحة للعدوان، مثل دولة من دون قوة لحماية حدودها. يقال بأن في خمّ الدجاج هيكل للنقر، الأقوى يَنقر ولا يُنقر. ينقر الديك سيد الخمّ جميع سكانه من الدجاج، ولا ينافسه أحد، وكل الدجاجات منقورات، والأقوى منهن تنقر الأضعف. في قعر هيكل النقر تقبع دجاجة منتوفة الريش لأن الجميع ينقرها، ولو كان بيت (اليقطينة المزروفة) خمّ دجاج لاختارت (الملطومة) مكانها في الدرك الأسفل من الخمّ، وفرضت على ولديها الرضى بذلك.

كانت لعنات (الأثرم) المنصبة على أقرباء (أم لسان الزِفِر) نقرات مرتدة، أوجعتها وأوقفت شتائم (المهسترة)، ولم تعد ترمي أقراص السرجين من روث البقر الطازج على باب غرفتهم. كانت تستلمه كل يوم من زوجة فلاح من أقارب أمها في طبق من القش لتفرغه أمام باب الغرفة، وفي كل مرة تضطر (الملطومة) لحمل عدة أباريق من الماء لغسل السرجين، من دون كلمة احتجاج واحدة، ولا يصدق (الأثرم) ادعاءها بأنها كانت تعاتبهم أحياناً: لماذا يا أختي؟ أو لماذا يا ابنتي؟ على الأغلب رددتها مع نفسها، وبهمس لا يكاد يسمع، فهي تخاف حتى من الشكوى منهم.

كرهت مبارزة (الأثرم) مع (المهسترة) بالشتائم، لأنها لا تنسجم مع مسكنتها. أرادتها مسكنة تامة، لا يعكرها أي رد فعل أو احتجاج. يشتمون فلا رد. يتصدقون بأرغفة خبز معجنة أو محترقة فتشكرهم. يرمون السرجين على باب غرفتها فتغسله. وتضافرت مسكنتها المعدية وطغيان (اليقطينة المخرومة) وخيس الأسنان لتطبيع (الأثرم) على الجبن والخوف.

أين كنت أيها (اليقطينة المخرومة)؟

لعله كان في زيارة لأخيه (المكوي) أو ابنه البكر (المخبول)، خريج الجامعة الأمريكية، اكتسب هذه الصفة في العاصمة لا في القرية. أول من سّماه زملاؤه في وزارة الاقتصاد، دخل عليه يوماً تاجر بيده حقيبة، ظن بأنه يريد رشوته. سدَّ الباب، وانهال عليه ضرباً بحذائه. انتظر (المخبول) ثناء رؤساءه على فعلته الهوجاء، ولعله طمع بوسام رفيع ولو من الدرجة الثالثة مثل عمه، لكنهم سخروا منه، وبعد سنين ذكره أمام (الأثرم) والد صديقه:

- هذا اخوك الذي يضرب بالحذاء!

بدلاً من فصله من الوظيفة كما يستحق لاعتدائه على مواطن أحالوه على التقاعد، ربما بوساطة من عمه (المكوي)، فخرج بنفس مليئة بالحقد، وأصبح الضرب بالحذاء أو النعال عادة له، مارسها مع زوجته، أخت زوجة (المكوي)، عم وعديل في نفس الوقت. رعاه العم في طفولته، وتكفل بدراسته في بيروت في مدارس المبشرين، ولم يثنه عن ذلك الصليب الكبير الذي وضعوه في عنق ابن أخيه في إحدى تلك المدارس، ثم أكمل دراسته في الجامعة الأمريكية، وانضم لجماعة طلابية، تحولت فيما بعد إلى حركة القوميين العرب. بعد التخرج توسط عمه لدى أهل زوجته، فرضوا بتزويجه، لأنهم ظنوه نسخة مصغرة من (المكوي)، ولم يكتشفوا خطأهم الفادح إلا بعد حين. بعد مجيء الأولاد اصبح الطلاق مستبعداً، وكبر الأولاد، لكن سخط أبيهم على الدنيا لم يهدأ. زوّجَ ابنته البكر من زميل لها من المذهب الآخر، وارتضى لحفيده منها اسماً مكروها من أفراد طائفته، ليُغيض أباه على الأغلب. لم يتحمل ابنه الأصغر منظر رأس أمه الذي لثمه مرات لا تحصى يصفع بنعال أبيه، فمن كانت الجنة تحت أقدامها لا تدنّس بالأحذية والنعال، وعندما يكون الأب شريراً والأم ضحيته المظلومة لا بد أن يتحول الابن إلى فارس منقذ. بعد صبر غير طويل استلّ الابن نعاله هو الآخر وأهوى به على رأس أبيه، وعاش الأربعة – الأب

(المخبول) والزوجة وولدان – يتخاطبون بالصراخ والشتائم وأحياناً بالأحذية والنعال، مثل المهابيل الثلاثة في أفلام هوليوود، سوى أن أقاربه الأربعة دراميون. أخيراً نفذ صبر الابن فهاجر إلى أقصى شمال أوروبا من دون رجعة أو حتى عنوان للمراسلة.

في إحدى زيارات (اليقطينة المخرومة) لولده (المخبول) اصطحب والدته (القهرمانة) و(الملطومة) ووليدها (أبا الجعل). (الملطومة) مجبرة لا مختارة، ومثل الكثير من أهل الجنوب تتشائم من العاصمة. تنتشر بينهم نبوءة بأنها ستفنى عندما يكتمل تشييد سابع جسر على نهرها، لذلك يخشون المكوث طويلاً فيها.

شيَّد (اليقطينة المخرومة) لابنه (المخبول) بيتاً كبيراً، استملكته الحكومة لغرض انشاء جسر في المنطقة، ودفعوا له تعويضاً ضخماً، اشترى به أرضاً وبنى عليها بيتين، سكن في أحدهما وأجر الآخر. في الحديقة تعثر (أبو الجعل) بأنبوب السقي المطاطي، فصاحت (القهرمانة) أم (المخبول): اسم الله عليك! لم تحرك لسانها طيبة قلبها، هي مجرد عبارة روتينية يرددونها بحكم العادة كلما تعثر أحد، وحتى (الأثرم) عندما يشاهد طفلاً صغيراً من أصل صيني يكبو في مجمع تسوق في مدينة تورنتو الكندية، فيضحك من سذاجته. سمعها ابنها (المخبول) فصرخ بها: ملعون أبوك وأبوه، هل تريدين أن ينجب آخرين ليشاركونا في أملاكه؟ سمعته (الملطومة) وسكتت.

يزور (المخبول) والده في الأعياد، ولا يمكث سوى نصف ساعة أو أقل، يشرب استكان شاي ويملأ الصمت بكلمة واحدة تعود على تكرارها:

- ها؟

عادة تعلمها من عمه، هو الآخر كان يردد نفس الكلمة بسبب صمم مبكر، وربما ظنّ (المخبول) بأنها من كلام كبار القوم.

إن لم يكن (اليقطينة المخرومة) خاتلاً في مضيفه أو في زيارة غير مرحب بها لابنه (المخبول) في العاصمة فربما كان يصطاف، تعود على ذلك بسبب (المكوي). أصيب شقيقه الأكبر بالسّلّ، فسافر إلى لبنان لاجتثاث رئته الفاسدة.

تبدأ رحلة (اليقطينة المخرومة) من أمام مرآب شركة حافلات مشهورة. كانت الشركة في أوج ازدهارها. تحضر حاشية معه لتوديعه وللتفرج على الحافلات الأعجوبة، وكل وجبات الرحلة ساخنة والمشروبات مبردة.

كان (اليقطينة المخرومة) قروياً، تعلم الكتابة بقلم من فحم على لوح تنك، وتعودت أصابعه على ذلك. يمسك الورقة أمامه وكأنها لوح، ولا تستريح أصابعه على قلم الباندان المفضض، فتخرج حروف كتاباته مضطربة، ولكنه لم يكن بليداً مثل أخيه غير الشقيق الذي سافر بحافلة النيرن، وأراد تذوق مشروباتهم المبردة فقال له النادل الحضري الخبيث بأن لديهم بيرة مثلجة فوافق بشرط:

- اغسل فم القنينة جيداً من النجاسة فلربما شرب منها نصراني من قبلي!

لعل (اليقطينة المزروفة) كان منشغلاً بالقضاء في مسائل عويصة، فهو عرافة القبيلة. يلجؤون إليه للتحكيم في نزاعاتهم، ولا يكاد يخلو يوم في حياتهم من خلاف حول بقرة معتدية على حقل مجاور، أو سطو أحدهم على حصة غيره من السقي. أخبره أحد القبليين بأن (اليقطينة المزروفة) استدعاه يوماً، وطلب منه الذهاب مع قبليّ آخر لدفن زوجته. تبين بأن الزوج عاد ليجد زوجته في أحضان رجل آخر. أفلت الرجل ولم يتعرف على هويته، فذبح الزوج المخدوع زوجته. وصف القبليّ المكلف من (اليقطينة المزروفة) المشهد في كوخ الزوج:

- كان رأسها مفصولاً عن جسدها وشعرها جميلاً كما وصفته نساء (أم الجواميس) ودفناها، الزوج وأنا، في أرض بعيدة وأخفينا قبرها.

كلما استعاد (الأثرم) الحدث تبين له شطط حكم (اليقطينة المزروفة). فهو لم يتأكد بأن الرجل لم يقتل زوجته أثناء شجار أو للاستيلاء على مصاغها، ثم ادعى بأنها زنت ليتخلص من تبعات جريمته. فمن المستغرب افلات الرجل الذي وجده مع زوجته في الفراش، ومن زار أكواخ القبليين يدرك صعوبة ذلك، فقد لا يتضمن الكوخ أكثر من غرفة واحدة لها مدخل ضيق، وإن وجدت نافذة فستكون كوة في أعلى جدار، لا تسع لخروج

آدمي. وقبل تصديق الرجل كان لزاماً سؤال جيرانه عن العائلة وأحوالها، ولا حكم حتى يقسم خمس مرات بأن عليه لعنة الله لو كان من الكاذبين وفي مرقد الإمام العباس، الذي يخاف القبليون من انتقامه لو أقسموا زوراً في مقامه. وماذا سيقول الرجل لأهل زوجته؟ زنت فقتلتها، أم اختفت ولعلها ذهبت إلى شريعة النهر لتغسل ملابسهما أو تورد الماء فزلقت قدمها وغرقت؟

تفاخر (اليقطينة المخرومة) أمام (الأثرم) بشجاعته، فروى له بأنه وأثناء صعوده درج فندق في العاصمة انتشل لص قلم باركر ثمين مشبوك في جيب سترته الصوفية، فأمسك به وصفعه بشدة واسترجع قلمه، ولكن (الأثرم) يهزأ به متسائلاً مع نفسه:

- أين كانت هذه الشجاعة عندما فطمته (أم لسان الزفِر) قبل الأوان ثم حاولت قتله بزنبرك الساعة؟ لم يهرع ليكون بجانبه، يواسي (الملطومة)، وينهال بعصاه على رأس (أم لسان الزفِر)، أو يطلقها. لو كان فلاحاً لما سكت عليها، ولجرم أخفّ من ذلك بكثير يقتلون المرأة في قريتهم، ولا يظن أحد بأنه غفر لها، فالمغفرة تأتي بعد العتاب والحساب، بل أتصوره جالساً على فراشه يستمع لرواية (الملطومة) عن محاولة قتله، ثم تنفرج شفتاه عن ابتسامة صفراء مصطنعة.

في ذاكرة (الأثرم) صورة منطبعة له، يختفي خلفها طفل وجُل، يخشى افتضاح جبنه. لعله تظاهر أمامها بعدم الاكتراث، وكأن حياة اصغر أبناءه لا قيمة لها.

من قبل ولادة (الأثرم) مات أربعة من أبناء (اليقطينة المخرومة)، ثلاثة منهم أولاد (القهرمانة) بالمرض، ولعل موتهم أمات قلبها، والرابع شقيقه المقتول، وكلُّ أبناء (الملطومة) زائدون عن الحاجة فهي عجوز لا تبزر كما وصفها لشقيقه (المكوي).

من أم الجواميس إلى أم السرجين

جاء الفرج، أو هكذا ظنّت (الملطومة). تركوا (القهرمانة) و(أم لسان الزفِر) و(المهسترة) و(بمقدساتي) و(أبا العرق) في (أم الجواميس) وانتقلوا إلى بيت صغير في (أم السرجين). اسم البلدة على مسمى، فبين يوم وآخر يمر قطيع من البقر في شوارعها الترابية الثلاثة نحو المسلخ فيملؤها ببرازه، والسرجين براز البقر على شكل أقراص، يلصقونه على واجهات أكواخهم الطينية كالزينة حتى يجفّ، ويستعملونه وقوداً، وأطيب طعامهم خبز الأرز المشوي على أقراص السرجين، تمتزج في طعمه نكهة الأرز مع دخان براز البقر.

اشترى (اليقطينة المخرومة) البيت من يهودي هاجر إلى فلسطين السليبة، ولم تقتصر الفوائد من مصائب الفلسطينيين على ذلك البيت، إذ تحركت شهية (اليقطينة المخرومة) للأملاك فاشترى من اليهودي أيضاً بيتاً ثانياً ومطحنة ومجرشة ومستودعاً كبيراً ملحق بهما وعدة بساتين وأرضاً واسعة اختارها لتكون موقع قصر له، فهو لا يطيق أن يسبقه شقيقه (المكوي) في مضمار سوى السياسة.

تلك كانت عائلة واحدة من أقلية يهودية، امتلكوا الأراضي والبساتين والمباني والمعامل وجيوب شيوخ القبائل المدينين لهم بالربّا. كاد ابن عم (اليقطينة المزروفة) يفقد أرضه المرهونة عند يهودي لولا مسارعة (اليقطينة المزروفة) لفكّ الرهن. يشهد أقارب (الأثرم) من شاربي الخمور بأن أفضل أنواع العرق المسكر في (أم السرجين) قطّرها يهود، وللنكهة يضيفون للخليط لحوم الدجاج! جارتهم خدمت في بيت يهودية، وقبل مغادرتها حذرت الخادمة: عندما ترين طائراتنا في سماء بلدتكم احتمي من حممها، فنحن قادمون، ووفت بوعدها في 2003.

لم يكن انتقالهم إلى (أم السرجين) بهورة ثري مستجد، بل كان أول هروب جماعي، واعتراف ضمني من (اليقطينة المخرومة) بالهزيمة، فبدلاً من تطليق (أم لسان الزفِر) كما نصحه (المكوي) اختار الهرب منها ومن أولادها، وهم لم يكونوا أغبياء بحيث لم يدركوا

مغزى هذا الانتقال، وطاردتهم لعنات (أم لسان الزِفِر) طيلة رحلتهم القصيرة في زورق حتى شريعة النهر القريبة من بيتهم الجديد.

كان حلم (الملطومة) أن يكون لها بيتاً مستقلاً، بعيداً عن ضرائرها الثلاث، تأمن فيه على حياتها وحياة ولديها. في حينها لم يبلغ (الأثرم) الثالثة من عمره، وفيها أكمل (أبو الجعل) عامه السادس، وأدخلوه مدرسة (أم السرجين) الابتدائية. لم تدر (الملطومة) يومها بأن حياتها بعد ذلك لن تكون سوى استمرار لعذابها في (أم الجواميس)، وان كل ذلك مكتوب في لوح قدرها منذ زواجها من (اليقطينة المخرومة)، وستظلّ (أم الجواميس) وصور كل المرعبين فيها تطاردها أينما حلت وربما حتى داخل لحدها.

بيتهم في الصوب الكبير من المدينة. يفصل بينه وبين النهر شارع ترابي ضيق، بجانبه الأيسر بيت آخر اشتراه (اليقطينة المخرومة) من يهودي أيضاً. توزعت على الشارع بيوت أخوته، يتوسطهم قصر (المكوي). وفي نهايته الغربية سوق مسقوف بالصفيح والسراي وجسر من مخلفات عهد الاحتلال البريطاني، ينقطع كلما أفلت مرساه أحد الزوارق الحديدية التي تحمله.

عاش (الأثرم) معظم حياته صامتاً، والصمت في عرف والدته قمة الأدب، لا يتكلم إلا إذا اضطر لذلك، ولم يكتشف خطأ تربيتها إلا في الكبر، وبعد ضياع أبسط حقوقه، فالساكتون آخر من يلتفت إليهم، والريف في بلاد (الدهن والدبس) مثله صامت، لذلك حقوقه مهدورة حتى اليوم. لم يعكّر سكون بيتهم الريفي سوى شتائم (أم لسان الزِفِر)، لذلك أول ما رسخ في ذاكرته عن البلدة الضجيج، خليط من أصوات حيوانات وبشر، وأخرى جديدة لم يسمعها من قبل، دقات قبضة معدنية على الباب، وطحن هاتف بدائي، وجلجلة الماء المتدفق من الحنفية. يبدأ صخب البلدة في الصباح الباكر. يفيق على نهيق حمير ورغاء غنم ونباح كلاب وصياح رعاة وصراخ مكاريين وطرقعة عصي على أجساد حيوانات وأحاديث مارة وطرقات صانع أسرة وكراسي جريد النخيل. يجلب الخمسيني عدته صباح

كل يوم إلى مكانه المعتاد على الشاطئ، يستراح في الظهيرة عندما يشتدّ الحر ويعود للعمل حتى المساء، ولا يمر أحد من دون أن يسلم عليه ويسأله عن أحواله.

ذكرياته عن البيت الجديد في البلدة كئيبة. بيت اليهودي من طابقين. في الطابق الأرضي غرفتان ومطبخ ومن خلفه أرض خالية متروكة، تعشش فيها عقارب صحراوية صفراء سّامة. سقف الطابق العلوي مصفوفة من جذوع الشجر السميكة، ما بينها فجوات مسودة، أول ما تبادر إلى ذهنه بأن سوادها بفعل دخان. في اليوم الأول وقف تحت السقف الخشبي ورأى البقع السوداء تتحرك، ولم يكن خداع بصر، ثم أطل رأس الخفاش من تحت عباءته السوداء فصرخ مرعوباً، وهرب إلى جنب (الملطومة) في الطابق الأسفل، ورفض الصعود مرة أخرى إلى غرفة الخفافيش، وكلما تذكّر أعشاشها في سقف البيت وضع يديه على رأسه. اعتقدت (الملطومة) وبقية أهل القرية بأن الخفاش – يسمونه سحير الليل – يهاجم رأس الإنسان، فإذا تعلق بشعرك لا خلاص منه إلا بوضع مرآة من الفضة أمامه، فإذا رأى منظره القبيح ذعر وحلّق هارباً، وبما أن أحداً في القرية لا يمتلك مرآة فضية أو لديه مالاً ليشتري به واحدة أرعبتهم الخفافيش.

طيور الزرازير المهاجرة أشجع من رجال البلدة، لا تخاف الخفافيش. تعشعش بجانبها. تبيض وتفرخ، ولا تأبه للصبية الذين يطاردونها بمقاليعهم في البساتين، وتواظب على تمارينها الصباحية أكثر مما يثابر سكان البلدة على صلواتهم. تخرج من أعشاشها المؤقتة بجوار الخفافيش، وتطير نحو البساتين على الضفة الأخرى من النهر، ثم تعود أدراجها، ولا تخلوا مناقيرها من أعواد ترمّم به أعشاشها أو حشرات لفراخها.

يتذكّر (الأثرم) رعب (الملطومة) من الكهرباء. أول مرة رأت فيها الكهرباء كان يوم عرس (بمقدساتي) و(العرقجي). مدّ مشغل مضخة السقي سلكاً منها إلى البيت الريفي أنار عدة مصابيح، فتعالت الصلوات على محمد وآل محمد. في تلك الليلة لم يشعلوا فوانيسهم، ولكن قلوب الضرائر بقيت مظلمة بسبب (الملطومة) وحملها بـ(أبي الجعل). بعد وصف (الملطومة) لوفاة رجل بصعقة كهرباء ظل المشهد حياً في ذاكرة (الأثرم) لوقت طويل. اعتقد

الريفيون بأن الطريقة الوحيدة لإنقاذ المصعوق من الموت هي ضربه بعمود خشبي، مثلما يفعلون بالمجانين، لأن رضرضة العظام أفضّل من الجنون أو الموت. بعد استماعه لتحذيرات (الملطومة) المتكررة تجنب أزرار الكهرباء، ولم يلمس الهاتف البدائي، فهو كهربائي أيضاً، كما حذرته (الملطومة).

(أبو الجعل) وكف الملطومة

ما لا يتذكّره عن حياتهم في بيت اليهودي روته (الملطومة). لحزنها مظاهر عديدة، ترتسم على وجهها وتعبر عنه نبرات صوتها. تريد مشاركتها الحزن، وهكذا استدرَّت محبة (الأثرم)، وأحد مهيجي حزنها (أبو الجعل). ما أن استقروا في البيت الصغير حتى انطلق (أبو الجعل) إلى الشارع، فهو لم يطق البقاء بجانبهم. يحوص حتى خروج (اليقطينة المخرومة) ثم يغادر البيت، وكل توسلات (الملطومة) لم تثنيه. خرج للعب مع أولاد الشوارع، وخافت عليه من الغرق في النهر أو رفسة حمار مكاري، لكنها لم تتوقع أن يبدأ انحرافه في عمر مبكر، ولم يكن قد تجاوز السادسة من عمره بكثير.

فاجأته وهو يسرق نقودها. كانت تحتفظ بالقليل من الدراهم في رّفّ بخزانتها، وفرصها في جمع النقود قليلة. تولى زوجها شراء حاجيات البيت، أو كلّف بها أحد خدمه. لم تتعلم بيع بعض المؤون كما تفعل (القهرمانة)، وليس لديها أولاد كبار مثل (أم لسان الزِفِر) ليسرقوا من غلة الأرض الزراعية، لكنها كانت بارعة في التذلل والتسول، وعلمت (الأثرم) أن يكون مثلها. طقوس التسول يومية، تبدأ في الصباح الباكر، يقبل يد (اليقطينة المخرومة) ويضعها على جبهته، ولم يسحبها قط. كان يتلذذ بإذلالهم، مثل شخص سادي. "هو ربك الثاني"، هكذا وصفته له، ورددتها باقتناع يفوق إيمان الوثنيين بمعبوداتهم المنحوتة، حتى كره الطلب منه، لكنه لم يتوقف عن تقبيل يده. كان يعطي القليل، لذلك لم يكن في خزانة (الملطومة) سوى دراهم معدودات.

وقف (أبو الجعل) على كرسي ليصل إلى رّفِّ الخزانة، وقبل أن يخرج من باب الغرفة أمسكت به (الملطومة)، وحاولت استرجاع دراهمها من يده. لم يبك ويتوسل إليها لتصفح عنه. بيده الأخرى أخرج شفرة حلاقة من جيبه وشرط به عضدها.

رفعت (الملطومة) يدها لتري (الأثرم) آثار الموسى، خط سميك بعرض باطن يدها، لا هو سطحي ولا غائر. لم تغطه طبقات اللحم والشحم التي اكتنزتها منذ ذلك اليوم، ومن يرى أثر الجرح المندمل يظن بأنها حاولت الانتحار. من حسن حظها أن يد ابنها الصغير لم تكن قوية، ولو ضغط بقوة أكثر لربما أصاب وريدها ولشخل دمها وماتت قبل اسعافها، ولا يظن بأن هنالك إسعاف في (أم السرجين) في ذلك الزمن، وحتى اليوم ما زالت بلدة قميئة، تكاثر سكانها وتردّت أحوالها.

كلما روت فعلة (أبي الجعل) ترنوا إلى (الأثرم) بنظرة استعطاف:

- كاد أن يبتر يدي!

كان ابنها البكر. علقت عليه كل آمالها. سيكبر ويعوضها عن العذاب قبل وبعد زواجها، لكنه في (أم الجواميس) فضّل اللعب مع أبناء الفلاحين وتركها لعذابها، وفي (أم السرجين) انضم لعصابة شوارع وحاول اختلاس نقودها القليلة وشق يدها بالموسى.

اغاني (الملطومة) طاردة للنعاس، وقبيحة أحياناً:

يا بعيرة نامي نامي

تره ... حرامي

طلع سرمه ها طوله

شكيته بالعاقولة

لا يأتي النوم سريعاً لصغير الأم، فتروي له قصة الحرامي. السرم البارز هو طرف المعي المستقيم، يخرج من الإست بفعل مرض يصيب أطفال الجيران. تلمحه عند تبرزهم في الشوارع، والعاقول نبات صحراوي شائك. لم يسمعها تردد هذه التهويدة أمام (أبي الجعل)، لأنه بشهادتها حرامي، سطا على دراهمها، وشق عضدها بالموسى، وفر بها إلى قرناء السوء في الشارع. يشك (الأثرم) بأن المقصود بالسرم عضواً آخر يستحنّ نساء القرية من ذكره.

تحملت (الملطومة) شقاوة ابنها في صمت، لأنها خافت من سخط (اليقطينة المخرومة) عليه، وأقنعت نفسها بأنها مجرد نزوة طفل غرّر به أولاد الشوارع في البلدة، ومنّت نفسها بأنه سيعود لجانبها، لكي يحتمي بظلها، بعيداً عن أخطار الغرق في النهر والانحراف مع أولاد الشوارع، ثم جاء دور المدرسة لتأخذه بعيداً عنها.

لم تجد كل توسلات (الملطومة) في ثني الأب عن قراره: سيدرس بجانب أولاد الذوات والشيوخ، في مدرسة بالعاصمة، وسيسكن في القسم الداخلي، ولن ترى (الملطومة) ابنها إلا مرتين في العام، أثناء العطلة الصيفية وعطلة (الكرفس). استصعب لسانها النطق بكلمة (الكريسمس) فاستبدلتها بالكرفس. كان في الثامنة من عمره، وخافت أن ينساها، وهو أصلاً كان يكره البقاء بجانبها في (أم الجواميس) واختار صحبة أشقياء الشارع في (أم السرجين)، وكاد أن يبتر يدها ليرضيهم بنقودها.

حرمته المدرسة الداخلية من متعة التسكع في شوارع (أم السرجين)، وأبعدته عن رفقة السوء. زاره (اليقطينة المخرومة) بانتظام. بعد عطلة صيف اصطحبه (اليقطينة المخرومة) إلى المدرسة، وكان (الأثرم) ثالثهما، أو رابعهما مع السائق. توقفت السّيّارة عند باب المدرسة الخارجي الحديدي، وكان الوقت مساءً وبدت المدرسة مهجورة، وربما كان موعد العشاء أو حصة إعداد الواجبات المدرسية. نزلوا من السّيّارة، وفتح السائق الصندوق ليناوله حقيبته الصغيرة. وقف (اليقطينة المخرومة) يراقبه وينتظر اكتمال مراسيم الوداع المعتادة، ففي العادة يهبط (أبو الجعل) علي يد أبيه ليقبلها ويمرغ بها جبهته، لكنه وقف بعيداً، وخاطب أباه بلهجة تحدي مبدياً رغبته في عدم الرجوع إلى المدرسة. غضب (اليقطينة المخرومة) من النوع العنيف، استعمل فيه كل مظاهر الغضب الجسمانية والصوتية. ارتسم الغضب على وجهه، وكشر عن أسنانه الامامية الاصطناعيّة، وصرخ باتجاه (أبي الجعل)، وعلى الرغم من وقوف (الأثرم) الوجل جانباً صدمته الموجة الهوائية التي اثارتها نوبة غضب أبيهما العاتية، حتى خاف من فقدان توازنه، فلم يتبين كلمات التوبيخ القاسية الصادرة عنه، وغالباً ما يتعثر لسانه بغضبه، فتخرج كلماته مشوهة

ومبتورة. عباراته المختارة في مثل هذه المناسبات تشبيه أولاده بالحيوانات: بومة أو حمار، ولأنها غير كافية للتعبير عن سخطه رفع يده وأهوى بها على وجه (أبي الجعل). لم تكن بقوة صفعاته لفلاحيه، ولم تدر فك (أبي الجعل)، لكنها أقنعته بعدم جدوى مخالفة مشيئة (اليقطينة المخرومة). لم يكن تمرداً حقيقياً، فلا بكاء أو رفس أرجل أو سباب أو محاولة الفرار، بل كان استعطافاً ذليلاً، ومجرد دخان متصاعد من بركان شبه خامد، ومن دون ارتجاجات. أرجا تمرده، وستنقضي خمسون عاماً قبل موعد الانفجار.

خزّنت ذاكرة (الأثرم) الطفولية المشهد الحزين: التحدي الباهت، الصفعة المدوية، وانكسار (أبي الجعل). حمل حقيبته الصغيرة، وولج باب المدرسة الحديدي، وسيكون له هو الآخر موعد مع هذه المدرسة، قضى فيها سنة دراسية واحدة، ولولا عذاب السنة التي تلتها لحكم عليها بأنها أسوء سنة في حياته.

مع قدوم الزرازير في السنة الثانية في (أم السرجين) انتقلوا إلى قصر (اليقطينة المخرومة). بناه معماري إيراني، لا يحمل شهادة. كان قصراً يليق بشيخ جديد العهد بالثراء. للضيوف من الرجال غرفتا استقبال، واحدة متواضعة وصغيرة لزوار الشيخ من الفلاحين والثانية رحبة وأفخم للضيوف الكبار من الشيوخ والوجهاء. أثاث القاعة الصغيرة رخيص: أريكتان من الخشب صفت عليها مفارش رقيقة، ومذياع ضخم بعين سّحرية خضراء، يفصل ما بين القاعتين باب خشبي سميك يتحرك على سكة، يُفتح بالسحب حتى يختفي معظمه داخل الجدار. لم يدخل (الأثرم) قاعة كبار الضيوف إلا مرات معدودة، إذعاناً لتحذيرات مشدّدة من (الملطومة). أثاثها فاخر، الأرائك من خشب الأبنوس ومنجدة بقماش مخملي ثمين والسجادة فارسية معتقة، وفي وسط الحائط الرئيسي موقد كبير من الرخام المستورد، رصّت على رّفّه العلوي تحف، من بينها مزهرية جميلة وتمثال نحاسي لنسر يوشك على الطيران. يخمن بأن (اليقطينة المخرومة) رأى مثيلاتها في منزل شقيقه (المكوي). كان قدوته في كل شيء ما عدا الزواج بأربعة. طلّق (المكوي)

زوجاته القرويات بعد زواجه من بنت الحضر، وانتقل إلى العاصمة ليتفرغ للعمل في السياسة والحياة المرفّهة.

يتعجب (الأثرم) من خضوع (اليقطينة المخرومة) لشقيقه الأكبر، حتى حوالي الخمسين من عمره كان (اليقطينة المخرومة) مجرد وكيل زراعي عنده، يزرع الأرض، ويوجه أفراد العائلة والفلاحين، ويعاقب المتمردين، ويجمع غلة الأرض، ويسلمها كاملة إلى شقيقه، ويقبض هو راتبه الشهري، مثل أي حمال في أحد صوامع حبوب العائلة.

زيارات (المكوي) نادرة، لا يتذكّر (الأثرم) رؤيته في بيتهم سوى مرات معدودات، وفي كل مرة ينحني (اليقطينة المخرومة) ليقبل يد شقيقه، فيقلده، يسحب (المكوي) يده قبل أن تصل لها شفاههما. لا يفهم سر تهيب والده من شقيقه. ليس في مظهر الشقيق ما يبرّر ذلك. يحترم القرويون القوة البدنية، لأنها ضرورية للعمل في الحقول، لكن (المكوي) قصير القامة، نحيل، ضامر الوجه، يشبه فلاح يشكو من سوء التغذية وديدان البطن. لولا (اليقطينة المخرومة) لاضطر شقيقه لترك العاصمة والسياسة وصالوناتها والعودة إلى (أم الجواميس). احترام الأخ الكبر تقليد قبلي، لكن قد تدب الخلافات بين الأخوة حول الزعامة أو قسمة الأرض عادة، وتختفي المودة لتحل محلها العداوة، وأسوء عدو بعد العقل الموبوء بالأهواء هو الأخ العدو.

الأخ اللواطي

لا تبخسوا القرويين حصتهم من الحكمة، عمرها آلاف السنين، ليس للحضريين مثيلها. عندما يتحضر القروي يتنكر لحكمة أجداده، أن تكون بدون حكمة خير من أن توصف بقروي معيدي. يبدأ تبرؤ القروي من أصله بتغيير ملبسه وطمس لهجته. رصيد (الملطومة) من الحكمة ضئيل. كاد أن يقتصر على أمثال متداولة وقصص رعب لإخافة (الأثرم) وتدجينه، وكل ما تعرفه من مهارات البقاء وسط أدغال ريفهم المسكنة والتذلل، وكأنها واحدة من ذلك الشعب الذي كتب الله عليه هاتين اللعنتين، ولكن على عكس الملعونين ارتضت بهما، وكانتا عروتها الوثقى، وسعت بكل عقلها المحدود لغرسهما في نفس (الأثرم).

أول أسلحته الشتم، رأته انقلاباً على مسكنتها، فوأدته قبل اكتسابه الشجاعة والجرأة، وحتى اليوم لا يستطيع الخلاص من المسكنة. أوصدت باب غرفتها خوفاً منهم، لكنها خلعت أبواب نفسه فصار بدون حصن منيع.

يرى نفسه طفلاً صغيراً، ما بين الثالثة والرابعة من العمر. يلعب في الحديقة الأمامية للبيت. في العادة لا تتركه (الملطومة) يبتعد عنها، لكنها في ذلك اليوم سهت عنه، ربما لتنزوي في غرفتها وتطلق العنان لدموعها، أو لقضاء بعض الوقت مع والدتها، أو لغسل القدور والصحون. لعلها اطمأنت عليه لكونه صغيراً غير قادر على فتح باب الحديقة والخروج إلى الشارع الترابي حيث مخاطر السحق بحوافر حمار أو الغرق في النهر، ولم يتصور عقلها المحدود بأن المتربّص سيراه يلعب في الحديقة. أعطاه قطعة حلوى وقال له بأنه أخوه.

صدقه عقله الطفولي، على الرغم من أنه ما رأه من قبل. فيه شبه من (اليقطينة المخرومة)، وكنيته (الأخبن). أرسله (القطين المخرومة) ليكمل دراسته في المدينة القريبة، فواظب على ارتياد المبغى العمومي أكثر من دوامه في مدرسته، وبعد الفشل اكتوى

بحرارة غيظ (اليقطينة المخرومة)، وسخريته المريرة من أولاده الفاشلين، فلم يجد له مكاناً بجانب والده الساخط عليه ولا في مزرعته بعد أن سبقه إليها اثنان من أبناء (أم لسان الزفِر).

كان شاباً منفياً من كنف أبيه لسنين. ازدراه أبوه لفشله في الدراسة، وصنّفه مع رعاة الغنم، فامتلأت نفسه حنقاً على أبيه. أراد حصته من حضن أبيه واعترافاً برجولته، فالرجولة الكاملة في عائلتهم حكر على (اليقطينة المخرومة)، فلا يختلفون عن قطعان الحيوان: ذكر مهيمن واحد والبقية أتباع، ولم يتحد أباه كما يفعل ذكور الحيوانات المهملة في القطيع، فهو أجبن من ذلك، واختار أسهل الأهداف. لأنه افترض مثل البقية بأن (الأثرم) مستأثر بحضن أبيه، أراد اغتصاب الحضن اغتصاباً، ولو عرف حقيقة ذلك الحضن البائس لربما احتقره وأهمله.

أراد (الأخبن) الجبان الانتقام من أبيه، واختار أضعف أفراد عائلته، ومن سوء حظ (الأثرم) كان أصغر أبناءه. لو لم يولد أو هلك بزنبرك الساعة لكان مكانه ذلك اليوم (أبو الجعل). كان يترصده، مد يده من فوق الباب وسحب المزلاج ودخل. وجده لاهياً عند المداخل.

أمسك بيد (الأثرم)، وقاده إلى داخل البيت. مرا بغرفة الاستقبال الصغيرة، ثم انحرف به يساراً نحو مرحاض الضيوف الشرقي، وناوله قطعة حلوى، أو ملبسة، وانشغل الطفل بتخليصها من ورقها الملون، فيما ظل الخبيث واقفاً خلفه. لم تعلمه (الملطومة) الفاقدة للحكمة والمناعة ألا يثق بالغرباء، حتى لو ادعوا القرابة، فلا يقبل منهم حلوى أو لعبة، وأن يهرع لجانبها لو كان بعيداً عنها. يرى المشهد كما يراه مصور من خلال عدسة كاميرا أو هكذا رأته الملائكة الموكلة بالرقابة على البشر. أرخى سرواله الداخلي وكشف عن عورته، وعند هذا الحد تتوقف الذاكرة، أو لعل عقله الباطن طمسها. ما لم تسعفه الذاكرة تركه للخيال. يتصوره واقفاً نصف عار ورائه فيما انهمك هو بالحلوى، همّ به ثم تردّد، بالتأكيد لم يرّ آيات ربه، وما أبعد أهله وسكان بلاد (الدهن والدبس) عن آيات الرب،

ثم غضب. غطى عورته. انتهره ونحاه جانباً بقسوة، وهو يرغو ويشتمه و(اليقطينة المخرومة)، وغادر مسرعاً.

لم يأت خلاصه ذلك اليوم على أيدي (الملطومة)، و(اليقطينة المخرومة) كان ثالثهما في المرحاض، لأن (الأخبن) ابنه، كما أبناؤه وبناته من (أم لسان الزفِر) الذين حاولوا قتله من قبل بالفطام المبكر وحطام ساعة المنبه.

اغتاظ (بمقدساتي) لأن (اليقطينة المخرومة) احتدّ عليه يوماً فاشتكاه:

- قال لي باني خرجت من خصيتيه. تصور!

لا حاجة لتصور ذلك المنظر المقرّف، فهي حقيقة بيولوجية، وخصيتاه مسؤولتان أيضاً عن خطاياهم.

لم يمسك (الأخبن) عن فعلته الشنيعة لصحوة ضمير، فقد كان ضميره ميتاً في شبابه وكبر سنه. إلتاثت نفسيته، وتعلعلت صحته بداء نادر، وعقّه أبناؤه، وتلجلج لسانه، فلم يعد كلامه مفهوماً، واستهدفه أقاربه بالسخرية، وهي أحب اللهو لديهم.

لو امتلك القليل من الشجاعة لاحتز عنق (الأثرم)، وتركه يشخط بدمه في المرحاض، لتجده (الملطومة)، فتفقد عقلها، ولكنه خاف من (اليقطينة المخرومة)، ونظراته الشكاكة المتفحصة، مثل مثقاب يخترم عقلك، فيكتشف خبايا نفسك. لم يكن شجاعاً في عرف قبائلنا المنحدرة من العصر الحجري، ذي قلب كالصخر الجلمود مثل ابن عمه، حينما دفع لقاتل مأجور حفنة من الدنانير ليغتال أباه وهو يبول في الخلاء.

بعد أربعين عاماً قيل له بأن أخاه (الأخبن) مخبر للأمن.

لم يستغرب. على الأغلب لم ينتظر دعوتهم، تبرع بأن يكون مخبراً، وأخلص لهم، وعندما أمروه نفذّ ولم يناقش.

النسيان المؤقت فترات استراحة تطول أو تقصر، والذكريات المؤلمة والمقزّزة لا تأتي فرادى، تستدرج الواحدة البقية، فتزدحم على باب الوعي. ضحكة ابن (الأملس) الأوسط أنثوية، ونساء القرية مسترجلات بالمقارنة به، وحديثه عن أخواته مثير للسخرية، فلا

أحد غيره يذكر أسماءهن أمام غرباء. التقاه (الأثرم) مرات معدودة، ذات يوم كان متلهفاً لسرد حكاية عن أحد أقاربه. أراد قريبه اللواط بآخر واتفقا على مبلغ صغير، ولم يكن لدى اللواطي الفاعل المبلغ فهداه عقله المريض إلى حيلة. استنسخ بالورق الشفاف صورة للعملة الورقية من كتاب مدرسي، وانطلت الخدعة على قريبه المفعول به. يتخيله بعد الواقعة مسرعاً ليصرف الورقة النقدية، ربما ليشتري بها قنينة سيفون ولفة عنبة، فرماها البائع المتجول في وجهه، ومن خلال سباب البائع عليه أدرك أن الربع دينار مزيف، وأنه أهدر شرف مؤخرته من دون مقابل.

ترتفع في البستان القريب ضحكات وأصوات استهزاء، وعند باب بيته وقف (الأثرم) مذهولاً. تابع المشهد حتى اختفى. كانا ملتحمين: رجل وكلب. أمسك الرجل بعباءته وعقاله وشماغه باليمنى، وحاول عبثاً إيقاف الكلبة باليسرى، الكلبة تقود وهو يتبع. إحتار في الوصف، كلب بستة أرجل أو مخلوق نصفه إنسان ونصفه الآخر كلب، لا يستحق التشبيه بالسينتور الإغريقي، ذاك مخلوق نبيل نصفه حصان ونصفه بشر. خرجا من البستان المحاذي لقصر (اليقطينة المخرومة)، ثم صعدا من قناة الماء الجافة بصعوبة، خطوتان للأمام فعثرة وخطوة إلى الوراء، ليزداد المشهد كوميدياً في نظر الرائين. لم يُفلت الرجل العاري ملابسه، كان أحرص عليها من شرفه وسمعته. أصدرت الكلبة عواءً غريباً، كأنها تشتكي أو تستنجد. خرج الأطفال وتبعهم الكبار، وقفوا للفرجة والتندر، حتى النساء خرجن من بيوتهن، تظاهرن بالنداء على أطفالهن وزجرهم. تغلب فضولهن على حيائهن. أردن رؤية الرجل ممتطياً كلبة، ويومها شَمِتن بكل الرجال. اِلتقط أحدهم عصا غليظة وأهوى بها على ظهر الكلبة، كان الرجل أحق بها. انفصل الملتحمان، وغطى الرجل وجهه بعباءته وهرول مبتعداً. لكثرتها للقرويين مصطلح خاص بالواقعة، عصّته الكلبة.

يضعون كل اللوم على تمر الزاهد، أرخص أنواع التمور، لأن مفعوله المهيج لا يقاوم كما يدعون. عجباً يأكلون تمر الزاهد فيصبحون أبعد ما يكون عن الزاهدين!

من يسلم على مؤخرته في بلدته محظوظ. قرأ في شبابي عن قبيلة همجية في الأمازون، تتضمن طقوسها الوثنية اغتصاب الرجال للأطفال، ويكررها كل جيل. عندنا يسمّون ضحاياهم الصغار فروخاً، وكل الحيوانات تحمي فروخها، وفروخ غيرها في القطيع، حتى التضحية بالنفس، إلا في بلدتهم وتلك القبيلة الأمازونية. له أقارب يتندرون على أبيهم بقولهم أنه لا يترك صبياً ماراً إلا استوقفه، وسأله عن اسمه، وأدناه وداعبه. يكتفون بالتلميح، لكنه لا يضيع فرضاً.

يحسد (الأثرم) من يصف طفولته بأجمل مراحل حياته، ومبرراته كثيرة. زارتهم قريبة من عائلة (اليقطينة المخرومة) ومعها حاشية وخادمة سوداء وثلة من أطفال، بينهم ابنة للخادمة. قبّل يد القريبة، وخرج إلى الحديقة، وتبعه الصغار. تجمعوا في شرفة خلفية مطلة على الحديقة. كانت مزيجاً من بستان وحديقة. بعد اكتمال البناء جاء (اليقطينة المخرومة) بشاحنات محملة بشتلات الأشجار المثمرة. زرعوا أشجار النارنج العالية بجانب السور، ووزعوا أشجار البرتقال والسفرجل والليمون والرمان والسندي بين النخلات، ولا تكتمل حديقة الشيخ من دون سَّاباط عنب. لكل شيخ حديقة، أو بقشة، تظللها الأشجار الباسقة. بعد اكتشاف أحد أعمامه نقصاً في ثمار شجره، جلد حراسها ثم أمر بطمرهم حتى الصدور في الطين الحار، فلم يقرّ أحدهم بالسرقة، فأقامهم في الشمس حتى تبرزوا وجال على برازهم ينكشه بعصاه، بحثاً عن بذور ثماره العزيزة، فلم يجد لها أثراً.

عمر ابنة السوداء لم يتجاوز الخامسة. تصرفاتها ناشزة. راحت تدور حول نفسها، مثل لعبة تالفة، ثم توقفت، وتمددت على قفاها، وبحركة سريعة رفعت ثوبها حتى وسطها، كاشفة عن لباسها الداخلي، وظلت على ذلك الوضع، وكأنها تنتظر. لم يكن (الأثرم) أكبر منها بأكثر من سنتين، وراعه سلوكها المعيب، وأعظم العيب في الصغر الكشف عن العورة. لعلها فطرة متوارثة منذ لبس ورقة التوت. رجح فيما بعد بأنها ضحية. دجّنها خبيث، حتى تطبعت على ذلك السلوك، ارضاءً له أو خوفاً منه، وكأن

إرث العبودية الموسوم على بشرتها السوداء عذاب ناقص. لا يستبعد أن تكبر لتكون مثل تلك الخادمة، هي الأخرى أطوارها غريبة. تعمل بخدمة بيت قريبهم، الساكن عبر النهر. نساء الشيوخ لا يتزاورن بدون خادمات، مظهر وجاهة لا يقل أهمية عن حجلين ذهبيين يثقلان مشيتهن ومعاضد تخفي العضدين وخواتم تحبس الأصابع المكتنزة بالشحم وحتى ماسكة الشيلة من الذهب. أخرجه زعيقها من زاويته المعتادة إلى شرفة الحديقة. لم يقرصها دبور أو داست على أفعى. كانت تركض وتصرخ، انفلتت يميناً حيث شجرات النارنج ويساراً حتى تنور الطين، ثم ارتدت إلى شجرات السندي العزيزات لدى (اليقطينة المخرومة) والويل لمن يمسّها، وقد شالت ثوبها حتى أعلى فخذيها، من دون اكتراث للأعين المتلصّصة. قالت سيدتها باستهانة: مجرد نوبة تصيبها أحياناً. كلما استرجع المشهد يحيره استبقاؤهم لخادمة مهسترة، إلا إذا كان السبب فيهم، لا شفقة عليها بل ستراً للفضيحة، فالخادمات أهداف سهلة وشبه مشروعة للاغتصاب، مثل الخادمة السوداء التي اغتصبها (العرقجي) فحملت منه سفاحاً وفجأة اختفت.

يردد (الأثرم): لست مختلقا ولا متجنياً على قومي، وبشهادة أستاذ مصري. في أوائل الخمسينات حل أحمد محمد خليفة أستاذاً زائراً على كلية الحقوق في العاصمة، ولا يدري (الأثرم) ما الذي دفعه لإجراء بحثه غير المعتاد، عنوان بحثه الحياة الجنسية للشباب في بلد (الدهن والدبس)*، ضمنه محاضرة ألقيت على طلاب كلية الطب في العاصمة. قبل بيان نتائج البحث قال لهم لا مجال للأخلاق في موضوع البحث، فليس لأحد الحكم على غيره بالتجرد من الأخلاق، لأنها كما ادعى نسبية، فما هو غير أخلاقي اليوم قد يكون مشروعاً في الغد، وضرب لهم مثلاً شذوذ الإغريقيين، وأن مواقعة الحيوان لم تصبح رذيلة إلا في القرن الثالث عشر. لم يرجمه طلاب الطب بموازين الحرارة والسماعات، ولم تبدر من أحد منهم صيحة استهجان، وما غادر بعضهم قاعة المحاضرة مستنكرين. لإجراء بحثه اختار 158 طالباً في كليتي الحقوق والشرطة، ولم يعتذر منهم أحد، لكنه استبعد البعض فبقي

*بغداد: مطبعة التفيض. موقع إمارة وتجارة. http://www.imarawatijara.com/sexuality_iraqi_youth/

منهم مئة. أكثر من نصفهم مارسوا الجنس مع ذكور مثلهم. لم يكترث بسؤالهم عن أعمار أولئك الذكور. ثلثهم لم يفضّل الإناث على الذكور، وحوالي النصف مارسوها مع الحيوانات، وعددوا أصنافها، فشملت الأُتُن والخراف والماعز والبقر والدجاج والكلاب والقطط. أحدهم قال بأن لا فرق بين المرأة والحيوان، وأقل من نصفهم يأتون النساء في أدبارهن. ناكحو القطط والدجاج تخرجوا محامين وقضاة وضباط شرطة ومخابرات وربما وزراء عدل وداخلية، فهل سلم الناس والحيوانات على مؤخراتهم منهم؟ وبعد فهل تجنى (الأثرم) على قومه؟

(أبو الجعل) الحضري

بعد تدشين القصر اشترى (اليقطينة المخرومة) سيّارة أمريكية جديدة، لا يتذكّر (الأثرم) منها سوى الغثيان والدخان ووجع الرأس. في كل مرة أجلسوه في المقعد الأمامي، لأن المقاعد الخلفية للكبار والنساء فقط، وكلما استعمل السائق مكابحها انقذف جسمه إلى الأمام ليصطدم رأسه بالواجهة الصلبة.

بعد شراء السّيّارة قررّ (اليقطينة المزروفة) السفر إلى إيران. كان (الأثرم) في الرابعة من عمره. علِقت في ذهنه مشاهد قليلة من ذكرياتها. في أحد أسواق مدنها مروا بجانب امرأة، تبيع مأكولات على طبق من القش. استقبلتهم بكلمة واحدة، وهي تشير إلى بضاعتها، وظننها تردد "أبا ثرمة"، فجاوبها بسيل من الشتائم، ولم يتوقف حتى أخبره سائقهم الذي يعرف الفارسية بأنها تقول لهم: "بفرمة" أي تفضلوا. كلما يتذكّر المشهد يخجل من فظاظته، ويلوم ضوضاء السوق وحساسيته المفرطة لتشوه أسنانه.

في طريقهم إلى إيران أو ربما في العودة أنقذ (اليقطينة المخرومة) من موت أليم محقق، روت له (الملطومة) تفاصيله. كان الوقت ليلاً. أرهقهم السفر، فتوقفوا لاستراحة قصيرة. ترجل (اليقطينة المخرومة) من السّيّارة، وتبعه (الأثرم). تنقبض نفسه لمجرد سماع وصفها للصحراء الموحشة، ووقف بجانب السّيّارة يرمق والده، بعدها بقليل صرخ:

- سيجارة على قدمك بويا.

بويا اسم تودد للأب في قريتهم. انتبه (اليقطينة المخرومة) لصراخه، ولعله كان على وشك زجره لسخافة كلامه، لولا أنه أحس بدبيب شيء ما على قدمه، وكانت ردّة فعله تلقائية. قفز من مكانه، فطار الشّرر من قدمه نحو الصحراء، ولم يكن شّرار سيجارة كما تصور (الأثرم)، بل لمعان عيني أفعى، كانت تتسلق قدمه، ورأسها قريب من نهاية جواربه، وتكفي ثوان أخرى لتبلغ لحمه العاري، وحركة واحدة ستدفعها لغرس أنيابها

السّامة في قدمه، وسيسري سّم الصل فيه بسرعة. في وسط صحراء غرب فارس لن يجد من يسعفه، وكان سيموت معذباً وببطء قبل أن يبلغوا أقرب مدينة، وسيكون موته المبكر لو حدث كارثة على رأس (الملطومة)، وسيطردها أبناء (أم لسان الزفِر) شّر طرده هي و(أبا الجعل) الطالب في المدرسة الابتدائية، و(الأثرم) الذي شتم خالهم الغجري.

لا بد أن (أبا الجعل) سمع القصة من والدته، وعلى الأغلب أكثر من مرة، فهي لا تحسن إلا قصّ القصص، ولا يستبعد استعار الغيرة في نفسه. هو الأكبر سناً والأحق بإنقاذ (اليقطينة المخرومة) منه، وازداد سخطه عليه، لأنهم تركوه في المدرسة الداخلية، ولم يزره (اليقطينة المخرومة) أيام العطل، ويخرجه من السكن الداخلي مثلما يفعل كعادته، وربما تناول طعامه في تلك الأيام لوحده في قاعة الطعام، ودمعت عيناه بسبب الوحدة قبل النوم، وكره نظرات الرثاء التي لاحقته بها موظفات المدرسة. لا إنقاذ (اليقطينة المخرومة) من الهلاك بسم الأفعى ولا حياة (الأثرم) في (أم السرجين) جديرة بالحسد، ولا يتعجب من خلو قلب (أبي الجعل) من حتى الرثاء لحاله، فقد كان منذ صغره متبلّد الإحساس.

تلك الأفعى اللعينة كانت السبب في تعاسة (الأثرم) لسنين قادمة، أصرّ فيها (اليقطينة المخرومة) على اصطحابه إلى المقاهي وسفراته القصيرة إلى المراقد الدينية القريبة، وربما اعتبره أشبه بتميمة تقيه من الأخطار، مفعولها مجرب وقوي، لذلك لم يتعجب (الأثرم) عندما سمع أن ملكاً عربياً اعتاد اصطحاب ابنه الأصغر في كل جولاته وسفراته لأن عرّافاً مغربياً قال له بأن وجود الابن بمعيته سيقيه من الاغتيال. لو كان محله لارتات بأمه فلعلها رشت العرّاف.

تركه يوماً في مقهى (أبي سربت) برعاية مالكه. حضر رجل وجلس بجانبه على المقعد الخشبي، بعد شربه الشاي نهض وسارع باتجاه السوق. طغى على ضوضاء المقهى صوت طلق ناري، وشاهد رجلاً مسرعاً. مر بجانب المقهى ثم انعطف يميناً ودخل مبنى الإدارة الحكومة. تعرف عليه. كان الرجل الجالس بجانبه قبل قليل. قتل غريمه وفضّل الاحتماء

بالشرطة قبل لحاق أقارب المغدور به. ترك الحدث في نفسه رهبة وامتعاض من (اليقطينة المخرومة) الذي تركه جالساً بجنب قاتل.

إن لم يكن تميمة (اليقطينة المخرومة) فربما كان ستاراً للتمويه على نشاطاته السرية. في المدن التي زارها معه نساء للمتعة وأيضاً مقرّات لنشاطات سياسية سرية. كان ثالثهما أخوه (الأملس)، مرافقه ومدير أعماله ووسيط صفقات شراء الأراضي. يجلسان في المقعد الخلفي ويقبع هو بجانب السائق، وكلما استعمل السائق المكابح اصطدم رأسه بالمحفظة الداخلية للسّيّارة حيث يخبئ (اليقطينة المخرومة) مسدسه الشخصي. تضيق أنفاسه من دخان المحرك، ولو سبقتهم سيّارة على الطريق الترابي فستمتلأ القمارة بالغبار فيختنق، وفي كل سفرة تقريباً ينتابه الغثيان، فيتوقفوا ليتقيأ على جانب الطريق، ولم تكن (الملطومة) حاضرة لتمسك برأسه، واكتفى (اليقطينة المخرومة) بالتفرج، ورمقه بنظرات سخط ونفاذ صبر، لأنه أصغر أبناءه الأثرم الذي يخاف العبور على القناطر المصنوعة من جذوع الشجر، ولا يحسن السباحة في النهر.

أدرك ثقل الملل في تلك السفرات، وليس هنالك أصعب من الملل على قلب طفل. كان "ولد عاقل" أعظم مديح يوجه لطفل، والعاقل هو المطيع، من دون اعتراض بالكلام أو الملامح، وهو الصامت أيضاً، فلا يتكلم حتى يُكلم، وقليل الحركة حتى الجمود إن أمكن. ما بين الكبار والصغار مثلما الكواكب والأجرام الصغيرة الدائرة في أفلاكها، ولا جدوى من تسلية النفس بمراقبة الطريق، وكل الصحارى متشابهة والحقول هي نسخ من بعضها وحتى بساتين النخيل مكررة. في كل بستان نخلات قوساء وأخرى ميتة وصبي يتسلق نخلة حتى رأسها، وعند النهر صبايا يملئن مساخنهن النحاسية بالماء العكر، وأخريات يغسلن الثياب، وأطفال يسبحون في المياه الموبوءة بديدان البلهارسيا، وتمنى لو كان يعرف السباحة ويكون معهم في تلك الساعة. عندما يمر قرويون يسوقون أبقارهم وجواميسهم نحو النهر يتبادل معهم نظرات الحسد. يحسدهم على حريتهم ويحسدونه على السّيّارة والغنى.

في سفرات الصيف وعلى الطريق الصحراوي تجثم الشمس على سقف السّيّارة، وتمدّ رأسها لتعبس في وجهه من خلال نوافذها. تتسلل إلى مقعده، وتروضه بلسعات مقبض الباب المعدني، وتعميه بوهجها، وتشتت فكره بالسّراب. تؤمن (الملطومة) بأن السّراب هو روح يزيد بن معاوية قاتل الحسين. تهوم روحه في الصحراء يعذبها العطش، كما حرم جيشه الحسين وأهل بيته وأصحابه من الماء. سراب يزيد يركض وراء سراب الماء. يتراءى له السّراب بصورة إنسان يكاد يرى لهاثه ولسانه الممتد خارج فمه من شدة العطش، ثم سرعان ما يختفي ويعود السّراب إلى شكله المعتاد، وفي كل سفرة صيفية لا يخلف يزيد وسرابه الميعاد.

أحياناً يطول مكوث (اليقطينة المخرومة) وأخيه (الأملس) في المدينة فتكون سفرة العودة ليلية. ما أن تختفي فضلة ضوء النهار حتى تخرج عفاريت (الملطومة) من أوكارها، وكل قصصها مليئة بالوحوش والعفاريت والسّحرة. تصورها كامنة في الظلام الحالك خارج دائرة ضوء مصباحي السّيّارة. لا يبدد وحشة الليل التي تحاصره سوى ظهور مفاجئ لابن آوى. يتوقف قليلاً ليرمقه بعينين تقدحان الشرر ثم يختفي تاركاً وحشة ثقيلة، وحتى اليوم تستيقظ الكآبة في نفسه مع حلول كل مساء.

العبور على جسر البونتون الإنكليزي في قرية الصخور فرض واجب في الذهاب والإياب. للجسر مسار واحد. عندما ينفخ مأمور الضفة في صفارته، ويرفع العلم الأبيض تتحرك سيارتهم على مهل. لو انحرفت نصف متر فقط فستسقط بحمولتها في النهر السريع الجريان والعميق، وسيكون مصيره المحتم الموت غرقاً. في إحدى السفرات سبقتهم على الجسر شاحنة من مخلفات القوات الإنجليزية الغازية في الحرب العالمية الأولى. قبل اكمال صعودها إلى الضفة الأخرى المرتفعة تعطلت وتقهقرت على الجسر الضيق، ثم انحرف مسارها وتردَّت في النهر. صرخ (اليقطينة المخرومة) بالسائق ليعود أدراجه، ونبرة الذعر واضحة في صوته، مما زاد في رعب (الأثرم). كان الأسلم نزولهما عن السّيّارة والعودة إلى الضفة مشياً، لكن الذعر شلّ عقله، أو ربما لم يكن ذكياً بدرجة ليدرك ذلك. بعد سقوط

الشاحنة في النهر فلا يستبعد انفصام عُرّى القوارب الحديدية التي تحملها وانفراط الجسر بأكمله. لا ينسى ملامح الرعب المرتسمة على وجه السائق، فالسياقة إلى أمام على الجسر اختبار وتحدي لأمهر السائقين، والرجوع إلى الخلف عليه أصعب. استغرق الوصول إلى الضفة دقائق، لكنها كانت من أشق الأوقات في حياة طفل صغير.

في المدينة يبدأ عذاب من نوع آخر. يتركه (اليقطينة المخرومة) ورفيقه مع السائق ويغيبان لساعات، للزيارة والصلاة، أو هكذا ادعيا، وصدقهما في حينه، لكنه اليوم يشك في ذلك، ولو كانا متدينين إلى هذه الدرجة لعلماه الصلاة. إدمان السائق على الشاي يجره إلى مقهى، ولا ينقضي وقت طويل حتى يخرج من بين الأزقة أولاد شوارع، يحاصرونه بالسباب والاستهزاء، لأن الأمعاء الفارغة تمتلأ بالحقد الطبقي. تمضي ساعات من دون قضاء الحاجة، وتعلم حبس فضلات جسمه، والاحتصار ليس بأسوأ من التبرز في مراحيض عمومية، التي قاده لها السائق بأمر (اليقطينة المخرومة)، وما تغلب عليه في الصغر قهره في الكبر.

تضاعف عذاب السفر بعد هجوم قبيلتهم على قبيلة مجاورة. نشب الخلاف بينهما حول ملكية أرض، وكأن عائلته لا تمتلك ما يكفيها من أراضي. في (أم السرجين) حياة إنسان أرخص من شبر من الأرض، ومن بقرة أحياناً. بعد المعركة اضطروا لسلوك طرق جانبية، أطول مسافة وأشد وعورة، ولو هاجمتهم القبيلة المعادية لكان هو والسائق أول الضحايا.

اصطحاب أصغر الأبناء عادة لدى الآباء في القرى، شهود على فحولتهم. تراهم ملتصقين بآبائهم في مضيف شيخ القبيلة، ولو تململ أحدهم نخسه أبوه في أضلاعه ليستكين، ولا يتكلمون إلا همساً. يروون أن قبلياً ضرط في مضيف شيخه، وليس أسوء من هذا العار سوى زنا حريمه، ومن يصدر عنه يخجل من مجالسة رجال قبيلته، فصرخ الرجل بأبنه مدعياً بأنه هو الضارط، واتكأ عليه حتى مات خنقاً. اكتفى الحاضرون بالتفرج على الجريمة الشنعاء. كان أهون على الرجل قتل ابنه من فضيحة ضراطه، لكن (اليقطينة المخرومة) لم

يكن قروياً عادياً، ولم يتوقع منه أحد التصرف مثل كل القرويين، وما طلب منه يوماً اصطحابه في سفراته القريبة والبعيدة، وعرف بأنه لا يساوي عنده أكثر من قيمة الابن المخنوق للقبلي الضارط.

أثناء سفرة نادرة إلى العاصمة، شاهدوا في الصباح عرضاً مثيراً لرجال يركبون دراجات ناريّة ويدورون بها داخل قفص حديدي، وقفزة متهور آخر من أعلى سلم حديدي إلى حوض ماء صغير، ثم ذهبوا إلى مقهاهم المفضّل في محلة شعبية. احتسى (الأثرم) كوباً من الشاي الحامض، وشاغل نفسه الملولة بمراقبة رواد المقهى، المنهمكين في احتساء الشاي وتدخين السجائر والأراجيل، والبحلقة في النسوة المستطرقات، والبصق على الأرض كأنهم في مباراة حامية للبصاق. أنبتهم على جدار المقهى حكمة من راقب الناس مات هماً وتوجيه من وزارة الصحة بأن البصاق على الأرض ممنوع. تغدوا في مطعم قريب، وطلب (الأثرم) صحناً من ألسنة خراف باردة، ولا يتذكّر ما دفعه لذلك، وفي العادة يكره الأطفال الطعام الغريب، ربما بسبب الملل من تناول الأرز ومرق الباذنجان كل يوم، وهو الطبق المفضّل في بيتهم، أو كاحتجاج رمزي وغير واع على الصمت المفروض عليه. في المساء قصدوا شارع الشاطئ لتناول سمكاً مشوياً. بعد ساعة من السأم ومغالبة النعاس استأذن في الذهاب إلى السّيّارة الواقفة في شارع جانبي، حيث ينتظر السائق الذي لم يكن مدعواً لعشاء السمك. في هذه الساعة المتأخرة عادة ما يكون مستغرقاً في النوم. كان متأكداً من معرفته لمكان وقوف السّيّارة، لكنه لم يجدها في مكانها، فقفل عائداً إلى المطعم. كل مقاهي ومطاعم شاطئ النهر متشابهة، أو هكذا بدت في أول زيارة له، مرّ بمطعم السمك مرّات من دون التعرف عليه. تاه على بعد أمتار من (اليقطينة المخرومة)، وأصيب بالذهول بسبب الخوف وصخب المارة ولعلعة مذياع. حبس دموعه لئلا يراه قصاص قلوب أو غجري يخطف الأطفال، ومنذ تلك الساعة كره نجاح سلام وتغزلها بريم وادي ثقيف، وكلما سمع أغنيتها وكلماتها الركيكة تذكّر ذلك المساء وشارع شاطئ النهر ورعب التيه. مضى وقت طويل أو هكذا خيّل له قبل أن يعثر عليه (اليقطينة المخرومة) ورفيقه ويعنفاه.

لم يكن ذلك دليله الوحيد على تدني قيمته في حسابات الأبوة المعقدة بكثرة الأبناء والزوجات. تختبر الأبوة والأمومة بالمرض. نجحت (الملطومة) في كل الاختبارات. رعته وسهرت بجانبه كما هو متوقع من أم، وبعد مقتل ولدها الأوسط كانت مستعدة لتفعل أي شيء حتى لا يموت لها ابن آخر، فتشمت بها ضرائرها، وليس هنالك ما هو أشدُّ على نفوس القرويين من الشماتة سوى مقتل عزيز من دون ثأر. حصته من المرض باهظة، لكنها أخف من أبناء جيرانه الفقراء. أحدهم يلتهم الطين بشراهة، واخر يتبرز فتخرج إسته من جوفه فتهرع أمه لتعيدها إلى مكانه بأصابعها، ولكنه مثلهم استضاف كل أنواع الديدان المعوية، وشاهدها في برازه، وتجرع دواءها السمّي المر، وتقيأه، ثم اصيب بالتيفوئيد. كان اختباراً صعباً، نجحت فيه (الملطومة) وفشل (اليقطينة المخرومة). زارهم يومها شقيقه شارب الويسكي ومدخن سيجار الجروت. افاق على صوت الزائر الأجش. أعيته الحمى عن تقبيل يده أو رفع رأسه ليراه، لكنه ميّزه من صوته. كل ما شاهده ببصره الزائغ زوجان من الأحذية، زوج (اليقطينة المخرومة) والأخر لشقيقه، وسمع حديث الأحذية. قال زوج الحذاء الأول للثاني بصوت خال من العاطفة:

-لا أظنه سيعيش للغد.

توقع (اليقطينة المخرومة) وفاته في تلك الليلة، ولكنه لم يستدع طبيباً ليحاول ولو للمرة الأخيرة انقاذه من الموت، ولا استأجر خدمات ممرضة، ولم ينقله لأقرب مستشفى، وكل ما رأه منه يومها حذاؤه، ثم تركه ليسامر شقيقه. عندما استرجع صور تلك الليلة احتار في تفسير سلوكه، ولم يفهم سبب اصطحابه شقيقه لرؤيته، ويغيظه ذكره للموت أمامه. لو كان قروياً جاهلاً لاكتفى بترديد: سلامتك وعندك العافية، ولم يكن عاجزاً أو شريراً ليتمنى هلاكه، ليرتاح أو يريح الناس منه، ويتذكّر ما قاله لشقيقه (المكوي) عندما وبخه على زواجه من أمه فاعتذر بأنها: عجوز لا تبزّر، وكذبه و(أبو الجعل) وشقيقهما المغدور. في الأيام التالية تماثل للشفاء.

كل شيء في (أم الجواميس) و(أم السرجين) ممتزج بالخرافة، والمرض ليس مستثنى، وعندهم السّحر الأسود والحسد لا الجراثيم سبب كل الأمراض، ولا بد أن يكون العلاج من جنس المرض. عندما تورمت عينه زربطوها، أي حرك أحدهم اصبعه أمامها مردداً: إن كانت حلوة كليها ولو كانت مرة ذبيها، أو كلام بنفس المعنى، ولو لم تطعهم العين فتقذفها يأتي دور البخور والحرمل وربما زيارة لأقرب ساحر لإعداد تميمة. لأن (أبا الجعل) سكن في المدرسة الداخلية فلم تبل عليه امرأة، أما هو فقد تعرضت لذلك الاعتداء المشين الذي ظل مطبوعاً على ذاكرته، فبعد فشل البخور والحرمل والتمائم في شفائه من مرض لا يتذكّر طبيعته تيقنت (الملطومة) بأن وراء ذلك سحراً قوياً، ولا يبطله سوى بوّل امرأة طازج على رجله. لا تسعفه ذاكرته باسم المرأة، وافقت وربما وبحماس لذلك. لم يثنها اضطرارها التبوّل عليه وقوفاً، ويملأ ذلك الجزء الخبيث من عقله المشهد بتفاصيل أخرى مزعجة، مثل درجة حرارة بوّلها وزاوية تدفقه، وكلها أمعنت في إذلاله. في شبابه قرأ كتباً عن طقوس الجماعات البدائية. والبوّل على الذكور الصغار إذلال رمزي لكل الذكور، فلا بد أن الفاعلة استمتعت بالأمر بقدر تقذره وامتعاضه.

لا يخالجه الشك بأن (أبا الجعل) لم يتعرض لطقس إذلال التبوّل عليه في المدرسة الأهلية، ولأنه حلّ محله في مكانة الابن الأصغر، وسكن بيت (اليقطينة المخرومة) الكبير في (أم السرجين) كان المستهدف بكل خرافات القرويين.

(أبو الجعل) خارج الذاكرة

في ذاكرته شريط من مشاهد (أم السرجين). تفاصيلها لا تفارقنه، وأسماء وملامح أشخاصها لم تمحها السنون. بحث فيها عن (أبي الجعل) فلا يكاد يتبينه. قبل المدرسة في العاصمة كانت نفس (أبي الجعل) تعاف قربهم، وبعد المدرسة تغرّب بالعاطفة والجسد، فلم يترك سوى صور باهتة قليلة توزعت على ستة أعوام مريرة.

لا عيب في ذاكرة (الأثرم)، يسترجعها بيسر، فتتحرك أشخاصها تلقائياً، وتتجسد ملامح وجوههم. ذلك الوجه المكتنز لمالك المقهى والدكان، ورنة صوته المميزة، واقف في دكانه ومن حوله قناني الملبس والحلوى المصفوفة على الأرفف، من بينها زروق الفأر وزب القاضي. لا يعرف سِرَّ المسميات، وما شعور أحدهم وهو يقضم عضو القاضي المعمول من اللقم المرشوش بلّب جوز الهند أو يلتهم نفايات الفأر الملونة؟ يكاد يشم رائحة تراب مبلول، بعد رش صانع المقهى الأرض بالماء، يهرقه من إبريق على يده ويحركها كمرشاة، فتنبعث الرائحة من بين صفوف كراسي المقهى قرب شاطئ النهر مساء كل يوم صيفي. غير بعيد عن مرأى رواد المقهى والمارة والشرطيين الواقفين عند باب المركز الحكومي والمارّة ينزل الرجال إلى شاطئ النهر لقضاء الحاجة والاغتسال. وفي بعض الأيام يأتي صابئ لغمر جسمه في الماء فينبري صبية مشاكسون للنداء باتجاهه: نجس! نجس! فينهرهم بغضب، ويكرر طقوس التعميد.

في المدرسة الابتدائية يسير معلم مترهل مترنحاً، يلقن طلاب الصف الأول: إحنا صف الأول أحسن الصفوف والذي لا يصدق بنا خلي يجي ويشوف! لم يكن يبالغ بل يكذب، فلا الصف الأول ولا أي صف في تلك المدرسة الحكومية البائسة استحق ذلك الوصف. في يده عصا يهشُّ بها عليهم، وفي اليد الأخرى حفنة من بذور يقطين يستل لّبها ثم يبصق قشورها على أرض الصف. يدعي أنها مفيدة لطرد الديدان المعوية. وبالبذور أو غيرها

أخرجوا دودة شريطية طويلة من مؤخرة طالب أسمر. اختاروه لأداء تحية العلم كل يوم خميس. أعجب (الأثرم) بجرأته. رفعوه يوماً للفلقة لسبب غامض، لعله اللواط.

لم تختف صور (أم السرجين) من ذاكرته، ولم تتغير ملامحها، ولا بهتت ألوانها، ويستطيع بسهولة التعرف على أشخاصها بالاسم والكنية، وكلما استعرضها لم يلمح (أبا الجعل) إلا في النادر منها. لم يكن (أبو الجعل) حاضراً عند خسوف القمر ذات يوم، ولم يشارك معه في إخافة الحوت الذي كان يحاول ابتلاعه، فالحوت لا الشمس هو المسؤول عن الخسوف في عقيدة قومه. يومها خرج مع غيره من أطفال وشبان ورجال مدينة (أم السرجين) حاملين الطناجر والمقالي، وطرقوا عليها حتى انتهاء الخسوف. كانت سمفونية صاخبة أصمّت الأذان، رفعوا فيها الحوت إلى السماء مكان الرب الحقيقي، صاحب الخيمة الزرقاء كما يسميه أحد أقاربه على سبيل الاستهزاء. لا أظن (أبا الجعل) شارك في طقوسهم الدينية والمذهبية، ولم يشاهده مهرولاً وسط ثلة من الصغار في الصوب الكبير من (أم السرجين) يطاردون شيخاً في ثياب رثّة، شدّ على كرشه تحت جبته مخدة ليبدو مثل الحوامل. هلّل الصغار وهم يرجمونه بالحصى وقشور البطيخ وكل ما يلتقطونه من زبل الشارع، والشيخ ذو الحَبل المزيف لا يلتفت إليهم لينهرهم أو يوبخهم. أسمع من بعيد أصواتهم وهم ينشدون "يا عمير هيتا هيتا زربة جلب بلحيته". إنه عيد الزهراء، كما أنزلوا الله من عليائه ليضعوا مكانه حوتاً بلاعاً ازدروا ريحانة محمد بهذه المسرحية المهينة.

تطبّع سكان بلدته على الحزن، أيام معدودات للأعياد والبقية للأحزان، تصفحها في ذاكرته، مشهداً مشهداً، ولقطة بعد لقطة، فلم يجد صورة (أبي الجعل) فيها. لوحده ذرف الدموع لأن (الملطومة) بكت ولطمت في عاشوراء، وبمفرده شاطرها الحزن والغضب بسبب خيانات (اليقطينة المخرومة)، وما شاركه في توسد فخذها وأصابعها تتخلل شعره، كأنها تفلّيه من قمل افتراضي. عندما بردت عواطفها تجاهه بعد حين سأل نفسه: هل

سأمتني لشدة تعلقي بها؟ وتمنت لو كان (أبو الجعل) مكاني؟ يعترف بجهله بعاطفة الأمومة على الرغم مما قرأه عنها في كتب وروايات.

توقع رؤيته في مشاهد عبث أخيهما غير الشقيق، وكنيته (السلبوح) لشدة نحوله كالدودة. حضر هو وابن عمه ليلة عاشوراء أو تاسوعاء. راقبهما من وراء نافذة غرفة الاستقبال الصغيرة. دخلا الحديقة الأمامية حاملين حزمة من (الصعّادات) كما يسمي القرويون الألعاب النارية، واحتارا أين ينصبونها، حتى اهتدى أحدهما إلى أبريق الشطف المعدني في مرحاض الخدم. وضعوا الحزمة في فوهة الإبريق وأشعلوا في طرفها النار وابتعدا ضاحكين. بعد ثوان انطلقت الصعّادات نحو الضفة الثانية من النهر مضيئة الليل الدامس، وسقطت داخل وبالقرب من حسينية، فتوقف صوت منشد العزاء وبعدها خرج الحاضرون، وتناكبوا عند المخرج، ثم اندفعوا لا يلوون على شيء إلى الشارع الترابي وانفض العزاء، وبقي (السلبوح) وابن (أبي الجروت) متوارين وراء شجيرات الحديقة حتى أُطفأت أنوار الحسينية ثم غادرا قصر (اليقطينة المخرومة)، ولم يكن (أبو الجعل) ثالثهما، ولكنه فيما بعد سيفضل صحبة (السلبوح) عليه وعلى (الملطومة)، فهو كان وظل متخلياً عنهما.

لو كان حاضراً ذلك اليوم، لفرح واستعاد ذكريات طفولته. في يوم صيفي اشتدت الحرارة وتفاعلت قوى الطبيعة الخفية لتخرج أسراب الحشرات والزواحف. اِسودّ شطآن النهر بطبقة متراصة من الخنافس والعقارب السوداء. فلا تمرّ دقائق حتى يسمع أزيز غيمة من الخنافس الطائرة، تحط عند أسفل عمود ضوء البلدية وتبدأ دبيباً حثيثاً حولها، وكأنها مجموعة من الوثنيين تتّعبد عند قدمي صنم لها. كاد يفرّ إلى حمى (الملطومة) لولا أن أحدهم أكد له بأنها غير مؤذية، فلا العقارب السوداء سّامّة ولا الخنافس بلؤم نادوس أو قراص الخصى كما يسميه القرويون. يومها افتقد (أبا الجعل)، وبعدها بأيام قلائل اختفت الخنافس والعقارب السّوداء فجأة كما ظهرت بغتة.

لم يكن حاضراً أيضاً عندما عاد أخوهما غير الشقيق (العرقجي)، بعد الافراج عنه من سجن في الصحراء. كان محبوساً بتهمة المشاركة في تمرد يساري، ومن عرفه عن كثب

استغرب التهمة، فهو سكّير. يروون عنه أنه أجبر أحد الفلاحين على شرب عدة قناني من البيرة، وغلبه السّكر فنام، ولم يستطع السيطرة على بوّله، فكان رذاذ بوّله كالنافورة يصعد ثم يهبط داخل فمه المفتوح. اتخذ (العرقجي) بطانة من فلاحين، منافقين ومرتزقة، أطاعوه في الكبيرة والصغيرة، حتى أشيع بأنه زنى بزوجة أحدهم بعلم زوجها الديوث. هو من روت (الملطومة) قصة اعتداءه على خادمة سوداء، وحملها سفاحاً منه، ثم اختفائها المريب بعد ذلك. أمر مستغرب بل مستبعد مشاركة هذا الداعر في انتفاضة الفلاحين التي ما زال الشيوعيون يتغنون بأمجادها. الحقيقة عند (الملطومة)، أسرّها بها (اليقطينة المخرومة)، فلا هي انتفاضة ولا الداعر ثوروي. بعد الافراج عن (العرقجي) من السجن بوساطة (المكوي) زار أباه، الذي طالبه بحصته من ثمن مشاركته في الانتفاضة المزعومة، وتبين أنها كانت مسرحية سمجة، أريد منها تحسين صورة الشيوعيين والمعارضين للسلطة الحاكمة في العهد البائد، ولا بد بأنها حظيت بموافقة من (اليقطينة المخرومة)، فهل فعلها نكاية بشقيقه (المكوي) لأنه استأثر بالمشيخة وأجود الأرض الزراعية والمنصب السياسي والحظوة عند الحكام؟

وحده ذهب مع رجال من القبيلة لزيارة أبيه في التوقيف. حتى شيوخ القبائل وأخوة وأقارب كبار الساسة معرضون للتوقيف والسجن، ولكن عادة لا يطول توقيفهم، بفضل صلاتهم غير الحميدة بأساطين السلطة والنفوذ في العاصمة. كان (الأثرم) في الثامنة من عمره، ولم يحزن على أبيه السجين. تذكّر سبب توقيفه هو وثلّة من أقارب وأفراد من القبيلة، التهم هي جرائم قتل والتحريض على القتل. ثلاثة أسباب تتقاتل عليها القبائل: الأرض والعرض والكرامة، ولو تمعنت فيها قليلاً تجد أنها جميعها أملاك، فالأرض ملكية، وفرج المرأة أيضاً، واسم وسمعة المرء كذلك. بدأ الخلاف حول شراء عائلته أرضاً لقبيلة مجاورة. اعترض شيوخها على الشراء، فمن دون أرض تتفتت القبيلة، وتضيع المشيخة. صمم شيوخ قبيلته على انتزاعها ولو بالقوة. في صباح يوم أغبر تسلح ثلة من أقاربه وقبليين برشاشات بورسعيد وبنادق البرنو ومسدسات الوبلي، وامتطوا شاحنة،

وتواروا تحت غطاء مقصورتها الخلفية. سارت الشاحنة بحملها العدواني حتى ديرة القبيلة الجارة، وتوقفت عند أحد المقاهي المكتظّة. قفز مسلحوها المختبئون، وأمطروا رواد المقهى والمارّة بوابل من رصاص بنادقهم ومسدساتهم، فأردوا بعضهم قتلى وآخرين جرحى. سمع تفاصيل الغارة الغادرة من ابن عمه. تفاخر بمشاركته في المذبحة، ولم يخطر بباله بأنها كانت عملية جبانة، فالمهم إثبات الرجولة بالعنف والنجاة بجلدك. أمر الرئيس الإداري للمنطقة بتوقيف بعض شيوخ قبيلتهم، من بينهم (اليقطينة المخرومة)، فزجوهم في سجن البلدة. لم يعاملوهم مثل بقية السجناء. نقلوا لهم فراشهم الوثير من منازلهم، وحُملت لهم الأطعمة المتنوعة والدسمة كل يوم. زارهم مرة واحدة، مع وجبة ضخمة من عدة صواني مليئة بالدجاج واللحم والأرز والمرق والفواكه، ناء بحملها عدة رجال من قصر (اليقطينة المخرومة). مدّت السفرة، ووضعت الصواني والصحون، وتهللت الوجوه للطعام، ثم تذكّروا سجيناً غائباً، فنادوا على الحراس ليحضروه من التاسعة، وهي أسوء زنزانة في الحبس، ويجهل سرّ تسميتها، ربما كانت الزنزانة الانفرادية. دعوه لتناول الطعام معهم، ووقروه. شيخ قبيلة هو الآخر، محكوم بالإعدام، بتهمة قتل أربعين فرداً من عائلة شيخ لقبيلة مجاورة. أغار عليهم هو وعصابته ليلاً وهم نيام، وذبحوهم. لعلهم لم يسمعوا بقول نبيهم أو سمعوا ولا يكترثون: والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن الذي لا يأمن جارُه بوائقه. لا انتظار الإعدام ولا الدماء المسفوحة لأربعين رجلاً وامرأة وطفلاً قلّلت من شهية السّفاح.

توسط (المكوي) لدى سيده في العاصمة فأصدر توجيهاً للحاكم الإداري بإطلاق سراح (اليقطينة المخرومة) وأعوانه. قيل بأن (المكوي) هو من أصدر الأمر بالهجوم على القبيلة المجاورة. رفض الحاكم الإداري تنفيذ الأمر، فنحوه من منصبه ونقلوه إلى منطقة أخرى، وحلّ محله مطيع من دون نقاش، فخرج أبوه وأعمامه من التوقيف. في الأشهر اللاحقة اصطحبه (اليقطينة المخرومة) معه كالعادة، متحاشين المرور قرب ديرة القبيلة المعتدى عليها، فتضاعفت مسافة الطريق ومعاناته، وبدلاً من العبور على جسر أبي الصخور

البونتون اتخذوا طرقاً ثانوية، غير مبلطة، وتجرّع مطباتها وغبارها، ثم تصالحت القبيلتان، ودفعت قبيلته دية الدم المسفوك تنازلاً عن الأرض المتصارع عليها. في النتيجة جنت قبيلته أحقاداً واكتسبت آثاماً وخسرت الأرض.

غاب (أبو الجعل) كذلك عن يوم الحصار. اقتحم كلب مسعور الحديقة الخلفية. أوصدوا الأبواب. راقبوه من خلف النوافذ. بدا خوف الكبار في اصفرار وجوههم ورجفان كلماتهم. ضاعف خوفهم من رعبه. من دون التنور في الحديقة سيتناولون خبزاً بائتاً، ولو حضر (اليقطينة المخرومة) أو زائر فقد يعضّه الكلب المسعور، ولا دواء للسّعار. يقيدون الإنسان المسعور إلى نخلة بسلسلة، ويقذفون الطعام له من مسافة آمنة حتى يموت. صراخ الخادمة من نافذة جانبية اجتذبت انتباه جار ساكن في بيت من الطين. عاد ببندقيته، وقتل الكلب المسعور بطلقة واحدة.

غاب (أبا الجعل) عند زيارة الملك وخاله. كان الأثنان وحاشيتهما في جولة على مدن وبلدات جنوبية. عند أطراف (أم السرجين) اصطف مئات الفلاحين وسكان البلدة على جانبي الشارع، تخللهم عشرات الجزارين يمسكون بأضحية، وما أن هلّ الموكب الملكي حتى سالت دماء خراف وأبقار وجمل واحد على الأقل. راقب (الأثرم) مع ابن الجار مسير الموكب حتى توقفه أمام بيت أحد أقاربه. ابن الجار مقتنع بأن الملك وخاله لا يتغوطان مثل بقية البشر. بعد الغداء غادر الركب الملكي ليعود المكاريون وحميرهم وكلاب سائبة إلى شوارع (أم السرجين).

(أبو الجعل) حاضر في مشهدين لا غير من الطفولة، كلاهما مرّان، في الأول حرّضه على عصيان (اليقطينة المخرومة)، لسبب ما أصر يومها على أن يجبرهما على القيلولة. لا يصدر صخب منه، في وقت القيلولة أو غيره، فهو بشهادة الجميع ولد عاقل. ينزوي في ركن غرفتهم مع ألعابه القليلة، نموذج مصغر لسيّارة وعدد من علب الكبريت الفارغة، ويشغل مخيلته لتصنع منها عالماً ينسيه الواقع. ختلا في الطابق العلوي، ومن بعيد تناهى لهما صوت (اليقطينة المخرومة)، عالياً وغاضباً. ورّطه (أبو الجعل)، وكان مستعداً لقضاء

ساعات القيلولة، متظاهراً بالنوم، وربما لأول مرة في حياته منذ توقفه عن شتم (أم لسان الزِفِر) وعائلتها تمرد. احتار في تفسير سلوكه وتحريضه، فهل أراد تشويه صورته في ذهن (اليقطينة المخرومة)، بدافع الحسد والغيرة، فهو الأصغر المطيع والملازم لظله؟ لم يطل الوقت قبل اكتشاف مخبئهما. شدهما (اليقطينة المخرومة) بعنف إلى الطابق الأرضي، وأسمعهما توبيخاً قاسياً.

في المشهد الثاني يصعد هو و(الملطومة) الدرج إلى سطح البيت. كان الوقت صيفاً. فُرشت الأسرة، ونصبت عليها الكلّل. لو خير لفضّل غرفة والدته الصغيرة، بجوها الخانق على السطح المحاصر بسواد الليل، وكل شيء في الليل يملأ نفسه بالكآبة. تتمايل نخلات البستان فيتراءى له وراءها وحش الطنطل العملاق، ونباح الكلاب تحذير من أشباح تتسلل من مقبرة المنبوذين آخر البستان خلف البيت، والشاهد ابن جار شاب. كان يلهث عند خروجه من البستان المظلم، وأقسم بأن أرواح المدفونين في المقبرة طاردته ورجمته بالحجارة. حتى السماء المزينة بالكواكب الساطعة والنجوم المتلألئة صورّها عقله المسكون بالرعب هاوية سحيقة، ستبتلع الخلق يوماً على غفلة منهم.

جلسا على سرير (الملطومة). لم يعد (اليقطينة المخرومة) من المقهى بعد. في كل ليلة كان يوقظه رغم توسلات (الملطومة) ليقصّ عليه حكاية جديدة. بدلاً من أن يحكي الأب لابنه الصغير قبل النوم كان يصرّ بعد عودته في ساعة متأخرة على استماع حكاية جديدة من ابنه الصغير الذي لم يتعلم القراءة والكتابة بعد. هذه الليلة كما الليالي السابقة سيتكرر المشهد، ولكن بعد ساعة أو أكثر، سيتوقف بث الأغاني من مذياع المقهى، والمسموعة بوضوح في سطح البيت وكل بيوت البلدة، متعة مجانية للبعض، ثم يغادر زبائن المقهى، وستكون (الملطومة) بانتظاره، ومرة أخرى لن يكترث لتوسلاتها، وليس في العالم كله من يجيد التوسل مثلها، وإن جاد عليها بالقليل. سيصحو (الأثرم) ليقصّ عليه حكاية عن الطيور والثعالب والدجاج. أرتجل الحكايات كما يرتجل الشعراء الفطاحل قصائد عصماء. من أين له تلك المهارة؟ ليست متوارثة بالتأكيد، ولم يتعلمها من (الملطومة) وحكاياتها

المرعبة والمقززة، لعله أراد طرد الرعب بها، أو على الأقل أبقاه بعيداً. إنه وطن الرعب، حيث يعبد الشيطان والآباء القساة.

لاذ بوالدته، طمعاً بدقائق من حنانها. لا يتذكّر عدد الأسّرة المعدنية المصفوفة على السطح في ليلتها. لكن أحدها كان مسكوناً، بآدمي أو غير آدمي. اهتز السّرير وتمايلت الكلّة، فانخلع فؤاده من الخوف. وانفجرت حنجرته بصراخ متواصل. توقع من (الملطومة) أن تضعه تحت جناحيها وتحميه، لكنها كانت هي الأخرى مثله تصرخ وترتجف. ازداد اهتزاز السّرير فارتفع صراخهما، وأخيراً أطل رأس من تحت الكلّة. لم يكن لصاً ولا جنياً. كان (أبو الجعل) يرتعد من الخوف. عندما استعاد صوته قال بأنه نعس فصعد لينام في فراشه على السطح، واستفاق على صراخهما، فظن أن لصاً دخل بيتهم، فخنس في سريره. أمرّ ما في التجربة خيبة أمل (الأثرم) بوالدته، التي لم تبد أي جهد لحمايته، بل كانت خائفة مثله، وانتظرت نجدة لم تأت. كانت ضعيفة وخائفة، وهكذا ظلت حتى آخر سني حياتها.

تركت الأوقات القليلة التي قضاها مع شقيقه (أبي الجعل) في الصغر رواسب ثقيلة. عامله بجفاء، وسخر من ملامحه ومظهره وسلوكه. عاب عليه خشمه الكبير. لم يكن كبيراً في طفولته، وبعد البلوغ كبر قليلاً. في كل لقاء ومن دون مناسبة تندر على خشمه، ربما لأنه ذكره بأنف أبيه الكبير، وكان (الأثرم) البديل السهل للتندر بدلاً من الأصيل المتنع، حتى اقتنع (الأثرم) بأن خشمه عاهة أخرى، أضافها إلى الثرمة، وحتى الآن لا ينسى سخرية شقيقه.

ساقطات في البيت

تبدد فرح الملطومة. لم تمض سوى شهور حتى لحقت بها (القهرمانة). فرضت سيطرتها على الجميع، الخادمات ونساء الجيران و(الملطومة) وذريتها، وحتى (اليقطينة المخرومة). خنعت (الملطومة) لها من دون مقاومة أو حتى احتجاج، وعادا إلى تناول الخبز المحروق ومرق العظام والغضاريف المنزوعة اللحم.

(القهرمانة) حِرْباء متلونة، تصفرّ وتقسو ملامحها عندما تعاملهما، ويسّود وجهها وتكسوه مسحة حزن وتذلل أمام (اليقطينة المخرومة). لا يتذكّر أنها ضحكت يوماً أو حتى تبسمت، لكنها غالباً ما تكشّر كاشفة عن أسنان دقيقة، مثل أسنان الفار. ولم تفقد سناً واحداً حتى وفاتها.

تعرف (الملطومة) سر تعلق زوجها بزوجته الأولى، ليس لأنها قريبته من بعيد، أو أم أكبر أبناءه (المخبول)، ولا لكونها قهرمانة عائلته. أودعت (الملطومة) (الأثرم) السرّ، لأنه لازمها كظلّها، بينما هجرها (أبو الجعل) باختياره لا مرغماً، وزيارات (الحبوبة) قلت بعد الانتقال إلى البلدة.

– كانت قوادته.

قلب (القهرمانة) جلمود، وعقلها ملوث بالحقد والحسد. أزاحها عن قلبه بثلاث نساء، لا لتكثير ذريته، أو لخدمة ضيوفه، كما يبرر بعضهم، بل من أجل المتعة، فلا مكان في قلبه لشهوة أخرى. بعد ذبول جمالها ووفاة صغارها وهجران ابنها الوحيد خسرت كل أوراق قوتها. أرادت مكاناً لها بين نساءه، وإن لم يكن في فراشه، ولم تقبل بالانزواء بعيداً عن انظاره واهتمامه، تزجرها ضراتها وتتجاهلها الخادمات، ولا تزورها القريبات والجارات. كان يكفيها أن يكون بينها وبينه خيط واهي، تتشبث به لئلا تضيع في غابة عائلتهم أو تكون نسياً منسيا. تحول الخيط إلى حبل سميك، وبيدها لا بيده، تحركه

فيستجيب، تجذبه فيهبط، وتتركه على غاربه فيبتعد إلى حين. في قراهم لعب الأطفال نادرة، دعبل بلوري وعلب كبريت ومرصاع وعضم مفصل خروف أملس، ومقاليع لصيد العصافير، ومن يسقط ميتاً أو يقتل بكسر عنقه يشوى ويؤكل، ومن ينزل سالماً يصير لعبة حية، يربطون برجله خيطاً طويلاً ويطيرونه. في نجد يعذب الحكام السجناء بإجبارهم على تناول البطيخ الأحمر ثم يشدون مذّاكيرهم، فلا يمر وقت طويل حتى يقروا بما اقترفوه وما لم يقترفونه. هي الأخرى عرفت سر ضعفه وقوته، ليس في شعره مثل شمشون، ولا في سطرته المخلخلة لعظام الرقبة، ولا في قاصته المليئة بالنقود، بل في شهوته. ربطت حبلها بذَّكره فتمت لها السيطرة عليه، ومن قبل استهوته بشرة (أم لسان الزفِر) البيضاء وزرقة عينيها فسقط في حبالها.

كان طفلاً، ما بين الخامسة والسابعة من عمره. يعيش تحت جناحي (الملطومة)، فلا ابتعد عنها إلا إلى مكان قريب ولساعة أو أقل، ولا مفر من مشاركته ألمها. تبثه أحزانها في النهار فتنقبض نفسه، وتبكي في الليل فتنزل دموعه معها.

مشهدان لا يغيبان عن ذاكرته: الشابة القرعاء وبنات عيطة. نثرتهم (القهرمانة) على فراش (اليقطينة المخرومة) فنزل من عليائه. ليَفترس ويُفترس. القرعاء عروس. زفّت لزوجها عن قريب، ولسبب وجيه حلّت في قصر (اليقطينة المخرومة) قبل اختفاء آثار الحنّة من يديها. تذكّر (الأثرم) الحنّة جيداً. خمّن بأن زوجها وفي ليلة عرسه رفع خمارها وتفحصها، وأمسك بيديها وتمعن في نقش حنّتها، وصُدم بقرعتها، والقرعة عيب يعير به الرجل فما بالك بالمرأة، ولعل زوجها تذكّر ما يردده أطفال القرية كلما شاهدوا أقرعاً أو مشتبهاً بذلك:

أقرع مقرقع

بال بالطاوة

يبكي على أمه

يريد له حلاوة

وبعد قضاء واجبه، ورفع المنديل الملوث بدمها، لم يطق رؤيتها. لجأوا إلى قضاء الشيخ، واستقبلتهم (القهرمانة)، وعدتهم بالتوسط لدى (اليقطينة المخرومة) لمعالجة مرضها، وأكدت لهم بأنه لو تطلبت الحاجة سيرسلها لأبرع الأطباء في العاصمة، هكذا تخيل سبب وجود القرعاء في بيتهم. كانت طفلة داخل عروسة. عقد زواجها بيان ختام طفولتها، لكن الطفلة تمرّدت، وفي غياب أولياءها، أطلقت العنان للطفلة المقهورة داخلها، وكان هو الطفل الوحيد في بيت (اليقطينة المزروفة)، لذلك شاركت في ألعابه. صوّرها عقله في الرابعة عشرة من العمر أو أقل، مرحة، ولا تفارق وجهها الابتسامة، لعلها كانت متفائلة بقرب خلاصها من عارها الكامن بين نتف الشعر المتبقية على رأسها. مقابل بهجة الطفلة القرعاء اكتأبت (الملطومة)، شارك (الأثرم) الإثنين، ثم غادرت القرعاء مخلفة وراءها كآبة في غرفتهما وشماتة في غرفة (القهرمانة).

تداوي (الملطومة) ألمها بترديد:

جبنا الأقرع يؤنسنا

كشف عن قرعته وأخلسنا.

ذهبت القرعاء غير مأسوف عليها وجاءت أخريات.

قرفصت (الملطومة) أمام حنفية الحديقة. لم يكن يوماً عادياً في حياتها مع (اليقطينة المخرومة) وعائلته، وحزنها في ذلك اليوم أكثر من المعتاد. طردتها ضحكات فاجرة إلى الحديقة، فلم يهدأ فكرها. ما لم تسمعه أذناها أسمعها عقلها وصورته لها مخيلتها. حاولت اشغاله بغسل طناجر وصحون، لكن (القهرمانة) طاردتها إلى الحديقة، ومعها كل وساوس الجن والأنس:

- يا! بنات عيطة مع زوجك وأنت جالسة هنا تغسلين المواعين!

طعنت (الملطومة) بخنجر مسنون، وجاءت لتعيد غرسه حتى النّصل في قلبها بالشماتة، فلم ترد عليها بكلمة واحدة.

بنات عيطة عاهرات أو شبه عاهرات، هكذا سمعهم يرددون، بالصوت العالي لا بالهمس. أمرهم عجيب. مجرد الظّن بعفاف امرأة كاف لقطع رأسها، وربما يديها أيضاً، والخروج على الملأ للتفاخر بذلك:

- هاكم ايديها ورأسها!

يفهم دور الرأس بذلك لكن ما ذنب اليدين؟

كل خطيئة في قريته قابلة للغفران. اقتل واحداً أو مئة! اعتدي! اسرق! ثم ادفع مالاً فيعفون عنك، إلا العرض، باستثناء عرض الضيوف الأجانب، ومنهم سائحان أجنبيان، شاب وزوجته أو صديقته. قادهم حظّهم العاثر إلى ديرة شيخ خبيث. رحب بهم وأولم لهم، فشكروا حسن ضيافته وكرمه، ووافقوا على المبيت في قصره. تحت جنح ظلام بلاد (الدهن والدبس) اغتصب شيخ القبيلة ضيفيه. لا يعرف (الأثرم) إن بدأ بالمرأة أم الشاب.

سمعهم يتداولون قصة تلك المرأة المسترجلة وابنتها. كانت مسترجلة في مقاييس أعراف القبيلة. تقتحم مجالس الشيوخ والرجال، وتخاطبهم كالندّ للندّ. أحبت ابنتها قبلياً، حباً عذرياً على الأغلب، فسارع القبليون الحاسدون والحاقدون لتناقل الأفك عنها، فأسكت أحد أخوتها أنفاسها لتصمت ألسنتهم. لام (الأثرم) أمها، فلولا استرجالها لما تجرأت ابنتها، فأحبت وقُتلت.

ما أيقظ عفاف بنات عيطة المهدور مراراً حمية رجال القبيلة. هن بالنسبة لهم من طينة أخرى، لا تسري عليهن أعراف العفة القبلية، والكل طامع بوصال.

كره ما في (الملطومة) ضعفها. في العادة تتهم (القهرمانة) وتبرأ (اليقطينة المخرومة)، وكأنه مراهق غرير، أغوته (القهرمانة)، وسلبته عقله وإرادته، منطق جدير بجارية لا زوجة رابعة. تبرر خنوعها بحرصها على مستقبل أولادها، فلو أغضبت (اليقطينة المخرومة) لطردها هي وأولادها من بيته، كما فعل مع زوجته الثالثة وأم ثلاثة من أولاده. نفذ صّبرها هذه المرة. لم تنفث غضبها على زوجها ولا (القهرمانة). وهل نسيت قسمه بالعباس؟ لا بد أن خيالها صوّر لها بنات عيطة يحتلن فراش زوجها، هو فراشها أيضاً

بحكم كونها زوجته الرابعة. تركته وغادرت إلى حمى أخيها، بيته من الطين عند أطراف البلدة. قضت ليلة أو اثنتين ثم عادت. أحياناً يشّك في ذاكرته، ربما تمنى حدوث ذلك، لأنه خجل من مسكنتها، وتكفل الزمن بتحويل الأمنية إلى حقيقة في عقله. الأصعب على نفسها من قضاء ليلة أخرى تحت سقف واحد مع بنات عيطة تركه تحت رحمة (القهرمانة). عادت ترسف في قيدها.

غضب (الأثرم) على كل من أهدر كرامة والدته، وأولهم أبوه و(القهرمانة) و(أم لسان الزفر) وذريتها وكل من ساندهم ورضي عنهم؟ وطال غضبه (الملطومة) لأنها سكتت على اهدار كرامتها، ولم تتصد لهم، لا بفعل أو حتى باحتجاج، وكان هو أيضاً ضحية جبنها، لأنها لم تهرب به بعد أول محاولة لقتله، بل حتى عند ولادته لئلا يلقى مصيراً مثل مصير شقيقه المغدور، لكنها اختارت البقاء مع احتمال قتله والضيم وهدر كرامتها. في عزاء الحسين يرددون شطر بيت يقال بأنه تمثل به: العار ولا النار، هي فضلت نار الحياة مع (اليقطينة المزروفة) وعائلته الشيطانية على عار هجران الزوج والطلاق والفقر.

الأثرم في المدرسة الأهلية

سبقه (أبو الجعل) إلى المدرسة الأهلية في العاصمة، وجاء دوره بعد أربعة أعوام. كرهتها (الملطومة) لأنها سلبتها ولديها، الواحد بعد الآخر. كان سلوتها الوحيدة في البيت. تبثه همها، فيتعاطف معها، بالدموع غالباً وبالملامح الحزينة. لم يفارق جنبها من قبل. حاولت ثني (اليقطينة المخرومة) عن قراره، بالتوسل كعادتها. ترجّته ألا يحرمها من ولديها الإثنين، ووصفته بالصغير الذي لا "يتخرج"، وهي أدري الناس بذلك، فقد جاهدت لمنعه من الخروج والابتعاد عنها، لئلا يغرق في النهر أو يدهسه جمل هائج أو تتكسر عظامه برفسة حمار، وكان ولدها المطيع، فما تسلق نخلة حتى رأسها، لكنه حبى يوماً على جذع واحدة مائلة بزاوية حادة. ابتعد عن النهر كما أمرته، إلا مرّة أو مرّتين عندما خاض في مياهه الضحلة أثناء موسم جفاف، وما سبح بالنهر، مثل كل صغار الحي، لكنها فرحت يوم جاء لها بأربع سمكات صغيرة اصطادها بسنارة، وأخفى عنها لكزة صياد سمك يصيد بالشباك، كادت أن تهوي به إلى النهر فيغرق، وشك بأنه ساخط على (اليقطينة المخرومة) فأراد الانتقام من ابنه الصغير. ليس هو الوحيد الكاره لأبيه، بينهم ذلك القبلي المتجهم الذي مرّ بقربه، فتجهم في وجهه وأسمعه سيلاً من الشتائم والنعوت القبيحة له ولأبيه، وعندما اشتكاه لم يتعاطف الأب معه بل لامه لأنه لم يشتم الرجل بالمقابل. كان يريد من ابنه الصغير شتم رجل بالغ بمقدوره قتله بضربات قليلة والفرار بين بساتين النخيل.

بكت (الملطومة)، وخرجت تودعه بإبريق ماء. أهدرت ماءه على بلاط المدخل، واحد من طقوس القرية. إراقة ماء ضمان عودة مسافر عزيز، وإن كان مكروهاً ولا تريد عودته اقذف سبعة أحجار وراءه. هم والماء تحكمهم طقوس وثنية، فلا يكاد يمرّ شهر من دون

التضحية بغريق في النهر. وحتى يوم قريب واظبت أم مفجوعة بابنها الغريق على القرفصة في المياه الضحلة. رأسها مطأطأ، كأنها تصلي للنهر ليعيد لها ولدها. في الأمسيات تقصد النساء الشطآن للوفاء بنذورهن للنهر. تحمل كل واحدة صينية خشبية عليها شموع مشتعلة، فيزدان سطح النهر بموكب نوراني.

جلس في مقدمة السّيّارة كالعادة، وبينه وبين (الملطومة) الواقفة عند المدخل (اليقطينة المخرومة)، وسيعيب عليه لو أدار بصره نحوها، ليراها واقفة عند الباب، بيدها إبريق شطف وتردد قل أعوذ برب الفلق حتى بعد اختفاء السّيّارة عن أنظارها.

في العاصمة قضيا أول ليلة في ملحق بيت (القمرجي)، ابن (أم لسان الزفِر). باشر (اليقطينة المخرومة) تشييد بيت ابنه، حتى قبل تخرجه من الجامعة. تطلّ ساحته الخلفية على شاطئ النهر. لم يُكمل منه سوى المرآب وغرفتين فوقه ومرحاض. اقتصر أثاث الغرفتين على ثلاثة أسّرة معدنية نقالة. كان أحدها من نصيبه.

عاد (القمرجي) من الدراسة في الخارج بشهادة، ومن دون زوجة أجنبية، فرفع رأس (اليقطينة المخرومة) عالياً، أعلى من (المخبول) الذي نكَّس رأسه بتقاعده المبكر. شارك (الأثرم) في تظاهرة الاستقبال الصغيرة مع الأهل والأقارب، يتقدمهم (اليقطينة المزروفة). اجتذب فضوله ميزان الأمتعة الكبير، وتمنى امتلاك الجرأة ليقف فوقه ويقيس وزنه، لكنه خاف من زجر أبيه. ما أن أطل (القمرجي) برأسه من وراء عمود حتى علت أصوات الترحيب، وترنم أحدهم بهوسة، ثم تحلقوا وهزجوا ولوحوا بعباءاتهم تعبيراً عن فرحهم أو على الأحرى إرضاءً لأبيه، ولولا الخوف من الشرطة لأطلقوا الرصاص من مسدساتهم المخفية تحت ملابسهم.

اكتمل الاحتفال بوصول الابن حامل الشهادة بوليمة سمك، في مطعم على شاطئ النهر، غير بعيد عن المكان الذي تاه فيه قبل سنوات. لأول مرة تذوق سمكاً بحرياً. في ذلك اليوم انصب كل الاهتمام على رافع رأس أبيه. فأنقذه من مزاح الأقارب السمج، الذي عادة ما يصبونه على الأصغر سناً.

سهد (الأثرم)معظم ساعات ليلة ما قبل المدرسة الداخلية، يؤرقه الشوق إلى والدته وهواجس الحياة الجديدة في المدرسة الداخلية والفراش غير المعتاد. بعد التسجيل في المدرسة اصطحبه إلى متجر ضخم باسم أجنبي. سلمهم قائمة متطلبات المدرسة من الملابس وأغراض المنام. بين المدرسة والمتجر اتفاقية ومنافع متبادلة. وبعد دفع ثمنها عادا إلى المدرسة. استقبلهما مديرة المدرسة وابنتها الشابة. عاملا (اليقطينة المخرومة) باحترام، فهو والد ثلاثة من الطلاب وعم آخرين، وأخوه عضو في مجلس الأعيان، وله أخ ثاني في مجلس النواب. لكن ما ان انصرف حتى تحول اهتمامها إلى هيئته الشعثاء. تفحصته ابنة المديرة الشابة بعين غير راضية. تساءلت:

- من أين له هاتان العينان الواسعتان؟

لو سمعتها (الملطومة) لسارعت لتبخيره بالحرمل وترديد تعويذتها ضد الحسد: من عين أفرق، من عين أزرق، ومن عين ما صلت على محمد وآل محمد. أسنان الشابة منتظمة من دون فروق، لكن عيناها بلون البحر الصافي، وبالتأكيد لم تصلّ في حياتها على محمد وآل محمد لأنها مسيحية. أمسكت بأذنه وتأففت قائلة بأنها وسخة ومليئة بالشمع. لا لائمة على الشابة لوصفها، فقد كان أشبه بطفل متوحش. عاش في غابة بشرية. طال شعره وتلبّد، ودبغت الشمس جلده حتى ظنت أنه وسخ، ودلت ملابسه الفضفاضة على قرويته.

كانت سنة عصيبة. جاهد ليتأقلم، فكان كالغراب مقلداً العصفور، أو عشبة برية في حديقة زهور. تنمرّ عليه أولاد الحضريين، وتجاهلته البنات في الصفّ. درعه الانزواء والتخفي، بقلة الكلام وتجنب المجابهة، لكن في المدرسة الأهلية دلّ على أصله القروي منظره النشاز ولهجته الريفية وحياؤه المفرط.

مالك المدرسة معتكف في مكتبه، لا يخرج منه إلا نادراً، لكن صورته انطبعت في ذاكرته، لملامحه صورة شبه كاملة في مخيلته. كان قصيراً، وأصلعاً ونظارته سميكة ومتجهم، وهو الذكّر البالغ الوحيد في المدرسة. ترك لزوجته واختها إدارة المدرسة والروضة، واحتفظ لنفسه بمعاقبة التلاميذ. الحكم للزوجة والتنفيذ للزوج، والعقوبة

الجلد بالخيزرانة. معلمتان علق اسميهما في ذاكرته، كناهما فيما بعد بالسّفاحتين ريا وسكينة، مسيحية ويهودية. مسلحتان بخيزرانتين، يهشان بهما على الطلاب، فترتعد فرائصه وتتبخر المحفوظات من عقله.

في درس اللغة الإنجليزية انفضح جهله المطبق. سبقه زملاء صفه في دراسة اللغة بسنة أو أكثر. وقتها كان يجهل حتى حروف الهجاء. اجتهد ودرس ولحق بهم. عوقب مرة مع طلاب صفه في اختبار شهور السنة بالإنجليزية. خاف من المجاهرة بمعرفته لها حتى جاء قريبه في الصف السادس وسأله عن سبب جلوسه في صف المعاقبين بعد انتهاء الدوام فصارحه. طلب من ابنة المديرة اختباره فنجح وأفرجت عنه.

بعد انتهاء الدوام يغادر المحظوظون إلى بيوتهم. بعد أول وجبة في مطعم المبنى الداخلي اشتهى الخبز المحروق وثريدة عظم الخروف والغضاريف التي كانت (القهرمانة) تمنّ بها عليهم. عند رأس سفرة الطعام تجلس مراقبة، لتتأكد من تناولهم الوجبات وحسن السلوك، ومن يتكلم أو يضحك أو يترك بعض الطعام في صحنه يوبخ، وإن تمادى يرسل إلى مكتب المديرة، ولكل طالب مقعد محدد. في البدء صحن شوربة، وغالباً شعيرية مخففة. لا يطيق منظرها طالب يجلس أمامه. وجهه شاحب في العادة، وما أن يرى أعواد الشعيرية في صحن الشوربة حتى يزداد شحوباً، وتنتابه نوبة تهوع، فيجرونه إلى الحمام ليتقيأ طعام الوجبة السابقة. تجرع (الأثرم) الشوربة والشعيرية الت تراءت له مثل ديدان بطنه، وسرط كل ما وضعوه أمامه، مجبراً لا مختاراً، ومن دون مضغ أو استساغة، إلا الخبز، فلم تطاوعه البقية من أسنانه على لوكه، ولا أصابعه على تهشيمه. عافته نفوس زملاء السكن، حتى الحضريين، الذين تمرسوا على تناوله في بيوتهم. لو كان خبزاً بائتاً لأكلوه، أو متعفناً لتجرّعوه، لكنه متحجر، فلا يقدر عليه أثرم مثله أو حتى من أسنانه بقوة رّحى. احتاروا في التخلص منه. انتظروا انشغال المراقبة لدسه في الجيوب أو بين القمصان والأجساد، وبعد الخروج من المطعم هرع البعض لقذفه من شباك الطابق العلوي إلى الباحة الخلفية. استنكف (الأثرم) عن ذلك لأن للخبز قدسيّة خاصة، لدى

القرويين الجائعين وحتى المتخمين، فلو عثر أحدهم على كسرة خبز على الطريق لانحنى لالتقاطها ووضعها في مكان لا تدوسه الأقدام، والبعض يقبلها ويضعها على جبهته، لذلك اختار للخبز المتحجر مكاناً خفياً بين دولاب الملابس والجدار، ودعا مراراً ألا يكتشفوه.

بعد وجبة العشاء نصف ساعة لمشاهدة التلفزيون. برنامج للأطفال يقدمه رجل في منتصف العمر، يطلقون عليه اسم عمو ولا يتذكّر بقية الاسم، تتخلله أفلام رسوم متحركة قصيرة. في أحد أيام الأسبوع قضوا نصف ساعة إضافية لمشاهدة برنامج رقص البالية، تظهر فيه الابنة الصغيرة المدلّلة لمالكي المدرسة. تعجب من عائلتها التي تسمح لها بالرقص كاشفة عن ساقيها. بعد أكثر من عشرة سنين شاهدها في الجامعة في لبنان. أراد سؤالها إن كانت ما تزال ترقص الباليه، لكن الجرأة خذلته كالعادة ثم اختفت.

من قبل المدرسة لم تتح له فرصة مشاهدة السينما سوى مرتين. حلّت على بلدة (أم السرجين) السينما الحكومية الجوالة، ونُصبت أجهزتها أمام السراي الحكومي، وقف مع جمهور في الشارع وشاهد شريطاً دعائياً قصيراً. في المرة الثانية كانت في دار للسينما، شيدها قريب من بعيد، فكان هدفاً للتندر بين أقربائه. تذكّر مقطعاً من فيلم فلاش جوردن. سمع بأن أحد المشاهدين لنفس الفيلم أو غيره تحمس لمساعدة بطل الرواية بخنجره، فشقَّ الشاشة. في بعض الآحاد تتعطف المدرسة الأهلية على طلاب القسم الداخلي بمشاهدة فيلم سينمائي، في أرخص دور السينما في العاصمة، اهترأت مقاعدها، وانسلخ صباغ جدرانها ونتن هواءها. تعرض أفلاماً دينية عن المسيح والقديسين بعد ظهيرة الآحاد. بعد عقود صارت تعرض أفلام الإغراء. تسرح بهم مسؤولة القسم الداخلي، وفي إحدى المرّات أخرجتهم قبل انتهاء العرض من دون سبب. لعلها ضجرت من الفيلم المملّ أو أصابها إسهال مفاجئ.

طيلة الأشهر التي قضاها في المدرسة الداخلية يكابد الغربة والشوق للأهل لم يزره شقيقه الوحيد (أبو الجعل)، الطالب في مدرسة الرهبان غير البعيدة، ولم يتكلف عناء

نصف ساعة في الحافلة العمومية لرؤيته والاطمئنان على أحواله. لو فعل ذلك لما نسي له هذا الجميل حتى اليوم.

كره المدرسة الداخلية، وانتظر انتهاء العام الدراسي، حتى لا يرى أحداً من عائلة مالكيها ومعلماتها وحتى تلاميذها، ولم يستثني ابنة مالك المدرسة التي أخجلته بتشبيهه بصبي الغابة، واشمأزت من شمع إذنيه، وحسدت عينيه، ولكنه أعاد النظر في نفورها منها، بعد ليلة عاصفة. انهمر المطر، وعصفت الرياح، واظلمت الدنيا، واكتمل الجو الكئيب بانقطاع التيار الكهربائي. في (أم السرجين) ينتظر السكان ساعات وربما يوماً قبل حضور عامل الكهرباء، على متن دراجته الهوائية، متنكباً سلماً خشبياً، ليعيد وصل شريط الكهرباء المنقطع. ولا يغادر من دون إكرامية.

عند سماع أصوات أقدام تصعد الدرج توقف همس التلاميذ في الغرفة، وحبس أنفاسه بانتظار الزائر في الليل العاصف الدامس، وتمنى أن تكون المراقبة لا غول أو غيره من وحوش حكايات (الملطومة)، ثم تبين صوت ابنة مالك المدرسة. لها صوت مميز، يصدر من خشمها، كما يصفه القرويون. لو عاشت في زماننا لما تركت أنفها الأقنى من دون عملية تجميل. أجبره البرد على تغطية رأسه بالبطانية، ومن تحتها تابعت حواسه دخولها الغرفة، مشت إلى آخرها ثم عادت. سريره قبل الأخير، وجاره حضري في الصف السادس، يكبره بعامين على الأقل، ويبدو أكبر من عمره. خاطبته بصوت خافت:

- هل أنت خائف من الرعد؟

أو كلام بنفس المعنى. مثل كل القرويين المتفاخرين برجولتهم أنكر ذلك بصوت أخفت.

مدت يدها ورفعت البطانية واندست في السرير بجانبه، واحتضنتنه. كانت في أوائل العشرينات من عمرها وهو في التاسعة من عمري. لم يشعر بحنان ودفأ أم ولا بتهيج مراهق، فهي امرأة غريبة وهو ما زال طفلاً، لكن لدى جاره أفكاراً مختلفة.

ادنى برأسه من سريره وهمس باتجاهه:

- اِفعل بها!

استعمل كلمة أكثر صراحة من افعل. في نبرات صوته إلحاح لانتهاز الفرصة. لكن ماذا يفعل؟ كانت بالنسبة له في تلك الليلة المظلمة الموحشة بديلاً عن الأم الحنون. جاءت لتطرد الخوف من ولدها الصغير، وهذا الحضري البربري يريد منه الفعل بها. كلما استرجع وقائع تلك الليلة استعرض كل الاحتمالات. هل أخطأ في فهم دلالات سلوكها وأصاب جاره الخبيث؟ طرد تلك الشكوك وتشبث بفهمه الطفولي الفطريّ في حينه. كانت ابنة مالك المدرسة مخطوبة لشاب في عمرها، طويل القامة مثلها وبشرته بيضاء لا سمراء مثله، يرطن بالفرنسية، ومن وطنها الأصلي وملتها، ويمتلك سيّارة أمريكية فارهة، وكل ما لديه عينان واسعتان وأسنان خائسة وأذنان مليئتان بالشمع.

لم يفهما أحد، لا أبوها المسلح بخيزرانته ولا أمها الأمازونية أو خالتها العجوز ولا حتى خطيبها. بعد أشهر انتحرت.

عذاب في (أم السرجين)

فرح بالعطلة الصيفية أكثر من نجاحه، وإن نغصه التفكير بعودة محتمة إلى المدرسة الداخلية بعد شهور، ثم حدث ما قلب حياتهم رأساً على عقب، وكان أول ضحاياه. بعد انتهاء الدراسة أقام في منزل (القمرجي). استأجره لحين اكمال بيته، هدية (اليقطينة المخرومة) لابنه الذي رفع رأسه عالياً، مع سيّارة مرسيدس. كانت إقامة مؤقتة بانتظار (اليقطينة المخرومة) ليصحبه إلى (الملطومة) وبيت (أم السرجين)، وغاب (أبو الجعل). كان ضيفاً ثقيلاً على أخيه غير الشقيق، فهو ابن (أم لسان الزفِر) ولسبب آخر سيتبينه فيما بعد . أفاقوا يوماً على هرج ومرج في الشارع، فأرسل (القمرجي) مرافقه ليستجلي الوضع، ثم حضر ابن عم لهما، تعلو وجهه ابتسامة عريضة، وفي ياقة سترته قرنفلة بيضاء. أبدى بهجته بالانقلاب العسكري، ولم ينقص من فرحه توبيخ (القمرجي) وتوقعاته بنتائج سيئة على العائلة. عاد المرافق بوصف لمظاهر الشغب أمام وداخل السفارة البريطانية القريبة، ومشاهدته لأحد المارة حاملاً جهاز هاتف. أخبره بأنه لم يجد غيره في مبنى السفارة المنهوب، وبأنه سيبيعه لأنه لا يمتلك خطاً للهاتف.

حضر (اليقطينة المخرومة)، وعادا إلى (أم السرجين). كان متجهماً أكثر من عادته. استقبلته (الملطومة) وهي تردد: يا من أعاد يوسف ليعقوب. تفحصته بعين غير راضية، وندبت حظها لأن ابنها لا يسمن، مثل أبناء الشيوخ. صارحها برغبته بعدم العودة إلى المدرسة الداخلية، ولعلّه ذرف دمعات ليبرهن لها على تعاسته، فضربت صدرها عدة مرات أسفاً. هي الأخرى حزينة، واشتكت من قهر (القهرمانة) وغياب (أبي الجعل)، وكان غائباً عن الصورة في ذلك الصيف المصيري. بدا (اليقطينة المخرومة) مهموماً، وداوم على الجلوس بقرب المذياع، يستمع لنشرات الأخبار.

بعد أيام أفاقوا على مكبرات الصوت، تعلن حظراً للتجول في البلدة، وامتلأت طرقاتها بعربات عسكرية وجنود مسلحين. طوقت قوة قصر (اليقطينة المخرومة)، ومنعت الخروج والدخول. خرجوا لاستقبال آمر القوة، ودعاه (اليقطينة المخرومة) إلى غرفة الاستقبال. تذكّر المشهد وكأنه حدث البارحة. بادر الضابط بالقول بأن لديهم معلومات عن ترسانة كبيرة من الأسلحة لدى القبيلة، ولديهم أمر من القيادة في العاصمة بمصادرتها. ما رأى (اليقطينة المخرومة) متمسكناً من قبل. نكسّ رأسه وأقسم بحياة (الأثرم) بخلو بيتهم تماماً من السلاح. قبلها بوقت قصير انتابته نوبة ذعر حادة بسبب مسدسه الشخصي، واحتار أين يخفيه، فاستنجد بنسائه. كان متأكداً بأنهم سيأتون للتفتيش عن أسلحة، فالقبائل تتمرد، وترفع سلاحها في وجه القوات الحكومية، وأحياناً تقطع الطرق وسكّة الحديد، وأسقطت وزارات بهذه الطريقة في العهد المدني، وبتجريدها من سلاحها سيختفي تهديدها للحكومة العسكرية. خاف من عثور الجند على مسدسه الشخصي، وتسلط ذعره على عقله فتبخر منطقه، فمهما بلغ الضابط من الحماقة والعجرفة فلن يقبض عليه لمجرد اقتناء مسدس، ولا يكاد يخلو بيت من قطعة سلاح. أنجدته (القهرمانة) من حيرته. تناولت السلاح وطمأنته بأنها ستخفيه في مكان خفي على بدنها لن يصلوا إليه. تألم (الأثرم) لقسمه بحياتي زوراً، وتيقن يومها أن حياته رخيصة بالنسبة له.

انقضى ذلك النهار وانسحبت القوة العسكرية من دون العثور على أسلحة، وتبين بعد حين سبب الإغارة، فبعد نجاح الانقلاب أرسل أحد أقاربهم من بعيد برقية باسم القبيلة، يضع تحت إمرتها خمسة عشر ألف مقاتل مسلح. في وقتها لم يتجاوز تعداد الجيش ثلاثة أضعاف هذا العدد، وللتخلص من تهديد القبيلة المفترض للانقلاب أمر قادته بمصادرة سلاح جيشنا الصغير. لعن أفراد القبيلة القريب، وسخروا من محاولته الحمقاء للتودد للحكومة العسكرية، وسارعوا لإخفاء بنادق البرنو ومسدسات الوبلي في مخابئ جديدة.

جاء الفرج، أو هكذا ظنّ في البدء، وفرحت (الملطومة). لا عودة للمدرسة الداخلية، فليس بعيداً منها قُتل الملك وسُحلت جثة خاله، فالعاصمة لم تعد مكاناً آمناً لطفل في عمره، وسيبقى (أبو الجعل) لعدم وجود مدرسة ثانوية في (أم السرجين).

في (أم السرجين) انقلاب آخر، أفقد (اليقطينة المخرومة) وأخوته مكانتهم، فتحولوا من شيوخ مهابين إلى إقطاعيين مكروهين ومنبوذين. خنسوا في بيوتهم، وانقطعت الزيارات بينهم، وقاطعهم فلاحيهم، وحرموا من قضاء الأمسيات في مقهى الشط، وأدمنوا سماع نشرات الأخبار، بانتظار بيان أول جديد، يبشرهم بانقلاب مضاد.

في السوق بائع متجول ينادي على الشيوخ: "راحت أيامكم"، وأمام بيت (اليقطينة المزروفة) حشد من الشيوعيين وأنصارهم وكارهي الشيوخ يهتفون بسقوط الإقطاعية ويلوحون بحبال السحل. راقبهم (الأثرم) من خلف ستارة، وخطر بباله احتمال رهيب، لو ازداد هيجانهم واقتحموا بيتهم وسحلوهم، ولم تكن تلك أسوء أيام ذلك الصيف وما بعده.

بدأت الدراسة، في نفس المدرسة التي غاب عنها عاماً واحداً، نفس المبنى المتهالك، والساحة الترابية والمعلمين العابسين ووجوه التلاميذ المصفرّة بسوء التغذية وديدان الأمعاء، لكن المشاعر تغيرت، من الودّ الظاهري أو حتى التجاهل إلى الكره والعداء، وكان هو المستهدف بها. أسابيع قليلة انقضت بين الانقلاب وبدء الدراسة كانت كافية لتغيير النفوس أو لظهور ما خفي فيها. من قبل لعب مع أولاد جيرانه الفقراء، ولم يتكبر عليهم أو يسيء معاملتهم، وحسد أولاد قريب والدته على أبيهم الدمث الحاني، وكل تلك الحسنات لم تشفع له عند معلمي وتلاميذ مدرسته. تحمل التجهم في وجهه والسباب وراء ظهره، ولكن دفعة تلقاها في ظهره أفقدته الصواب، فهجم على المعتدي، وصارعه حتى حال زملاءه بينهما. في غابة (أم السرجين) لا ينفع اللاعنف في مجابهة العدوان. خفّت مضايقات الزملاء وحل محلها اضطهاد معلم.

ضاعف برد الشتاء القارس عذاب الاصطفاف اليومي. صباح كل يوم وقبل الدروس اصطفوا أمام غرف الدراسة، لتحية العلم، والخضوع للتفتيش. يمر معلم حاملاً مسطرتين خشبيتين، أطبق الواحدة على الأخرى، فواحدة لا تكفي للإيلام. يمدّ التلاميذ أيديهم، وباليمنى منديل، ومن لا يحمل منديلاً نظيفاً أو أظافره طويلة يهوي على ظهر يده بالمسطرتين. في ذلك اليوم كان كعادته مستعداً بمنديل أبيض نظيف وأظافر مقصوصة، ولكن المعلم الشيوعي لم يكترث لذلك. وضع حبل السحل الغليظ في عنقه وأمسك بنهايته الأخرى، ثم التفت إلى التلاميذ المرتجفين من البرد والخوف قائلاً:

- هذا هو مصير الإقطاعيين!

لم يسحله المعلم الشيوعي، لكنه اختاره هدفاً لانتقامه البروليتاري.

حزنت (الملطومة)، ولعنت المعلم، وأخبرت (اليقطينة المخرومة)، وبعد توسلات متكررة قرر ارسال (بمقدساتي) لمقابلة مدير المدرسة. تذكّر المدير، وبشرته الصهباء. كان ساخطاً على الدوام، ربما لأنه مستاء من عمله في (أم السرجين) بدلاً من مدينته في أقصى الشمال، حيث لا يشعر بأنه نشاز مثل ثمرة جزر وسط صندوق باذنجان. لا يتصور (بمقدساتي) متحمساً للدفاع عنه، بل يشك في تنفيذه مشيئة أبيه، فلم تتغير معاملة المدير أو المعلم الشيوعي، وحتى في مدرسته البدائية تهاوى هرم السلطة، فحلّ الشيوعي محل المدير، فكان الآمر الناهي.

لم يكتف المعلم صاحب حبل السحل بالمدرسة، وتوسعت شهوته للسلطة إلى المدينة كلها. انتهز حملة معونة الشتاء ليسيطر على (أم السرجين). ترأس الحملة من دون معارضة، واحتل جناحاً في مبنى الإدارة الحكومية، ونصب فيه مكبراً للصوت، وألّف تمثيلية بهذه المناسبة، وفرض على (الأثرم) دور ابن فقير عمداً، وشاركته في التمثيل طالبة من مدرسة البنات. وبصوت مرتجف قرأ من ورقة، وكانت أجرأ منه في أداء دورها. في ختام التمثيلية وجه المعلم الدكتاتور بلاغاً لشيوخ وأثرياء بلدتنا. سمّى كل واحد منهم وكمية الأرز أو غيرها الواجب التبرع بها، وكان (اليقطينة المخرومة) ضمن القائمة،

وجبايته أربعون كيساً من الأرز الفاخر. قبل الانقلاب أرسلوا أطناناً منه للقصر الملكي كل عام، ولم يتخلف أحد منهم عن تلبية أوامر المعلم الديكتاتور.

من عاشر قوماً أربعين يوماً صار منهم، وفي ذلك العام أتمّ (الأثرم) مئة ضعف تلك المدة فلم يصر منهم. فاجئه يوماً صبي من المدرسة، وعرض عليه لّواطاً بالتناوب، غضب ورماه بحجر، أخطأه فهرب اللواطي. يبدأون ضحايا، ثم بين بين، ويتخرجون من مجتمعهم المريض فحولاً، لكنهم يبقون لواطيين.

حصّن نفسه ضد أسوء رذائلهم ونقائصهم، إلا الخوف والرهبة والتهيب، وظلّ الطفل المرتاع كامناً داخله حتى اليوم. طارده الخوف حتى خارج (أم السرجين)، وفي المرّات القليلة التي سافر بالسّيّارة حمل هوية مدرسية بغلاف أبيض من النايلون، لإبرازها لنقاط تفتيش الحزبيين، الكامنة عند مفترق الطرق. توزعوا بينهم ألوان أغلفة الهويات، أحمر للشيوعيين وأخضر للقوميين وأبيض للمستقلين، وحتى الأطفال في عمره مطالبون ببيان انتماءاتهم.

من قبل الانقلاب بنوا مقبرة للعائلة في البلدة المقدسة، سرداب للدفن يعلوه طابق لغرف النوم. ينام الأحياء فوق ويرقد الموتى تحتهم. قضى فيها بضع ليال، من قبل وبعد دفن أحد الأقارب. وبينما غطّ الجميع في النوم سهد معظم ساعات الليل متخيلاً خروج أرواح الموتى من القبور وتسلقها الدرج إلى غرفة النوم. في مكان غير بعيد من المقبرة تراءى له من نافذة السّيّارة المسرعة جثة رجل متدلية من حبل مشنقة، ولما اقترب تبين بأنها دمية، نصبها شيوعيون، غير مبالين بقدسية البلدة، لكن رعب النظر ظل ماثلاً في مخيلته، ومسيطراً على عقله، حتى بعد اغتساله بطاسة الخلاص أو الرعب، وبإصرار من (الملطومة).

بعد أكثر من أربعين عاماً التقى بأحد الأقرباء. كان طالباً معه في المدرسة الابتدائية، ولم يكمل دراسته. ذكرّه (الأثرم) بالمعلم الشيوعي، فأخبره بأنه كان أحد معلمي صفه. دخل عليهم يوماً وطلب من زميلهم (الدبي)، وكل مربي الجواميس يطلقون عليهم هذه

التسمية. كان (الدبي) مائلاً إلى السمنة. أكمل قريبه: صرخ بنا المعلم اغمضوا أعينكم! ثم بمرأى منا ومن المارّين بجانب النافذة المطلة على الساحة اغتصب الطفل، وظل المشهد عالقاً بذاكرة قريبي.

الهروب إلى العاصمة

لم ينجده أحد، لا أهله ولا القبيلة ولا الزعيم الأوحد. أرعب حماة الدين منظر الدمية المشنوقة في أطراف بلدتهم وغيرها من رسائل التهديد، وخرجوا أخيراً بفتوى، لكنها جاءت متأخرة بالنسبة له. سارعت (الملطومة) لشراء عدة صور لرجال دين، وعلقتها على جدار غرفتهما. كان ذلك أقصى ردها على المعلم الشيوعي الذي قلده حبل السحل، وأوصته بتقبيل الصور كل يوم للتبرك، فاستجاب لها من دون اقتناع.

انتهت السنة الدراسية، ليبدأ فصل جديد في حياتهم.

راحلون إلى العاصمة، أو بالأحرى هاربون، وعلى رأسهم (اليقطينة المخرومة). يأس من انقلاب يعيد الملكية، واستاء من عداء أفراد قبيلته، وتخوف من حبال سحل الشيوعيين، ولم يثنيه عن قراره فتوى تكفير الشيوعيين، لكنها أغضبت قريب له ورفاقه فكمنوا للمتدينين على طريق البلدة المقدسة، وأطلقوا الرصاص على مواكبهم، ثم هرب إلى العاصمة. سكن مع رفيق له، وتشاجرا يوماً فطعن الرفيق قريب عائلته فقتله. كان والد القتيل اكثر رجال العائلة تديناً، أو هكذا وصفوه. أطلق لحيته ومسبحة الصلاة لا تفارق يده. استأجر قاتلاً محترفاً، فهم كما المتحضرين لديهم قتلة بالأجرة، وكلفه بأخذ الثأر، وبما أن القاتل هارب أو سجين، اقتصّ القاتل من أخيه، بأمر والد المغدور. أخ القاتل بائع متجول، بضاعته كبدة وقلوب مشوية على منقل فحم. فقير يبيع للفقراء فضلات ذبائح الأثرياء. يومها وقف أمام عربته الصغيرة ينادي على مأكولاته، بالقرب من موقف حافلات النقل العمومي عند رأس جسر. أطلق القاتل المحترف عليه رصاصة أردته قتيلاً، ثم أسرع لركوب حافلة ركاب، ولم يدر أنها ستدور في الساحة لتمرّ من أمام مسرح الجريمة. رآه شاهد فصاح بمن حوله: ذاك هو القاتل، فقبضوا عليه وأودعوه السجن، وحكم عليه بالسجن المؤبد.

من قبل فرّ (اليقطينة المخرومة) من (أم لسان الزِفِر) وذريتها من (أم الجواميس) إلى (أم السرجين)، فكان الهروب إلى العاصمة الثاني في تاريخ عائلتهم البائسة. استأجر (اليقطينة المخرومة) منزلاً متواضعاً، مقابل موقع بيت ولده المدلّل (القمرجي)، وكان ينوي السكن معه بعد الانتهاء من تشييده. بعد أيام عادوا إلى (أم السرجين)، (اليقطينة المزروفة) و(الأثرم) و(الملطومة)، لتجلب (الملطومة) بقية ملابسها وسجادة صغيرة.

بعد هروبهم إلى العاصمة احتلت (أم لسان الزِفِر) وبناتها البيت بإذن من (اليقطينة المخرومة)، مجبراً لا مختاراً، واستقبلتهم بأزفر ما في عقلها ونطق به لسانها من قارص الكلام، وشاركت بناتها في جوقة نشاز، ثم اقتحم بهو المنزل ابنها السكير (العرقجي)، ووقف قرب الباب، ليصب على (الملطومة) سباباً وشتائم، كان من قبل الانقلاب يوزعها على فلاحي أبيه، وهددها بضربها بالنعل. كانا (الملطومة) وهو جالسين على سجادة الغرفة، محاطين بألد أعدائهما، ولم ترد (الملطومة) على الشتائم والسباب بحرف، ولا حتى بالله يسامحكم، فتشجعت أصغر بنات (أم لسان الزِفِر). قامت من مكانها ودنت بخطوات سريعة نحو (الملطومة)، وانهالت على رأسها بالصفع واللكمات، و(الملطومة) كأصنام إبراهيم جامدة لا تتقي ضرباتها. صبر (الأثرم) على الشتائم لكن بعد أول ضربة على رأس والدته استرجعت نفسه شجاعة سلبتها (الملطومة) و(اليقطينة المخرومة) وكل قومه، وعاد ذلك الطفل الواقف أمام غرفة والدته التي لا ترى الشمس الشاتم لـ(أم لسان الزِفِر) وابنتها الكبرى شليلة (المهسترة) والداعي على خالهم (أبي عيون الزرق) بالموت. نهض من مكانه وهجم على ابنة (أم لسان الزِفِر)، وضربها بكلتي اليدين، على رأسها ووجهها وجسمها، كانت أكبر منه بثمان سنين. شدّها من شعرها بقوة – فيما بعد داومت على تلوينه بصبغة شقراء، ولم يتركه حتى استل خصلة منه في يده، ثم سحب من عنقها قلادة صغيرة ورماها أرضاً فانكسرت. حاولت التملص منه بدون جدوى. في الخلف ارتفع صوت (أم لسان الزِفِر) تدعو (الملطومة) لتنهاه عن ضرب ابنتها، ولا بد أن هياجه غير المعتاد أخاف (المهسترة) شليلة والأخت الوسطى فاكتفين بالتفرج. أخيراً تملصت ابنة (أم

لسان الزفر)، وفرّت إلى غرفة جانبية، وأقفلت وراءها الباب. أثناء هذا الفصل الدرامي النادر في حياته كان (اليقطينة المخرومة) جالساً غير بعيد في غرفة الاستقبال. سمع بوضوح صراخ زوجته (أم لسان الزفِر) وسباب ولده (العرقجي) وحتى صدى لطمات ابنته على رأس (الملطومة) لكنه لم يحرك ساكناً، ولا هبَّ لمساعدتها، لأنه كما عرفه جباناً رعديداً، يتظاهر بالشجاعة، مثل معظم قومه.

غادرا البيت الذي سكنوه خمس سنين، ولم تضع (الملطومة) قدمها فيه بعد ذلك، لكن (الأثرم) تردد عليه ونام فيه بعض الليالي للضرورة. وجدت (الملطومة) القفل على صندوقها مكسوراً والصندوق خالياً من ملابسها المهلهلة ومقتنياتها القليلة وسجادتها مصادرة، فعادت فارغة اليدين مع مزيد من الذكريات الحزينة.

حضر (اليقطينة المخرومة) من دون غيرة أو حمية، أما (أبو الجعل) فغاب كعادته.

العاصمة قرية كبيرة، والناس هم أنفسهم، وان اختلفت السحنات والألبسة والمظاهر. التحق (الأثرم) بالصف السادس في المدرسة الابتدائية، لا تبعد كثيراً عن بيتهم المستأجر، وفضلّ (اليقطينة المخرومة) بقاء (أبي الجعل) في مدرسة الرهبان الداخلية.

من يرى (أبا الجعل) و(الأثرم) لا يصدق بأنهما شقيقان. لا شبه بينهما على الإطلاق، لا في الشكل ولا الطبائع. (أبو الجعل) أبيض البشرة مثل (الملطومة) و(الأثرم) أسمر مثل فلاحيهم، شعره فاتح وأشقر عند أطرافه، وشعر (الأثرم) فاحم أسود، ووجهه مستدير مثل قرص الخبز كما يشبهه القرويون، ووجه (الأثرم) مستطيل، وطباعهما متناقضة. مقابل هدوء (الأثرم) كان سريع الغضب، لكن صفة واحدة جمعت بينهما وهي الجبن.

اكتمل بناء بيت (القمرجي)، وكانت حصة (الملطومة) و(الأثرم) أصغر غرف البيت. أثاثها الوحيد خزانة ملابس وسجادة مهترئة وفرش النوم المنضودة في جانب منها. في الصيف اعتادت (الملطومة) رش الغرفة برذاذ البنزين الأبيض، سلاحها ضد البعوض والحشرات الطائرة، فلا تنفع الشكوى والتذمّر من ضيق التنفس. على الأرض ترسم خطاً أبيضاً حولهما، ليس تعويذة سحرية، بل دواء النمل كما تسميه، وعلى علبته رسم

لجمجمة وتحذير من تناوله. تهيج الروائح الغريبة حساسية (الأثرم)، وتشتد كلما فاحت رائحة الحنّة من شعرها، وتشمئز نفسه من ذرات الصبغة المنثورة على مخدته. شاركتهما الغرفة القميئة سحلية متوسطة الحجم. عشعشت تحت صورة معلقة على الحائط، ونهته (الملطومة) عن ايذائها لأنها تقتات على الحشرات. في دولابها صرّة ملابس مطرزة، تلف بها النسوة ملابسهن، اشترتها من إيران، وحفنة من حلوى التوفي الأصلي، تطعمه واحدة كل حين، وعلبة معدنية تخزّن فيها نقوداً ورقية ومعدنية لا تكفي لشراء قطعة قماش. كلما نفحها (اليقطينة المخرومة) درهمين مصروفاً لزيارتها الشهرية للمراقد الدينية تدّخر درهماً وتصرف الثاني لشراء الكعك وإكرامية لبواب المرقد المسؤول عن حفظ الأحذية والنعال.

نفس (الملطومة) مثقلة بالحزن، فلا يكاد ينجلي جانب منها، حتى يحلّ محله سبب آخر للحزن. ارتاحت قليلاً لخلو بيت (القمرجي) من ضرّاتها، ومن عدم اكتراثه لها، لكنها بالمقابل افتقدت والدتها (الحبوبة) وشقيقها وعائلته، ثم حضرت شقيقتا (القمرجي)، وهما ترددان: بيت شقيقنا ومن حقنا السكن فيه. تزوجت شليلة من ابن عمها، وما أنجبا، وهو كما جميع أشقائه عقيم، لكنه يمعن في إذلالها بترديده: ربما كان الأفضل أن أتزوج بفرخ (صبي مخنث) بدلاً منها. لم تنس الأخت الأصغر صفعات (الأثرم)، واشتكت بعين كسيرة من اتلافه سلسلتها الذهبية.

في العام التالي انتقل إلى مدرسة الرهبان الثانوية، بعد اجتياز امتحان القبول، وضعوه في ثامن شعبة، بعد خمس سنوات ستبقى شعبتان فقط، وتخرج منها. الرهبان يسوعيون أمريكان، وفي وقتها لم يعجبه في أمريكا سوى مجلات الرسوم والأفلام المتحركة.

حفظ طقوس اليسوعيين، من كثر ما رددوها، فقبل كل درس فرضوا على الجميع الوقوف ليرسم المسيحيون علامة الصليب، ويرتلوا صلاة أبانا في السموات. ما حركت فضوله عقيدتهم. خمس سنوات قضاها في مدرسة الرهبان لم يكتسب فيها صديقاً واحداً. معظم طلابها حضريون، يحتقرون المعيدي الشرقاوي مثله، وتبدأ سخريتهم بالتندر على

لهجته، وكثير منهم من أصول غير عربية، وتحاشى مجادلتهم لئلا تفضي إلى عراك، لأن لكمة واحدة كافية لكسر أسنانه العيرة وكشف ثرمته، فتتضاعف سخريتهم، تبرير أرضى به نفسه الجبانة بالتنشئة. تذكّر أحدهم، اسمه خلوق أو مرادفاً لذلك، وما كان خلوقاً بالتأكيد. سماه الجاحظ لكبر عينيه وما كانتا جاحظتين، فسكت على الكنية لأنه قرأ وأعجب بمؤلفات الجاحظ، وساء غير الخلوق خط شاربه قبله، فشبهه بأرجل أم أربع وأربعين أو حشرة أخرى. عندما قرأ المدرس في الصف مقامة للهمداني حول السوادي الريفي سخر هو وغيره منه، وتساءلوا بغباء عن سبب عدم سواد بشرته؟ وعندما كلّفهم مدرس اللغة العربية بإعداد ملخص لإحدى المقامات أعد مجموعة منها، فتوسل الكسالى ليعطيهم منها، فلم يبخل عليهم، وقدم ورقة عن حياة الهمداني ومؤلفاته ووفاته المأساوية.

كاد أن يكون صديقه الوحيد في مدرسة الرهبان. لجأت عائلته بعد ضياع فلسطين، وصارا يقضيان ساعات الاستراحة والطعام سوية، حتى صارحه يوماً بأنه كوى عضده، وشمرّ عن قميصه ليكشف عن آثار حرق بشكل صليب بارز ومشوه على أعلى يده، ولا بد أنه شاهد نظرة الاشمئزاز من منظر اللحم المحروق، فأمسكه من كتفه وجذبه ناحيته طالباً منه تقبيل الصليب فقاومه حتى توقف. تعجب من حماسه لشعار دينه ومحاولته فرضه عليه وهو اللاجئ المستجير.

فضّل موضوعين على غيرهما: اللغة العربية والرياضيات، وكان مبرزاً في الإنشاء، وعادة ما حصل على أعلى درجة حتى جاء يوم حلّ فيه بالمرتبة الثانية، وتقدم عليه طالب لم يسبق له التفوق في اللغة. طلب المدرس من الطالب قراءة نصه الإنشائي، وبعد أول جملتين تأكد (الأثرم) بأنه منقول من كتاب لجبران خليل جبران. اجترّ خيبة الأمل بصمت خوفاً من غضب الأستاذ الجاهل بمؤلفات جبران ونقمة الطلاب لو فضح الطالب. في موضوع الرياضيات سأم الطريقة المعتادة في حل المسائل، فلا جهد أو ابداع في مجرد اتباع الخطوات المبينة في الكتاب، وصار يبحث عن طرق جديدة، وتردد طويلاً قبل اقدامه على

ذلك أول مرة، وفي اليوم التالي حضر المدرس الراهب وقبل أن يبدأ بتوزيع الواجبات المصححة نادى عليه، وتوقع توبيخاً ، لأنه خرج على الأعراف، فهو مثل بقية قومه قبليّ ملتزم بالأعراف، ويدرك جيداً فداحة مخالفتها. اِلتفت الأستاذ إلى بقية الطلاب وأخبرهم بأن (الأثرم) حلّ المسائل بطرق مختلفة مثنياً عليه. بعدها بسنتين أو ثلاث كرر التجربة مع أستاذ محلي، فخطأه وأعطاه صفراً. أستاذ التاريخ هو الآخر من المحليين، لا أهمية عنده لو كانت إجاباتك على أسئلة الامتحانات صائبة تماماً أو حتى ترهات، لأنه لا يصحح بل يشبّر الإجابة، أي يقيسها بالشبر أو عدد صفحاتها، وكلما كثرت الصفحات ارتفعت العلامة. جاؤوا لهم بمدرس، أصله من مدينة شمالية، وينطق بلهجتها المميزة، وكلفوه بأكثر الشعب شغباً، طُرد معظم طلابها آخر السنة إلا اثنين و(الأثرم)، وكلما أعيته السيطرة على الطلاب استدعى المدير الراهب، فيطبق الصمت على الصف لمجرد رؤيته، ووحده هو المؤدب في الصف يؤذيه تقريعه. على النقيض كان مدرس الفيزياء المصري سمحاً وهادئاً، وقبل نهاية الدرس يطول صمته ويهمد جسده وتغمض عيناه فينام جالساً، وعندما يوقظه جرس الانصراف يصحو ويلوم مرض السّكري. حيّره اختيار الرهبان لذلك المدرس البذيء الفاحش، لا يستنكف من الحديث عن زوجته وشؤون عائلته. بعد سنين شاهده صدفة في الجامعة تائهاً فتجاهله.

أغاظ (الأثرم) مدرس أمريكي من غير الرهبان، لا يحسن التدريس وإدارة الصف، فصار أضحوكة للطلاب، ولأنه المؤدب الصامت اتهمه بأنه رئيس المشاغبين، فاحتار في الدفاع عن نفسه. انتقم منه بعد أيام. طارده في ساحة المدرسة الخلفية، ولم يكن بنيته إيذاءه لكن الأمريكي الأحمق ظن به السوء فخاف وهرول مبتعداً.

ليس كل المدرسين الرهبان فضلاء، هكذا أشاع الطلاب، ففي سكنهم راهب لا يخرج أبداً من غرفته، لأنه سكير مدمن على الكحول، ومدرس الصف الأول الأيرلندي الأصل يحتك بالطلاب، بعذر تعليمهم الإمساك بمضرب الكرات. يلصق جسمه بمؤخراتهم فيتهامس الطلاب ويبتسمون بخبث، وبعد مراقبته مرّات مال (الأثرم) لتصديق ما تناقلته

ألسنة الطلاب. فك أمين المكتبة معوج، فلا بد أن يكون في تخيلهم ملاكماً، ثم اعتزل وترهبن بعد تسببه بموت ملاكم، ولم يصدقهم (الأثرم) لأنه عامله بلطف، وتجاهل تحلق الطلاب حول رفّ مجلة الجغرافيا الطبيعية، وكانوا يتظاهرون بقراءتها فيما تسمرت أعينهم على صور الأجسام العارية لنساء قبائل بدائية. لاحظ زياراته المتكررة للمكتبة، لاستعارة كتب التاريخ والأدب العالمي الرصين، فأذن له بالدخول إلى مخزن الكتب، ليختار ما يشاء منها، خلافاً لتعاليم المكتبة التي تسمح للمدرسين فقط بذلك. فاجأه يوماً بطلب استعارة رواية لهيتشكوك، فبان الامتعاض على وجه الراهب، وانزاح فكه الأعوج جانباً، وبنبرة تأنيب تعجب من طلبه لأنه في العادة يستعير أدباً أرقى، فخجل ولم يرد، ثم أردف الراهب مبتسماً: على أي حال فالكتاب مستعار من قبل أحد الرهبان.

نُزل لا مسكن

لم تكن غرفتهما في (أم الجواميس) مسكناً، إذ خلت من السكينة والطمأنينة والراحة، وكذلك البيتان في (أم السرجين)، وكان الرابع والخامس والسادس من مثاويهما في العاصمة صاخبة أيضاً. كانا أشبه بدو رحل، طوردا من مثوى لمثوى، ويردد (الأثرم): لولا هروبي لأقصى الأرض لكنت منذ زمن قتيلاً في مثواي الأخير.

اكتظ بيت (القمرجي) بسكانه. حضرت شقيقتاه، وتبعتهم (القهرمانة)، ثم (السلبوح) ابن الزوجة المطرودة من حظوة (اليقطينة المخرومة)، ووظفوا خادمة سوداء ومعها ابنها الصغير، وفي أعلى المرآب سكن السائق وزوجته. تذمّر (القمرجي) من ازدحام بيته، وطلب من أبيه تشييد منزل جديد في حي بعيد، فرضخ الوالد لابنه المدلّل الذي رفع رأسه. اشترى أرضاً واسعة في الحي المختار وبدأ ببناء المنزل. أراد (القمرجي) بيتاً خاصاً به لسبب ثان، اكتشفه (الأثرم) في عصيرة خميس، خلا البيت من ساكنيه، الكبار في زيارة مرقد، و(السلبوح) و(أبو الجعل) يتنزهان، والبقية في مكان ما، وبقي هو وحده عندما حضر (القمرجي) في سيّارة المرسيدس ومعه عشيقته. صورتها في ذاكرته امرأة في منتصف العشرينات من عمرها، متوسطة الجمال، جريئة في قاموس قومها، ووقحة في ناموسنا القبلي، و(بربوق) في نظر امهاتنا. تعرّف عليها (القمرجي) بعد عودته من الخارج وسكناه بالأجرة بالقرب من السفارة البريطانية، وكان اعجاباً متبادلاً بينه وبين جارته المسيحية المقيمة مع عائلتها. لا يتذكّر ما حدث بينهما، ولا يظن أنه اصطحبها إلى غرفته بالطابق العلوي، لكنها لاطفته فلم ينساها.

لم تكن العشيقة وحدها متيمة بـ (القمرجي). جارتهم في البيت المقابل من الجنوب مثلهم، ووالدها ميسور الحال، عمل لدى تاجر يهودي، وقبل هجرته إلى فلسطين السليبة باعه التاجر دكانه بثمن زهيد، فأثرى وتزوج من ثانية وأسكنها بيتاً لوحدها. جارتهم طويلة وجمالها متواضع وتعليمها أكثر تواضعاً، لكن إرادتها قوية. صممت على الزواج من

(القمرجي). أعجبها بياض بشرته المتوارث من أمه (أم لسان الزِفِر)، وشعره الناعم المدهون بالبريل كريم، ولعلها رأت عشيقته فغارت. صارحت الجارة المتيّمة زوجة السائق، أو لعل الزوجة لاحظت كثرة أسئلتها حول (القمرجي). وعدتها الزوجة بمساعدتها بالسّحر، وأقنعتها بمقابلة ساحر مجرّب، وحاذق في جلب الحبيب. كان السّاحر بانتظارها في غرفة السائق وزوجته أعلى المرآب، وسلمته أجرته، رزمة من الدنانير، تكفي لمعيشة عائلة متوسطة شهراً كاملاً. هان المبلغ أمام طلب آخر للسّاحر، فلن يفلح السّحر إلا إذا أمسكت بيدها قضيبه. صعقت الجارة وسارعت للرفض، فتدخلت زوجة السائق، شريكة السّاحر هي وزوجها بدون ريب، وبعد أخذ ورد بينها وبين السّاحر اقتنعت بحل وسط، تمسك قضيبه ولكن بيدها الملفوفة بعباءتها. غنم الساحر وشريكاه النقود وأكثر، وبعد حين قطعت جارتنا الأمل من الزواج من (القمرجي). زارتهم بعد سنوات، وكانت متزوجة وأم لطفلة صغيرة.

آمنت (الملطومة) بقوة السّحر، وخافت منه على نفسها وبزرها. اقتنت كل وسائل الحماية من أحراز وتعاويذ وبخور وحرمل، وتعاويذها المبطلة للسّحر، وان استدعت الحاجة استعانت بالبوّل، ورجله تشهد على حرارته، ولم ينقصها سوى خرزات سّحرية، مثل بقية نساء الشيوخ. أشاعوا بأن لدى زوجة أحد الأعمام خرزات تسبح في الماء، ليس ماء النهر لئلا تضيع. وضعوها في طست مليء بالماء فسبحت من جانب إلى اخر، وثلة من نساء البلدة يقسمن على ذلك. لم يجد سكان (أم السرجين) تفسيراً للثراء السريع لتاجر سوى السّحر، فآمنوا بأن لديه خرزة يضعها في جيبه، فلا يرد له طلب. لا بد أن مفعول الخرزة لا يشمل الوقاية من الحوادث. ترهّل بعد الثراء فلم يسعه مقعد سيارته، صار يضع يده على حافة النافذة، فلما انقلبت سيارته بترت يده. شمت سكان بلدته بعاهته قائلين بأنه عقاب سماوي على أخذه الربا.

روع (الملطومة) خبر نقلته خادمة. ادعت أنها شاهدت امرأة سوداء تدفن صرّة أمام البيت، فاستنفرت كل القوى المضادة للسّحر، وألبسته حرزاً على ساعده، غير مكترثة لاعتراضاته، وترجت الخادمة لتنبش السّحر، فلم تجده.

يصحبها لزيارة المراقد القريبة في العاصمة. يكتري عربة ربل بطيئة، وكانت قد ترهّلت وصعبت حركتها، فلا تقدر على ركوب الحافلة العمومية، ونقودهما لا تكفي لأجرة سيّارة. تضطرهما عربات البائعين على الأرصفة إلى السير في طريق السيارات، فيحرص على أن تكون بجانب الرصيف لئلا تدهسها سيّارة. ظلت تذكّر له ذلك لسنين، دليل محبته واستعداده لفدائها بنفسه. أثناء إحدى الزيارات ترجته الدخول معها إلى مكان النساء في المسجد، فتمنع لكنها ألحت فتبعها على مضض حتى وقفا أمام امرأة تصدرت المجلس وحولها حلقة من النساء. سلمت (الملطومة) واستعطفتها قراءة طالعه، ولو عرف غرضها لما طاوعها. فتحت العرّافة كتاباً ضخماً أمامها، ومن دون سؤال عن تاريخ مولده أو اسم والدته كما جرت العادة نظرت إليه بحدة، ثم نطقت بجرأة مشعوذين: سيكون شاعراً مشهوراً، فكذّبها.

كان (القمرجي) المثل الأعلى في عائلتهم. أحبه وقلّده (السلبوح) و(أبو الجعل). تمنى (السلبوح) لو ينجح مثله، ويرفع رأس (اليقطينة المخرومة)، فيشيد له بيتاً على الطراز الكاليفورني الرائج وقتها، ويشتري له سيّارة مرسيدس، فتغرم به الفتيات، وتكون له عشيقة من حارة مريم مثل عشيقة (القمرجي) ومرافق مطيع، لكن نتائج امتحاناته عاكست أحلامه، فلا أمل قريب بالبيت الفاره والسّيّارة الثمينة لكنه منّى نفسه بعشيقة، واختار أخت زوجة صديق (القمرجي). تذكّره جالساً في غرفة الضيوف، بالقرب من مذياع ضخم، يستمع لأغنية عاطفية لفريد الأطرش، مردداً كلمات الأغنية الرديئة، وقد بدت على وجهه الضامر علامات الانفعال، ولا يظنه تجرأ على مصارحتها بغرامه، فكانت النتيجة فشل أخر.

لا تجد (الملطومة) غير (الأثرم) لتبوح له بأسرار عائلتهما، ولديها سرّ عن (السلبوح). أخبرته بأنها سمعت أصواتاً مريبة من غرفة (السلبوح) يوماً، وخشيت أن يكون مريضاً. فتحت باب الغرفة، فوجدته في الفراش مع الخادمة السوداء، فانسحبت بهدوء. جاءها بعد ذلك، وقبلّ يدها، ووعدها بعدم تكرار فعلته، وتوسل كتمانها عن (اليقطينة المخرومة). لم تفش سّره. تودد لها بعد زمن قصير برواية عن معجزة شاهدها أثناء عودته من المدرسة. توقفت فجأة الحافلة التي كان يستقلها في شارع الرشاد، فتذمّر الركاب من السائق، ثم لاحظوا تجمهر الناس أمام موقع هدم لمبنى قديم، وأكمل (السلبوح) بأن حميراً كانت تنقل أحجار الرّدم غاصت في اسفلت الشارع، وتبين أن في الموقع قبراً لولي من أولياء الله الصالحين، ولم تتوقف (الملطومة) عن الصلاة على محمد وآل محمد حتى بعد انتهائه من روايته، وازداد عطفها عليه. يتعجب (الأثرم) من تصديق والدته للرواية، فالذي دنّس المرقد هو من أمر بهدمه لا الحمير ولا المكاري.

حرص (السلبوح) في الأشهر التالية على استجداء موافقة أبيه على اكمال دراسته الثانوية في بريطانيا، وكان يسمعه القول المحبب له بأنه سيرفع رأسه عالياً، فصدّقه. بعد عشرة أعوام حصل على شهادة متواضعة من كلية مغمورة وكان رأس أبيه في لحده، وفي كل رسالة أرسلها إليه في تلك السنوات كرر وعده وقبل يدي والده.

بقيت (القهرمانة)، لتؤجج حنق (الملطومة)،لا أظنها غفرت لها حتى بعد مماتها، وسيبقى الغلّ يملأ قلبها حتى يزيله الخالق في الجنة، وأي مأوى تستحقه غير الجنة، فقد كان (الأثرم) يعتبرها قديسة، قبل أن تنكشف الغشاوة عن عينيه فيراها على حقيقتها رعديدة ذليلة، طبّعته على شاكلتها. يشبّه القرويون الظلم بالدوس على البطن، وما أكثر ما داست (القهرمانة) على بطن (الملطومة)، فتكتفي بالشكوى، ولا تجد من يسمع شكواها غير (الأثرم)، وود هو لو داست في بطن (القهرمانة) ولو مرة واحدة، كما فعل بإخته غير الشقيقة حتى كفت عن لكم (الملطومة).

بعد رحيل الأقارب من البيت لم يبق من أعوان (القهرمانة) سوى بعض الجيران. صاحبت (القهرمانة) عائلة فقيرة، سكنت في كوخ أول الشارع، وسمحت لها بالتزود بالماء من حنفية الحديقة، ويومياً جاءت ابنة الجارة لملأ تنكات الماء. كانت امرأة في حوالي العشرين من عمرها، جميلة ورشيقة ومطلقة. تزوجت وبعد حين لم تطق معاشرة زوجها. سألها القاضي عن سبب طلبها الطلاق فأجابته بأن زوجها يأكل من حافة الماعون بدلاً من وسطه. كانت تقصد أمراً غير أداب المائدة، وهذا النوع من "الأكل" لا ينجب أطفالاً. فهم القاضي التشبيه، ووافق على طلبها. في إحدى الأمسيات ذهبت العائلة للزيارة وبقي (الأثرم) مع الخادمة. جلست الخادمة في الساحة المطلة على الحديقة الأمامية وحضرت ابنة الجارة المطلّقة، وشاهد (الأثرم) من نافذة غرفة الاستقبال الخادمة تشير لها إلى الغرفة، وبعد قليل دخلت المطلّقة، ونيتها اغواءه لكنه كان غريراً فانصرفت خائبة. دق جمال جارتهم المطلّقة جرس إنذار في عقل (الملطومة)، قبل ذلك بسنين أخبرته بأن أبناء (أم لسان الزفِر) أجبروا (اليقطينة المخرومة) على اجراء عملية جراحية لمنع النسل في لبنان، لئلا تنجب له أبناء أخر يشاركونهم في الميراث، ويظنها (الأثرم) عملية استئصال غدة البروستات، لكنها لم تلغ شهوته للنساء، فتخوفت من تعلقه بالجارة المطلّقة، فيتزوجها ويهجرهم، ومن كان يتوسل الماء لن يرفض عريساً ثرياً على حافة القبر. تصدت (الملطومة) للجارة وابنتها ومنعت عنهما الماء. تلعن (الملطومة) يزيد بن معاوية كلما شربت حسوة ماء لأن جيشه منع الماء عن الإمام وأهله وأصحابه، لكنها لم تتردد في منع الماء عن الجارة وابنتها خوفاً على زوجها من الغواية. وعندما رأته يلاطف ابنة عائلة فقيرة أخرى، تسكن بيتاً من الطين والصريف بجانبنا دفعتها غريزة البقاء لإقصاء الطفلة وعائلتها، غير مكترثة لشكوى (القهرمانة)، وهي الأدرى بنزوات زوجها ومكر زوجته الأولى. لم يزد عمر الطفلة على الثانية عشر من عمرها، لكنها في نظر المفترسين في بيتنا والحي طريدة. سمعت مرافق (القمرجي) يقول عنها: من كانت في مثل عمرها يطؤها الرجال، وأشاعوا بأن مالك الدكان في آخر الشارع شوهد وهو يزرر سرواله بعد خروجه

هو والفتاة الصغيرة من باطن دكانته المظلم. وتندروا بأنه كلما تسلل قريب لهم إلى كوخهم ليغازل اختها الكبرى دعت عليها والدتها بكلمات إباحية: جيرة بفرقك! ولا تعني بذلك فرق الشعر، بعد سنة أو أكثر حضرت البلدية وهدمت كوخهم فرحلوا.

بعد رحيل الجيران الفقراء التفتت (الملطومة) إلى الخادمات. لم تطل مدة خدمة إحداهن سوى أياماً معدودات، وكعادتها باحت له بسبب طردها: تأمل! سألتني بوقاحة متى يعود (اليقطينة المخرومة) لأنها بحاجة لنقود؟ وسمعتها تشتكي من اهمال ذكور العائلة لجمالها، وبالفعل فقد كانت شابة جميلة، أفسدتها الخدمة في بيوت المفترسين.

خلا البيت والحي من حلفاء (القهرمانة)، فلجأت إلى سجادة صلاتها، بسطتها ولم تطويها نهاراً وليلاً، وذكره زهدها المفاجئ بحكاية الثعلب الماكر، بعد اصطياده عدة دجاجات تعلمت البقية الحذر من الثعلب، فاستعصين عليه. تقنع بمسوح التدين ليخدع الدجاجات الحمقاوات، فانطلت عليهن الحيلة. العبرة من الحكاية أن ليس كل من لبس العمامة وادعى الصلاح صادق، لذلك لم تصدّق (الملطومة) توبة ضرّتها (القهرمانة).

أيست (القهرمانة) من استعطاف (الملطومة)، وايقنت بأفول حظوظها في الاحتفاظ بمكانتها السابقة في بيت زوجها، فأعلنت رغبتها في تمضية القليل الباقي من عمرها في مدينة مقدسة، وترجت (الأثرم) التوسط لدى (اليقطينة المخرومة) لتلبية رغبتها. احتار في ردة فعل (الملطومة). توقع فرحها برحيل ضرّتها الظالمة، لكنها لم تكترث، ويظنها تخوفت من استفراد ضرّتها بزوجها واستعادة السيطرة عليه بوسيلتها المجربة. أخيراً غادرت (القهرمانة) امرأة مهزومة، وودعتها (الملطومة) بسبع حجرات لئلا تعود. سرعان ما ضجرت (القهرمانة) من الوحدة والإهمال، فطلبت من زوجها اسكانها في بيته الصغير في (أم السرجين)، فكان طلبها الأخير. زارها (الأثرم) مرّة فاشتكت له من كثرة العقارب الصفر في البيت، وقضت سني عمرها المتبقية في الشكوى والتباكي على حالها.

لم يبق في البيت سوى الأبوان و(الأثرم) و(أبو الجعل). في زاوية معتمة من ذاكرته يقبع (أبو الجعل)، ليس تجاهلاً منه، بل لإغفاله له. كان يستنكف من مصاحبته، ويستثقل

ظلّه. هو كما في صغره وعلى العكس من (الأثرم) لا يطيق المكوث في البيت إلا للنوم والوجبات، وإن لم يجد صاحباً خرج مع (الأملس). استغرب ولعه بالكتب والمجلات. عندما علّم (الأثرم) نفسه الصلاة سخر منه. تشاجرا لأنه ألقى بقطة صغيرة وجدها داخل البيت، وكان (الأثرم) يعطف على القطط الشاردة في حديقتهم بكسرات خبز بائت، وأحياناً وبعيداً عن الأعين المستنكرة بقليل من الجبن الأصفر المعلب وصحن حليب. منذ صغره لا يطيق معاملة قومه للحيوان، حتى الأطفال في (أم السرجين) تلذذوا برجم الكلاب السائبة بالحجارة، وتعذيب السلاحف بقلبها والوقوف على بطونها حتى تخرج رائحتها الكريهة قبل موتها. عندما كبر أحد أبناء جيرانه المولعين بتعذيب الحيوانات تطوع ليكون جلاداً، يضع حبال الشنق في رقاب المعارضين.

استقلّا الحافلة العمومية سوية مرّة واحدة، ولا يتذكّر (الأثرم) سواها. كانا عائدين إلى البيت، والحافلة مكتظّة بالركاب، فحُشر (الأثرم) عند الفاصل بين الركاب ومقصورة السائق، ثم وقفت فتاة أمامه وألصقت مؤخرتها بجسمه، فتحرك مبتعداً. صدم (الأثرم) بسلوك الفتاة المعيب. حتى وقتها كان يظن أن التحرش الجنسي حكر على الشباب الفساق، يحتقرهم ويفرح عندما يسمع بتأديب جماعي لمتحرش في حافلة. كان حيياً أكثر منها، لا يحدق في وجه امرأة، ونظراته لا تكاد تفارق مواقع قدميه، صارع شهواته وتحكم بها إلى حد كبير.

الاصطياف في لبنان أو المدخل إلى الجحيم

مرتان طلب منه اصطحابه إلى لبنان، في الأولى كان صبياً غراً، لا يعرف وقتها عن لبنان سوى المصيف الجبلي الذي يقصده (اليقطينة المخرومة)، ويقضي فيه الشهور ثم يعود محملاً بهدايا رخيصة الثمن، بضمنها ربطة عنق مهداة لمعلمه البدين في مدرسة (أم السرجين) الابتدائية. قبل الصيف يبلغه المعلم السلام على (اليقطينة المخرومة) وتذكّيره بالهدية، وفي كل سفرة أحضر له ربطة عنق مبتذلة، والمهم بالنسبة للمعلم أنها من لبنان، ولبنان في تصور (الملطومة) البلد الذي يعود منه الناس بخدود محمرة بلون التفاح.

قبل التوجه إلى المطار أدرك (الأثرم) بأنه سيغادر ويتركه لوحده، وسيضطر للعودة مع الأقارب الذين جاؤوا لوداعه. خاف أن يتركوه فيتيه في أزقة العاصمة، حتى تقبض عليه الشرطة أو يختطفه مجرم. لهذا السبب توسل الذهاب معه، وألح أمام الأقارب المودعين فصفعه. لم تكن واحدة من صفعاته الاسطورية المزعومة، المخلخلة لعظام الرقبة، ولأنها غير مستحقة وأمام أقاربهم ظلت محفورة في ذاكرته. وكأن الصفعة غير كافية لإذلاله سخر منه الأقارب، طلبوا منه الرقص لهم مقابل قطعة نقود. يمارسون هذا النوع من السخرية مع صبيان عبيدهم المحررين. بعد مغادرة (اليقطينة المخرومة) أعاده الأقارب إلى (الملطومة).

المرّة الثانية أمر وأدهى. تحمّس (اليقطينة المخرومة) لسفره معه. كان المراهق الذي يتمناه كل الآباء، فلا رفقة سوء أو انحراف سلوكي أو تمرد وعقوق. قضى معظم أوقاته في المدرسة أو في قراءة الكتب، وحرص على قراءة الكتب غير المدرسية التي استعارها من مكتبة المدرسة أو اشتراها بمصروفه القليل، وتوسل رضا (اليقطينة المخرومة) وقبّل يده وشكره على كل درهم أخرجه بتلكؤ من جيبه، وتحمل ذلّ طقوس الاستجداء الأسبوعية بصمت. ينتهز فرصة زيارات أبيه الغامضة داخل وخارج العاصمة ليستقل الحافلة

العمومية إلى سوق الكتب. تصفح واجهات المكتبات، وتمنى امتلاك نقود كافية لشراء كافة كتب التاريخ والروايات، ثم عاد إلى بائعي الكتب المستعملة، ليقلّب كتبهم ومجلاتهم المستعملة، ولا يعود إلا وحاملاً ما استطاع شراءه بدراهمه القليلة.

لو خير بين قضاء الصيف مع مجموعة من كتب التاريخ والروايات وسفرة لبنان لفضّل البقاء. من المطار إلى فندق رون بوان أول مدينة عاليه، غرفة بسريرين ووجبات بعشرة ليرات يومياً. صور البطاقات البريدية مصقولة ومرتشة، لكن الملموس باهت وفاقد للرونق، وكتم الأنفاس اليومي حرمه حتى التمتع بهواء الجبل النقي. همد في الصباح لئلا يزعج سبات (اليقطينة المخرومة)، وجاع حتى قرر النزول إلى مطعم الفندق، وبعد الغداء موعد مع القيلولة. تمدد في الفراش وأغمض عينيه وسرح عقله بأفكاره، هي نفس الأفكار التي راودته في بلد (الدهن والدبس)، فلا الجبال أو الوجوه المختلفة ألهمته فكراً جديداً. بعد الوجبات جلسا في بهو الفندق، لمراقبة نزلائه، وغالبيتهم كبار السن. خجل من نبش (اليقطينة المزروفة) بإصبعه داخل أنفه الكبير، لينثر ما يجده حوله، أو يمسحه بقطع الأثاث، وتجنب النظر إلى وجوه النزلاء وموظفي الفندق لئلا يرى علامات الاستهجان على وجوههم. أوصاه الخبيث (القمرجي) بنصح (اليقطينة المخرومة) بالكفّ عن هذه العادة القبيحة، ولو فعل لحلّ عليه غضبه.

كسر الرتابة أحياناً، بالنزول إلى البرج، وإلى رتابة أخرى. الغداء في مطعم شعبي في قبو، هواءه بلون ورائحة الدخان، والمحطة التالي بعد تناول الكباب مقهى البورصة. يشغل المقهى الطولاني مدخل مبنى، يتوسطه درج مفضي إلى طوابقه العليا، وما بين صفّي المناضد وكراسي الخيزران ممر ضيق في نهايته البعيدة عن الشارع عدة المقهى من أباريق شاي وقهوة وموقد. لا تتوقف الحركة داخل المقهى. زبائن داخلون وخارجون، يزاحمون ساكني وزائري المبنى، وصاحب المقهى النحيل أبو مصطفى أو أبو طه يجول بين الموائد وقواريره ودلّاته، حاملاً أكواب الشاي وفناجين القهوة وعلب النرد. يهاجم رواده ضجيج السيارات والمارة من ساحة البرج القريبة تؤازره صيحات البائعين في سوق الخضار، لتنضم

لأصوات الزبائن وخبطات أحجار النرد فتنتج جلجلة تصمّ الأذان. تعجب من ولع (اليقطينة المخرومة) بهذا المقهى، ثم تبين أن السائحين من بلاد (الدهن والدبس) يرتادونه، حتى أصبح ملتقى لهم. يحضرون لعلهم يصادفون صديقاً من غير موعدة أو وجهاً مألوفاً.

حضر (المكوي) للمصيف، فهرع شقيقه لتقديم فروض الطاعة. رفع يده ليقبّلها فسحبها. فندق (المكوي) أفخم وأحدث وأجوره مضاعفة. سكن لبنان سنين بعد الانقلاب العسكري، خوفاً من السجن أو ما هو أسوء. اشترى قصراً في الجبل، بجوار خيّاط لبناني مشهور. تذكر الجار أناقة (المكوي) وجمال زوجته. عزف الخيّاط عن الزواج، وأوقف حياته على رعاية والدته ومهنته. في البيت لبى كل طلبات والدته، وفي المشغل أنصف عاملاته، وحرص على تعليمهن، فبرعت إحداهن ثم انفصلت عنه، وفتحت مشغلاً اجتذب زبوناته من دول الخليج فأثرت. في زمن العصبية الدينية واضب الخيّاط المسيحي على قراءة القرآن كل ليلة، يقرأ ويبكي. أنهى حياته صاروخ درزي استهدف بيته أثناء الحرب الأهلية.

فرض (المكوي) نفسه على شقيقه. في الصباح التقوا في مقهى مطل على وادي سحيق. ثرثر (المكوي) عن حياته السياسية، واكتفى شقيقه بالإنصات، وراقب (الأثرم) بطرف عينيه زبائن المقهى، وحسدهم على معيشتهم. قارن بينه وبين صغارهم، وود لو سمحوا له بالحديث مثلهم بجرأة، والجلوس باسترخاء وقراءة كتاب أو تصفح مجلة بدلاً من التظاهر بالاستماع لذكريات مملة. هرب عقله من المقهى إلى الوادي وأشجاره السامقة وسحابة ضباب تتسلق الجبل. يقطع شروده وجه جديد، من مناصري العهد الملكي البائد. تهلل وجه (المكوي) لرؤيته، وتذكّروا الأيام الخوالي، عندما امتلكوا السلطة وأساؤوا استعمالها.

لا ينسى ذلك المشهد في قاعة الفندق الجبلي، دخل ابن (المكوي) برفقة زوجته تحمل ابنتهما الرضيعة. قادم من مكان ما وعائد إلى الوطن، والده وعمه ووالد زوجته حاضرون.

ظلّ الابن واقفاً، وبعد الوداع انصرف. في العهد الملكي كان رواد دور السينما يقفون عند عزف السلام الملكي وعرض صورة الملك والعلم المرفرف على الشاشة، إلا هو، يظل جالساً ويعفط بشفته، وإن عاتبوه هددهم بنفوذ أبيه لدى الملك وخاله. في زيارة نادرة لبيتهم في العاصمة، ألّح عليه لرؤية سيارتهم الجديدة، أجلسه بجانبه، وفاخر بأنها تشتغل بكبسة زر، وكان ثالثهما غير مرئي.

بعد يوم واحد فقط، تكرّر المشهد، ولم يكتمل الحضور. غابت زوجة ابن (المكوي)، لأنها توفيت بالأمس، بعد ساعات فقط من مغادرتها الفندق. اصطدمت سيارتهم المسرعة بشاحنة، فتوفيت زوجته على الفور، وأصيب هو برضوض، وسلمت الرضيعة. تذكّر المشهد عندما التقى ابنته بعد سنين، وكانت طالبة في مدرسة ابتدائية إنجليزية. وبقيت في الغربة حتى تزوجت من أجنبي مسيحي. في الفندق وجم والد الزوجة وتمتم (المكوي) وشقيقه بكلمات الترحم، ولم يجهش الزوج بالبكاء ولا بدا الحزن على وجهه. بعد سنوات قليلة، استقبل شقيقه في المطار، بعد غربة طويلة للدراسة، وساق به إلى (أم السرجين) ليشاهد أرضهم الزراعية، وانقلبت السّيّارة فتوفي الشقيق البائس. تهور (الأثرم) مرة واحدة وركب معه، وكان يثرثر ويهمل النظر أمامه، غير مكترث لأبواق السائقين الساخطين، آنذاك أدرك (الأثرم) هوية الراكب الثالث غير المرئي، إنه عزرائيل.

فرح (اليقطينة المخرومة) بسائحين من (أم السرجين). بعد ساعات من الوصول خلع التاجر عمامته الشبيهة بالطربوش، تميز بها سدنة مراقد الزيارة، واستبدل جبّته وإزاره بالقميص والسروال، وقلّده رفيقه القبليّ. نزع العقال وكشف صلعته وارتدى بدلة افرنجية. تحلق الثلاثة حول منضدة في مقهى، وقال أحدهم بأسى واضح:

- أتيت بولد مخنث إلى غرفتي وحاولت معه فعجزت.

ابتسما وهزا رأسيهما.

خزيان لا خزي واحد، الثاني عندهم أهم من الأول، ولا أظن أنهم يعتبرون اللواط عاراً، وإلا لما جاهروا به، حتى الستر تركوه ورائهم في (أم السرجين).

الخلاعيون في بلاد الغرب، كما تصورهم أفلامهم السينمائية، يأنفون من حديث المَخادع أمام أبنائهم، ولو اختلى رجل مع امرأة طردا حيواناتهم الأليفة. كنت رابعهم المرئي وغير المهم، وأقل اعتباراً من كلاب وقطط الغربيين.

ليست عاهرات مدينة عاليه أطهر من مخنثيها. على جانبي شارعها الرئيسي اصطفت الملاهي الليلية، تتصاعد منها أغاني مبتذلة وألحان نشاز، وتسفك فيها قناني الخمر، وتجالس الغانيات الزبائن، ولكل منهن سعر معلوم، والمزيد يتسكعن في الشوارع. واحدة منهن ارتدت نظارة سوداء أسوة ببطلة فلم مصري معروض في إحدى دور السينما حينها، تذرع الشارع الرئيسي غادية رائحة، وعلى وجهها دعوة صريحة وابتسامة بلهاء. عافتهن نفوس الثلاثة وهفت لمخنث.

تجرأ ونصحه متعمداً بالكفّ عن نبش مخاط أنفه في العلن، فغضب وانتهره بكلمة: انضبط! لاحظ مثله وتذمره فدعاه للجلوس في حضنه. تصورها نوبة حنان أبوي متأخرة، فلبى طلبه. وضع يده على كتفه فساحت حتى وصلت أسفل مؤخرته، وأحس بإصبعه على المكان الذي لم يمسسه أحد غيره حتى الكبر وفحص البروستات.

يدعي القرويون بأن التخنث داء، تسببه دودة أو شنبارة في قاموسهم، تحك مؤخراتهم فيتحولون إلى مخنثين، ويسمونهم دودكيين. جادل ابن (الأملس) الأكبر، هو مقتنع بأن سبب التخنث في الجينات، وبرهانه مشاحنة بين صبيين مخنثين حول أيهما أبرع في اللواط. بعد تأكيد تنزهه عن اللواط روى أنه مر وأحد أصدقاءه في شارع السعدان بالقرب من سينما السرداب فلمح صديقه مخنثين فدعاهما للصعود في المقعد الخلفي للسّيّارة، حيث مارس اللواط مع الأول، فانزعج الثاني وراح يصف تفوقه على الأول في التخنث. أحفاد قوم لوط يصرفون الاهتمام عن اغتصابهم للأطفال بمثل هذه الادعاءات الكاذبة.

أقنعته قصص (الملطومة) بأن لا حام لهما سوى الله، فلم يتوقع من (اليقطينة المخرومة) اشهار سيفه أو حتى صفعات كفه دفاعاً عنه. رضي بأن يكون مجرد ولد احتياط، قتلوا الأكبر منه فجاء بديلاً عنه، وما انتظر أن يكون انقاذه من ميتة محتمة بسّم الصل ديناً

أبدياً في عنقه، وحتى جزاء سنمار أهون على نفسه من ذلك الإصبع، وبعد يردد (الأثرم) مع نفسه: فياليت (الملطومة) لم تمد يدها المكسوة بالصابون داخل بلعومه لتستخرج قطعة المعدن التي سدت مجرى تنفسه، وكادت تودي بحياته.

انهدم سد يأجوج ومأجوج، وحطمت الشياطين أصفادها ودخلوا عقله.

اصطبر حتى اليوم التالي. تربّص به عند خروجه هو وشقيقه (المكوي) من مقهاهما المعتاد. بذريعة افتعلها انهال عليه بسيل من الشتائم. كان على الرصيف وهو أعلى درج المقهى وخطوات تفصل بينهما. هاج (اليقطينة المزروفة) وهجم باتجاهه، فلم يتحرك من مكانه. تصادف يومها زيارة ابن عم. أراد اسكاته فرفض، وقبل أن ينزل (اليقطينة المخرومة) صاح به (المكوي):

- اتركه فهو شاب مراهق!

فأذعن.

اقترح ابن العم قضاء بعض الوقت معه في بيروت، وكان طالباً في الجامعة العربية. نزلا من السّيّارة العمومية أمام سكنه القريب من الجامعة، فاقتربت امرأة عجوز محجبة بعمر الحبوبة تسأل صدقة، فصرفها ابن العم بالجملة المعتادة وقرصة أو بعصة على مؤخرتها، فجَفَلت وردت بالله يسامحك، فازدادت تعاسة (الأثرم). لا تدرك العجوز بأنه تقليد فولكلوري جنسي لدى قومه، ولو تزوج أحدهم شيّعوه بالبعص من الحفل إلى المخدع. في اليوم التالي شاهد البحر لأول مرة ثم عاد للجبل.

قرر (اليقطينة المخرومة) مراجعته لطبيب نفساني، يظن أن (المكوي) حثّه على ذلك. عيادة الطبيب قريبة من مستشفى الجامعة الأمريكية، وكان (الأثرم) متهيئاً، بفضل قراءاته النهمة في مواضيع مختلفة. أوجز سيرة حياته المضطربة، منذ ولادته بعد مقتل شقيقه وحزن (الملطومة) المتواصل وفطامه المبكر بمكيدة زوجة أبيه (أم لسان الزفِر) وابتلاعه لزنبرك ساعة المنبه ومحاولة اغتصابه وتطويق عنقه بحبل السحل الشيوعي،

وأَنفَ من ذكر البعبوص الذي أوصله لعيادته، فخرج الطبيب من المقابلة ليبلغ (اليقطينة المخرومة) اعجابه بمهارته اللغوية وأفكاره المنظمة.

عاد إلى (الملطومة) شخصاً مختلفاً. ما أن وقعت عيناها عليه حتى ندبت:

- يا بوه! كل الناس يعودون من لبنان موردين كالتفاح وأنت عدت مصفرّ الوجه أكثر من قبل.

كتم عنها الأمر، إذ يكفيها ما فيها من الغم والهم. لو اخبرها هل كانت ستواجه (اليقطينة المخرومة) أو تغضب فتحمله إلى بيت أخيها الفقير ، الذي يعيل عائلته الكبيرة من ضمان معمل جرش (اليقطينة المخرومة) وهي لا تملك شجاعة دجاجة؟

صار يتجنب ركوب الحافلات العمومية بين البيت والمدرسة. فضّل السير حتى تنقطع أنفاسه، فلا أمان بين ركاب غرباء، إن كان الأباء والأقارب غادرين، وإن اضطر لذلك بسبب عواصف الرمل أو المطر ظلَّ واقفاً طيلة الوقت، بعيداً قدر الإمكان عن الزحام، فالمقعد المزدوج فخ، تعمدوا أن يكون الجزء الأسفل من ظهر المقعد فجوة واسعة ليسهل على الجالس خلفك مدّ اصبعه ليداعب مؤخرتك أو ليرفسك بحذائه فيثير حفيظتك لينشب عراك، وهم بين أمرين أما نكاح أو قتال.

في كتاب تاريخي قديم قرأ عن قرية في صعيد مصر، استوطن الصحراء القريبة منها شيطان، يتعرض للظاعنين، ويهجم عليهم، وكل من يصل القرية بعد حلول الليل يسأله أهلها: ناكح أو منكوح؟ فهم يعتقدون بأن من يهزم الآخر لا بد أن ينكحه، ولو هزم المسافر الشيطان سلم من الأذى، أما لو تغلب الشيطان ونكح المسافر فستنبت في مؤخرته دويدات تكبر وتكبر حتى تقضي على المسافر. ليس في تلك القرية الصعيدية وحدها، ولا حاجة للشيطان هنا، فالبشر أكفاء لألعن شيطان، والكل ناكح ومنكوح، ونادراً ما يسلم أحد، ومن يتطهر يخرجونه من قريتهم. بعدها صار يستلقي على فراشه ومؤخرته ملصقة بالحائط.

ما قرأ عنه في النهار، تخيله في الليل. بعد حلول الظلام تأتي الشياطين إلى غرفته، حتى خاف من اغماض عينيه. لاحظت (الملطومة) اشتعال الضوء في غرفته. جاءت لتستطلع فشكى لها أرقه. جلست على سجادة بجانب السرير فشعر بشيء من الاطمئنان، وغفا لوقت قصير. تشوّش عقله بفعل الأرق وتشتّت تركيزه في الصفّ، وخشي الاخفاق في الامتحانات، فينتهي في مرتبة راع للغنم، في تصنيف (اليقطينة المخرومة).

بعد ليال من السهد خافت (الملطومة) عليه، وكل تعويذاتها وتمائمها ما أبطلت السحر المفترض. عرف السائق بحالته، فتطوع لأخذه إلى بارع في طرد الأرواح الشريرة من أجساد البشر. استهجن الفكرة، فألحت، ثم وافق على مضض، لخوفه من علاج آخر. كان يراهم في زياراته للمراقد. يقيدونهم بالسلاسل إلى شباك المرقد الفضي، نظراتهم شاردة، تتفحص الزائرين، وبجانبهم وقف سادن يتلو أدعية غير مجانية. فضّل الصعق بالكهرباء على ذلك الموقف المخزي. بعد حوالي ساعة على الطريق وصلوا بغيتهم. نزل السائق لترتيب موعد مع طارد الشياطين، ثم لمحاه من بعيد يحدث آخر، ولم يكن طارد الشياطين بل أخيه غير الشقيق (الأخبن)، الذي حاول اغتصابه وهو في الثالثة من عمره. هاجت (الملطومة)، وأيقنت بأن مكيدة شريرة دبرت لهما، فما أن حضر السائق ليخبرهما بأن طارد الأرواح الشريرة بالانتظار قالت له بحدة بأنها لم تعد مهتمة وتريد العودة إلى البيت فوراً. اندهش السائق ولم يعقب. تنفس (الأثرم) الصعداء، لأنه عرف مسبقاً علاج طارد الأرواح. سيحل حزامه الأخضر وينهال به عليه ليخرج الشياطين وسيعود إلى البيت بعد ذلك مثقلاً بشياطين الغضب والألم والذلّ إضافة إلى شياطينه المقيمة.

بعد صبر طويل استعانت بالملجأ الأخير. أطلعت (اليقطينة المخرومة) على محنته. تخيل مشهد التوسل، له طقوس مثل السلام على خلفاء وسلاطين غابر الزمان. تقترب منه بخشوع عبدة الأصنام، رأسها مطأطأ، وتوسلاتها أشبه بركوع، فيقابلها بإهمال، فاسترحام بعمق سجود، فيدفع برأسه إلى الخلف، فلا تدري ان كانت علامة رضا أم استنكار، وتكرّر الطقوس في الغد وبعده حتى يلين أو ينهرها.

بعد برهة من الزمن أخذه إلى طبيب مختص، بالأمراض العصبية لا العقلية، مجرد تمويه، حتى لا يهرب المريض عند باب العيادة، وأكدته التصرفات الغريبة للجالسين في غرفة الانتظار ونظرات القلق في عيون مرافقيهم. في الربع ساعة مع الطبيب، لم يسأله عن سيرة حياته، كما فعل الطبيب اللبناني، واكتفى بالحديث مع (اليقطينة المخرومة)، وبعد النقر بمطرقة صغيرة على ركبتيه ومشاهدة ردة الفعل العفوية وصف له دواءً للأعصاب، وواظب على تناوله من دون نتيجة، فتركه بعد حين، ونجا من الإدمان عليه.

اكتملت تربيته على يديهما. بذلت (الملطومة) وسعها ليكون مثلها جباناً وخاضعاً وذليلاً، وكان (اليقطينة المخرومة) قدوة في الغطرسة والغرور والأنانية ورذائل أخرى، وجاهد طيلة حياته لكيلا لا يكون مثلهما.

إلى الجامعة في لبنان

تقرّر سفره إلى لبنان للدراسة بعد الثانوية. قبلها بأسابيع عاد (أبو الجعل). هجر الدراسة في نفس الجامعة، لأنهم قبلوا طالب بعثه في كلية الهندسة بمعدل أدنى من معدله، كما ادعى، من أين واتته الجرأة على ذلك، وهو يعلم حرص أبيه على إتمام دراسته الجامعية، واندهش (الأثرم) لليونة موقف (اليقطينة المخرومة) منه، فلا توبيخ أو أمر بالعودة للدراسة. خسر عاماً دراسياً نتيجة زعله من الجامعة.

في الجامعة تعرف على أصدقاء (أبي الجعل) القليلين. أحدهم انهال عليه بأقذع سباب سكان (الدهن والدبس) قبل المصافحة، وأخبره بأن (أبا الجعل) علمه الكلام الفاحش. سخر آخر من احتجابه عن الدراسة بسبب قرار الجامعة، وكأنها ستغلق أبوابها حداداً. وتذكّر ثالث اهزوجة جنسية ركيكة ألفها (أبو الجعل) عنه.

اختبروه في اللغة الإنجليزية فنجح، على عكس (أبي الجعل)، ولعن حاكم بلاد (الدهن والدبس) وطائفيته، التي أوصلته إلى هنا. في القسم الداخلي شارك يمنيّ الغرفة، وجاور حجازيّ، اليمنيّ بعثي يمضغ القات مع الشاي والحجازيّ لّواطي، بعد أقل من شهر حكى له ومستمع آخر عن لّواطه بتلميذ من المدرسة الابتدائية القريبة، وصفه بالمحون، أصعده خلسة إلى غرفته، واستنكف من تلويث فراشه، فأنزل سجّادة صلاته من الحائط وفعل بالصبيّ عليها. بعدها وكلما فرش (الأثرم) سجّادة صلاته استعاذ بالله من الشيطان ولعن جاره. في الحمام المشترك مع سبعة نقشوا على جدرانه وأبوابه شعر طوقان الخليع ورسوماً إباحية. هو الوحيد بين جيران السَكن مهووس بالنظافة. المرحاض بيت عذاب لا راحة. قبل دخوله يرفع بنطاله إلى الركبة لئلا يتلوث بالماء المندلق على أرضه، وسار بحذر خوفاً من التزحلق على ورق التواليت المبعثر على بلاطه، وقبل الجلوس على المقعد شطفه بالماء أو غطاه بورق تواليت، واستعجل قضاء الحاجة ليخرج بسرعة لاعناً الساعة وعبد السلام عارف. كل وسائل الوقاية لم تنجيه من قذارة جيرانه. قبل امتحانات الفصل الثاني تكونت

دملة كبيرة على مؤخرته وارتفعت حرارته، فذهب إلى المستوصف، وأول ما وقعت عينا الطبيب عليها قال مبتسماً:

- أنت مقيم في سكن الطلاب الجدد.

أبقوه في المستوصف عدة ليالي، واضطر لأخذ اختبارين بديلين. لم يكلف أستاذ الفلسفة تصحيح ورقة الامتحان، ربما اختلف الأمر لو كان طالبة جميلة متع ناظريه طيلة الفصل بساقيها العاريتين وحتى أعلى الفخذين أحياناً. في أول درس نادى على الطالبات للجلوس في مقدمة الصفّ، لتسهل عليه البصبصة. كانت الموضة السائدة يومها بين أكثرية الطالبات الفساتين القصيرة جداً.

في الصيف تصعد الرذيلة إلى الجبال، وتنزل في الشتاء إلى بيروت، أما الشقاء فمستقر في الكرنتينا والمخيمات وأكواخ المهاجرين. عند آخر الشارع الفرعي المفضي إلى السكن صادف السعودي الذي علّمه (أبو الجعل) السباب الفاحش، كل ملامحه تدل على أصله الجاوي لكنه يصر على كونه من الأشراف، بدا أنيقاً في بدلة وربطة عنق، وخمن (الأثرم) بأنه متوجه لحفلة رسمية. أمسك بيده ووعده بقضاء وقت ممتع لو صحبه. سار معه في شارع غاندي حتى مفرق صيداني. وقف بانتظار سيّارة أجرة، ويبدو بأنه في هذه الأثناء أعاد التفكير في دعوته لمرافقته. قال معتذراً:

- لو أخذتك معي فسيتهمني أخوك بإفساد أخلاقك!

لم يكن قاصداً المبغى الحكومي، المجاور لمخفر الشرطة في نهاية ساحة رياض الصلح، ليقضي دقائق مع ماريكا أو واحدة من زميلاتها العاهرات الرخيصات المرخصات. كان المبغى العمومي وعاهراته موضوعاً مكرّراً للتندر بين الطلاب، مع تأكيدهم على أنهم لم يرتادوه أبداً. كان صديق شقيقه متأنقاً لمتعة أثمن.

أزعجت سجّادة صلاته معارفه من الطلاب، منهم اثنان من بلاد (الدهن والدبس)، طالب في السنة الأولى مثله وآخر فشل مراراً في امتحان قبول الجامعة حتى يأس أخيراً وارتضى بكلية هاكازيان الأرمنية. ارتاح لهما بعد زيارة ضريح في ضواحي دمشق، فرضي

الذهاب معهما في جولة بسيّارة الثاني. كان محسوداً من الطلاب لامتلاكه سيّارة خاصة وشقة، ابن وحيد لتاجر ثري عقد عليه الآمال للتخرج بشهادة جامعية. بعد استراحة قصيرة في الشقّة استأذن صاحبها وخرج لقضاء مهمة سريعة، كما ادعى. بعد قليل عاد برفقة فتاة، قدّر عمرها دون العشرين. لم تسلم أو تعرف بنفسها، ثم دخلا إلى غرفة النوم، وبعد قليل خرج الطالب الثري ودخل الثاني. لم يعد الأمر خافياً. التأم شمل الثلاثة في غرفة الجلوس. أشارا إلى العاهرة بخبث، فمشت باتجاه (الأثرم) وجلست في حضنه. قام ونفضها متجنباً لمس جسدها الملوث، فغضبت وغادرت بعد قليل. أخبره زميلي في الجامعة بأنها عاهرة ابن التاجر المفضّلة.

فاجأه عند بهو فندق ستراند. كان هو وزميل سائرين باتجاه شارع الحمراء، فاحتار في التصرف، وتمنى بعدها لو توارى عن أنظاره. لا أظنه عرفه لولا أن عرفه بنفسه، وحاول تقبيل يده بحكم العادة، وضاعف خجله وجود زميل الدراسة، المتردد على أسمرة الأريتيرية من أجل عاهراتها الرخيصات. دعاهما (المكوي) للجلوس معه، فاضطر لقبول الدعوة. كان أنيقاً كعادته وهرماً كما يتذكّره، وعصاه التي يتوكأ عليها لا تفارق يده. عرّف (المكوي) بزميلي، وما أن عرف بأنه صحراوي حتى بدأ برواية رحلته على الجمل إلى الحجاز بعد فشل الانتفاضة العشرينية، وتوقف عند لقائه بزعيم الوهابيين ابن سعود، الذي دعاه للاستقرار بينهم فرفض وأكمل سفرته إلى الحجاز. قبل الانصراف أخرج (المكوي) مئتي ليرة لبنانية وقائمة بكتب دراسية كلّفه بشرائها لابنته. دار بين محلات بيع الكتب فلم يجد منها كتاباً واحداً، وسافر قبل أن يعيد له نقوده، ثم سمع بخبر وفاته. لسنين احتار في إعادة المبلغ إلى ابنته التي غادرت إلى بريطانيا للدراسة وتزوجت هناك من مسيحي. بعد سنين سلم كل من ثلاثة من أبنائه ما يساوي مبلغ المائتي ليرة بسعر التحويل الأصلي، وتحمل خسارة ضعفي المبلغ المستلم، ولكن ذمته غير مرتاحة حتى اليوم.

غادر (المكوي) ثم ومات وأورثه هماً، ثم حضر ابنه، كما يقول المثل فوق الحمل علاوة. يلوم نفسه ثم (اليقطينة المخرومة) و(الملطومة) اللذين عوداه على الخجل والتهيب من الناس، حتى صار يتردد في الاعتذار من قريب أو بعيد. سايرهم ولو على حساب وقته ودراسته وأعصابه، وكما هو متوقع استغلوا خجله. أصرّ على اصطحابه إلى كازينو لبنان، ليس لعشاء دسم أو مشاهدة عرضهم الفني الداعر، بل ليشهد على براعته في القمار. هو مثل معظم أفراد عائلتهما الكبيرة مدمن على القمار، ولا يثنيهم عن ذلك العراك حول موائده والكره المتبادل. أطال الحديث حتى الملل عن طريقة ابتكرها للاحتيال. يعد أوراق اللعب فيستطيع تخمين الورقة التالية في كدس الأوراق. حتى اليوم لا يعرف (الأثرم) التمييز بين أوراق لعب القمار. رضخ لطلبه، وشاهده يربح ويخسر، ثم عاد إلى السكن الجامعي. أخبره بعد ذلك بأن إدارة الكازينو طردته، فلم يصدّقه ورجح خسارته لأمواله، ثم غادر.

بعد قضاء عطلة الصيف مع الأهل عادا، (أبو الجعل) وهو إلى الجامعة. يأس من اكمال دراسته في أمريكا فرضي بالعودة. وصلا قبل موعد التسجيل وافتتاح السكن الجامعي بأسابيع، فاستأجر (أبو الجعل) شقّة مفروشة رديئة ما بين الحمراء والروشة، فيها سرير مزدوج واحد، ولا تمتاز على سكن الطلاب الجدد إلا بعدم التزاحم على الحمام، حتى جاء بعاهرة وثلة من أصحابه ومعارفه، فتناوبوا عليها بالدور، ولما رفض (الأثرم) دخل هو مرّة ثانية بدلاً منه. لا يعرف كيف واتاه النوم في تلك الليلة على نفس السرير الذي شغلته العاهرة مع زبائنها. في الليلة التالية أفاق مذعوراً على جرذ يدب قرب رأسه، لعل رائحة العاهرة وزبائنها اجتذبته، فكره (أبا الجعل) وأصحابه.

بدأت الدراسة، وسكن في البناية الثانية. غرفها أرحب، وفيها مغسلة داخل الغرفة، وتطل على ملعب لكرة القدم. أفضّل ما في السكن الداخلي الجديد مرحاض شرقي وخرطوم ماء للشطف.

تلاحقك السمعة السيئة أينما ذهبت، حتى بعد الموت، أما العمل الصالح فيدفن مع عظامك، كما قال شكسبير. بعد التعارف تذكّر طالب كويتي سلوك عامل صلف من بلاد (الدهن والدبس)، تورط بتوظيفه لحفر خندق في حديقته أو مزرعته، فكان يتوقف لتدخين سيجارة أو شرب الشاي كل نصف ساعة. يخرج علبة تبغه المعدنية، ويبدأ بلف سيجارة ببطء، ولو عاتبه يستشيط غضباً فيخاف الكويتي. اشتكى آخر من آثار مفتاح أو مفك مسامير شوه جانب سيارته الثمينة بعد مروره ببلد (الدهن والدبس). لا تنتهي سيرة البلد غير العطرة من دون تذكّر محكمة المهداوي، ومنظر جوقة الشيوعيين الملوحين بحبال السحل داخلها، ولكنهم يقرّون بأنهم تسلوا بمشاهدتها. معاوية الأردني مغتاظ. له صديق في مدينة بين النهرين، يراسله بانتظام. ترجاه الصديق ألا يدون اسمه على أغلفة رسائله، حتى لا يرميها موظفو البريد في القمامة، لذلك يكفهرّ معاوية بوجهه. لا ينسى الفلسطينيون أن الأمر الذي لم يصدر من العاصمة أضاع فلسطين، وأحدهم ذهب أبعد من ذلك:

- جنودكم نكحوا الأُتن وحتى الموتى من النساء.

فيحتار في الرد، وهل يكفي تذكيرهم بفقدان عبد الواحد جمعة ليده في الحرب؟ واضطر بعدها لاحتراف الغناء لكنه أيضاً لا ينسى، وردد في احدى أغانيه حكمة لا تقل بلاغة عن حكم شكسبير: "أنا شبيدي كله من ايدي".

شريكه في الغرفة حجازي، في حركات يديه ونبرات صوته نعومة زائدة، أقرب إلى الأنوثة. تندر عليه مواطنوه، وأصابت (الأثرم) شظاياها. في الفصل التالي انتقل وحلّ محله لبناني، منطوي على نفسه. في وقت الفراغ انهمك في رسم تصاميم لفساتين نسائية. صارحه بأنه يتمنى امتهان ذلك، وكما هو متوقع أثار تلميحات خبيثة بين معارفه.

في الصف أستاذ خبيث آخر، في محاضرة عن الثقافات القديمة ناقش ملحمة جلجامش السومرية، وتحمس (الأثرم) للمشاركة في النقاش، حتى بلغ مصارعة جلجامش لأنكيدو، وفاجأه بأنها لم تكن مصارعة بل فعلاً جنسياً، وكأن الأستاذ الغبي كان ثالثهما.

كانا أخوة بالاسم فقط، هو في فلك و(الأثرم) في آخر، فلا جمعتهما مائدة واحدة أو حديث حميم. لا يلومه، هو مزّاح، وأصدقاؤه مثله، و(الأثرم) جاد، ولهما اهتمامات مختلفة خارج الجامعة. فرقتهما الطبائع وجمعتهما نكبة حزيران، ليس عاطفياً بالتأكيد. كاد (الأثرم) أن يختنق بالغضب والحزن، أما هو فبدا غير مكترث، وانصب اهتمامه على المغادرة بسرعة، وتكشف جبنه في تلك الأيام. توقع وصول القوات الصهيونية أي ساعة. كان زملاء ينوون التوجه إلى دمشق للمشاركة في القتال، ولو بحفر الخنادق. سخر (اليقطينة المخرومة) منهم، ولاحقه بإلحاحه على الرحيل فوراً، فالأهل قلقون وبالانتظار. لاحت الهزيمة فوافق (الأثرم).

خجل عند مروره أمام غرف السكن حاملاً حقيبته، أبوابها مشرعة، وخرج ساكنوها لتبادل الأحاديث حول الهزيمة. سأله أحدهم إن كان عائداً إلى بلده، سؤال غني عن الإجابة، أشبه بإهانة، واكتفى آخرون بملاحقته بنظراتهم، فأشاح بوجهه عنهم. لم يشفع لهما أنهما آخر المنهزمين.

سافرا إلى حلب في سيّارة صديق كويتي، بطريقه إلى ألمانيا لدراسة اللغة في الصيف، وطيلة السفرة اضطر لسماع تقليده لمغنين فرنسيين. كان معجباً بالمغني أدمو وأغنيته المفضّلة سيسقط الثلج الليلة ولن تأتي. افترقوا في حلب. ركبا قطار الشرق السريع إلى العاصمة. كذبوا بوصفه سريعاً والسفر فيه لا يشبه أبداً ما تعرضه الأفلام السينمائية. عندما يتشارك مسافرون في قاطرة واحدة ولأيام أو حتى ساعات غالباً ما يتعارفون ويتبادلون الأحاديث، إلا (أبو الجعل) وهو فقد ساد بينهما صمت كئيب معظم الوقت.

ما كاد مرّ أسبوعان على مكوثهما مع الأهل حتى بُلغا باستئناف الدراسة، فعادا بالطائرة. تموز غير حزيران المنصرم. للموت طقوس للتفريج عن الحزن، عزاء لأيام وملابس سوداء ولحى طويلة وقهوة مرة ووجوه متجهمة، أما الهزيمة فبلا طقوس، فتبقى حبيسة في النفوس، تحرضها على التمرد. أعلن (الأثرم) عصيانه، وبدأ بالجامعة. تخلى عن دراسة الطب واختار اختصاصاً ميسراً. كما توقع لم يكترث (أبو الجعل)، فهو لا يمثل

دور الشقيق الأكبر، إلا إذا كانت له مصلحة، أو تحركت فيه نزوة للسيطرة، فلا يجد غيره هدفاً سهلاً، ولم يستبعد فرحه بتمرده، حتى يكون له النصيب الأكبر من رعاية (اليقطينة المخرومة)، هو الآخر حسده على قربه من أبيه، ولا أظنه سيحزن لو عرف بحاله.

ودع المختبرات وحفظ المعادلات الكيمائية والمصطلحات اللاتينية، وولج الفضاء الرحب للعلوم الاجتماعية. كان تحولاً أشبه بإفراج من حبس، ولم يندم يوماً على اختياره. لأول مرة في حياته توثقت معرفته ببشر غير أفراد عائلته، ومن مختلف الجنسيات، فكانت تجربة أغنى من محتويات الكتب.

طلاب الجامعة من بلد (الدهن والدبس) قلة، لكنهم أشبه بمرآة مصغرة لمجتمعهم الغرائبي، بينهم شيوعيون عادوا من الدول الشيوعية بأمر الحكومة، وبعثيان، وقومي ناصري يكتم انتماءه، وأبناء الملكيين الساكنين في المهجر، وهو المستقل الوحيد، و(أبو الجعل) وآخرون يتحاشون السياسة وكأنها وباء مميت. ولاءات بعضهم الحزبية زئبقية. بعد سنين اِلتقى بشيوعي، كان متوجهاً للتدريب مع مليشيا البعثيين، ثمن حصوله على وظيفة حكومية، وبعد الاحتلال رشح نفسه للانتخابات مع المتدينين. انتقل البعثي من الفرع الثوري إلى الرجعي ثم عاد للثوري، والكردي المتعصب لقوميته بصق على أستاذ أمريكي فلم تطرده الجامعة، وصادق كندياً اختلس من شركة سفر وسياحة عشرات الألاف من الدولارات. لم تسلم بعض الزميلات من بلد (الدهن والدبس) من صدمة التأرجح بين عباءة الأمهات والفساتين القصيرة، فتعودت إحداهن على افراغ كبتها على جسدها، فتعلمت التدخين وأطفأت سجائرها في راحة كفها. هل كانت تلك المعمارية الشهيرة ضحية الفساتين القصيرة أيضاً؟ يتذكّر الجميع إلا هي، ربما لأنها قبيحة، وعندما يكون الجمال أهم من المعرفة لا تطاق الحياة مع القبح، فلا بد من تنفيس العقد النفسية بحرق الجسد القبيح أو اخفاءه وراء عباءة الفانتازيا والشهرة.

التقاه صدفة، ثم زاره أحياناً، قريبه تلميذ في مدرسة جبلية، وساكن في القسم الداخلي. قبل سنين تشوّه وجهه بنار الحمام، انفجر الأتون تحت الحمام في بيته فاشتعلت النيران به، واحترق جلده. نصف وجهه لحم عار ملتأم، والنصف الآخر طبيعي، وأعفاه القدر الرحيم من العور. لعل أقرانه في المدرسة والشارع لم يرحموا عاهته، هو من شعب العيارين، ولا حياء من النداء على أحد بأبي كروة، وبمسمع من نسوة وأطفال، والكروة هي الخصية المتورمة. أرسله أبوه للدراسة في بلد عبادة المال والجمال، العيون المتفرسة مرايا والمشيحة رسائل، أهي قسوة أم حماقة؟ أشبه بتقليد اسبرطي، اترك ابنك في العراء يوماً وليلة، لإن عاش خير، وان مات خير أيضاً. كلما التقاه في مكان عام تضاربت مشاعره: العطف على قريبه المشوّه والضجر من رؤية الناس لهما سوية، وتأنيب الضمير.

للقباحة صور مختلفة. بادر هو لتقديم نفسه. لا تتعجب عن كيفية التعارف، فأما أن بصمة هوية سكان بلاد (الدهن والدبس) على الجبين، أو في الجينات، أو هي كتلك الرائحة التي تطلقها حيوانات عند موسم التزاوج، أما الغرباء فيكفي النطق ببضع كلمات ليخمنوا أصلك. صارحه بسبب قدومه، هو مدمن على الكحول. ما يجري في شرايينه كحول وقليل من الدم، ونصحه طبيبه بالعلاج الفوري وإلا فالموت.

تجنب أقصر الطرق، ما بين الشقّة والجامعة. كلما سار فيه خرج له من بين المباني ليقطع الطريق عليه. مراهق نحيل وشاحب الوجه من عائلة ثرية تركت بلاد (الدهن والدبس) بعد أول انقلاب عسكري، فلا يمرّ حتى يثرثر، وكأنه راهب نذرّ الصمت ولا رخصة له بالكلام إلا عند مروره. وحتى مفرق شارع الحمراء صب في أذنيه كلام اليوم المحصور في حنجرته، ثم تركه وعاد إلى صومعته.

الأنكل سام مقهاه المفضّل، على الرغم من اسمه الكريه. تناول فيه فطوره في عطل نهاية الأسبوع، فيحضر أحياناً وزير سابق من وزراء الزعيم الأوحد، وفي حينه مسؤول كبير في مكتب الأمم المتحدة. سأله مرة عن سبب قبوله الوزارة في عهد المعتوه قاسم فأجابه بأنه أراد ثنيه عن القرارات الطائشة. عندما حدث الانقلاب البعثي الثاني وصفه بالهجمة

المغولية الجديدة، وكان وصفه دقيقاً. بعدها بعام أو أقل قتله سائقه الفلسطيني، لأنه طرده من وظيفته كما ادعوا، وكان القتل في بلدهما قد اشتدّ.

كان أحجية، لا مكان لها هنا، وفككها في كتاب مستقل. درس في جامعة لومومبا السوفيتية ثم انتقل إلى لندن، فطرد منها لمجامعته مراهقة. فضحه صديق للعائلة. برّر فعلته بقوله: "كانت بومبونة". تحول من موظف استثمارات رأسمالية إلى رسول للهبية ومُحِّضر مخدرات هلوسة وبائع حشيشة. فتح كوميوناً في شقته فطرده صاحبها. في طبعه لؤم مستتر ونقمة لا تهدأ.

سكن مع (أبي الجعل) في شقّة ، أفضّل من السابقة، ومثلها للنوم فقط. لسبب ما أرسل لهما (اليقطينة المخرومة) مبلغاً إضافياً، زاد على أجور الجامعة وتكاليف معيشتهما. دفع المبلغ بالدنانير لتاجر في العاصمة، وسلمهما شريكه اللبناني المبلغ بالليرات. كلمة السر في رسائل التهريب المصارين وكل مصران رمز لليرة واحدة. أودعه (أبو الجعل) في حسابه المصرفي. صرف معظم النقود على شراء سيّارة. أخبره بأنه بحاجة للسّيّارة للتنقل بين الجامعة والجبال في الشمال موضوع دراسته. بعد أسبوع توقفت فنزلا لدفعها. ارتطم بابها بصخرة فانبعج، واستاء لأنه ترك الباب مفتوحاً. تكررت أعطال السّيّارة الإنجليزية رديئة الصنع، فسحب المزيد من النقود لتصليحها، وأخيراً نفذ صبره فباعها واشترى مستعملة. كان نصيب (الأثرم) من المبلغ الزائد ثمن أسنان ثابتة بدلاً من المتحركة. الطبيب أرمني، يتردد على كازينو لبنان للمقامرة بانتظام. قبل التعود عليها انكسرت، فضاعت نقوده، فدعا على الأرمني بالخسارة على موائد القمار.

صادق (أبو الجعل) ممرضة مسيحية. صارح أصدقاءه بذلك وكتمه عن شقيقه، فأفشى صديقه سره. نادراً ما أقله بسيارته، وندم ذلك اليوم لأنه قبل بذلك. كانا في الطريق إلى الشقّة عندما لمح سائق سيّارة خاصة يتحرّش بفتاة، فخرج (أبو الجعل) عن طوره. انهال بالشتائم المقذعة على المتحرّش، ثم أسرع بسيارته نحوه، فصرخ به ليتوقف خوفاً من حادث، فلم يلتفت له، واستمر بمطاردة سيارة المتحرش حتى حاذاه، ثم مد يده تحت

مقعده وأخرج مطرقة متوسطة الحجم، استعملها لتكسير الصخور التي يدرسها. ذهل (الأثرم) من سلوكه. كان هائجاً وبتهور غير معهود منه، أخرج المطرقة من نافذة سيارته وخبط جانب سيّارة المتحرّش بشدة. انذعر الشاب وأسرع بسيارته مبتعداً، وبعد مطاردة قصيرة وسيل من الشتائم عادا إلى الشقّة. احتار في تفسير تصرفه الغريب، هو أبعد ما يكون عن فارس على حصان أبيض، نذر حياته لنجدة ضحايا التحرش، لذلك خمّن أن الفتاة صديقته المرضة الغامضة، ولعله خشي من المنافسة، فالسيارات الثمينة مصائد للفتيات، فلا يرفضن دعوة لنزهة بالسّيّارة على الساحل أو في الجبل.

في الصيف عاد البعثيون إلى الحكم مرة ثانية. لدغة ثانية ومن نفس الجحر فما العذر؟ حدث ذلك في تموز، شهر إله الموت والبعث، بعث مختلف عن الموجود في القصر الجمهوري، لكنه جاء بالموت بالتأكيد.

كان (الأثرم) في أوج تمرده. أطلق لحيته، وترك شعره طويلاً، لا تقليداً لآخرين، بل نكاية بالمجتمع الجائر والنظام العالمي المتوحش وبالحلاقين أيضاً في (أم السرجين)، الذين نتفوا شعرات قفاه بمكائنهم البدائية غير المسنونة، ووبخوه لو توجع أو اشتكى. انتهت صلاحية جواز سفره فقصد السفارة في الرملة البيضاء بصحبة زميل لتجديده. في تلك الأيام لا تزار سفارة (الدهن والدبس) بدون زميل أو اخرين يرابطون عند المدخل ليتأكدوا من خروجك سالماً، وإن طال مكوثك استعانوا بالشرطة لإنقاذك قبل شحنك في صندوق إلى بلدك وسجن (قصر النهاية). أحالوه إلى الملحق الثقافي. قبل مراجعة الموظفين الحكوميين يشحذ طاقات التحمل والصبرّ، وبالرغم من ذلك كاد أن يفقد أعصابه. بعد ثوان من دخوله مكتب الملحق الثقافي توعده بالامتناع عن تجديد جواز سفره إن لم يحلق لحيته ويهذب شعره "الهيبي". في كل أمة وشعب حاوية قمامة يرمون فيها عتاة مجرميها وحثالاتها، ويحظرون مشاركتهم في السياسة، إلا في بلد (الدهن والدبس)، ففي كل عقد من السنين أو أقل يمدون أيديهم في تلك الحاوية حتى قعرها، ليستخرجوا قادة جدد. لم يفاجئهما الطلب. سبقه إلى نفس الموقف آخر. هدده نفس الملحق، وبعد جدال قصير رمى جواز سفره

بوجه الملحق وخرج. لا يظن البيروقراطي الحزبي المعين حديثاً رضي بتلك النتيجة، لكن ذلك لم يثنيه من تكرار المحاولة معه. سارع زميله ليؤكد استعداد (الأثرم) للامتثال للطلب المجحف، وعند الباب التفت ليقول ما دار في عقله المتمرد فوضع زميله يده على فمه ودفعه إلى خارج المكتب. أخبره بذلك سلفاً.

- هل تريد مني حلق شعر...؟

بعد أشهر جاء زميل دراسة ليخبره بأن والده يبحث عنه. ظنه يمزح، لكنه أكد له بأن كهلاً بعقال وشماغ سأله عنه. أخبر (أبا الجعل)، وبحثا عنه سوية حتى عثرا عليه. كان يرتدي ملابسه القبلية لا الفرنجية التي يرتديها كلما قصد لبنان، وشعر (الأثرم) بالخجل وهو يقبّل يده ويقوده بعيداً عن شارع بلس وأنظار زملاء الدراسة. كلامه وتصرفاته غير طبيعية. النسيان والتيهان دليلان على الخرف، قالا له: لو أبرقت لنا بموعد وصول رحلتك لكنا في استقبالك بالمطار. أجاب بأنه جاء بالحافلة. قضى حوالي يوم صيفي كامل في رحلة شاقة عبر الأردن وسوريا، وحافلات نقل الركاب الرخيصة غير مبردة ومقاعدها غير وثيرة، وتعبها ينهك حتى الشبان الأصحاء، فما بالك بكهل قارب السبعين يشتكي من أمراض مزمنة. تبين بأن (بمقدساتي) أقنعه بالسفر براً لكي يقتصد في التكاليف ويسلمهما ما يوفره من نقود لمصروف الدراسة. صدّقه وخفيت عليه مكيدته. تيقّن (بمقدساتي) بأن السفرة إن لم تقتل أباه فستعجل بنهايته. كان موسم التخلص من الأب قد بدأ، لم تقض السفرة الشاقة عليه لكنها سارعت من تدهور صحته. أخذاه إلى فندق بالجبل ليرتاح، وبعد أيام قرر العودة فحجزا له مقعداً بالطائرة.

بعد أقل من عام تخرج (الأثرم) ونوى إكمال دراسته العليا، لا لمزيد من المعرفة التي يمكن الحصول عليها بثمن بخس ووقت أقل بجهد خاص، ولا للمباهاة كما يفعل الكثيرون، فقط لتأجيل العودة إلى بلد مخيف ومجتمع ضال وعائلة ظالمة. وكأنهم قرأوا ما دار في خلده فأحبطوه. ما أن استقر الطغاة الجدد في الحكم حتى اصدروا قراراً يفرض على

من يريد اكمال دراسته العليا الخدمة العسكرية الإلزامية أولاً، لا كضابط احتياط كما في السابق بل مجرد جندي.

ازداد كرهاً للحكام الجائرين والمحكومين الخانسين، واحتار في التملص من الجندية. قرر السفر إلى بريطانيا لإكمال دراسته. راسل مؤسسة تعليمية فوافقت. اشترى تذكرة رخيصة على خطوط ألمانيا الشرقية. كانت سفرة سيئة، بعد عبور البحر المتوسط اعترضت الطائرة عاصفة شديدة، تلاعبت بالطائرة صعوداً وهبوطاً، وتعالت أصوات الركاب الهلعين بالصياح والاستغفار. في الوقت الذي كانت أمعاؤه تقتحم بلعومه لم تفارق البسمة وجهه، غير مكترث باستغاثات الركاب، وكأن الخطر الداهم ألغى كل مشاعر الخوف الكامنة داخله.

حطت الطائرة في برلين الشرقية لقضاء ليلة. الفندق أشبه بنُزل البرج في بيروت. في الحمام الخاص لفّة ورق تواليت، من الورق المعتاد لا المقوى كما يدعي الغربيون، وإن كانت خشنة الملمس. أراد مشاهدة المدينة، على الرغم من الوقت المتأخر، ويبدو بأن شعور الاستهانة بالموت الذي استيقظ في الطائرة لم يفتر بعد. زودته موظفة الاستقبال ببعض المعلومات، واستقل القطار إلى شارع فريدريك في وسط المدينة. خرج من محطة القطار إلى شارع معتم، أنواره خافتة، ومبانيه شبحية، ومحلاته مقفلة، والحياة فيه مفقودة إلا من ثلة من الشباب، تحلقوا حول عمود نور. رمقوه بنظراتهم، لو استطاع تمييزها لكانت مستهجنة. لمح سيّارة أجرة واقفة، فركب فيها، وطلب باللغة الإنجليزية من سائقها التجول في الشوارع ، فرد عليه بالألمانية بحدة. عاد إلى محطة قطار الأنفاق، واحتار في اختيار القطار المؤدي إلى منطقة الفندق. أخرج البطاقة التي زودته بها موظفة الفندق، مدون عليها اسمه وعنوانه. انبرى أحدهم ليدلّه على القطار المؤدي إلى منطقة الفندق. أخبره بأنه متوجه إلى ألمانيا الغربية وغير مسموح له بالخروج من المحطة. ركبا سوية وجلس بجانبه. تهلّل وجهه عندما عرف بأنه من بلد (الدهن والدبس)، وما أن تحرك القطار حتى صارحه بأنه مخنث، فلعن (الأثرم) الحكومة التي أجبرته على السفر إلى هذه

البلاد والدولة التي ارتبط اسمها بالفعل القبيح، رده (الأثرم) بخشونة غير مبال باحتمال أن يتركه المخنث فينتهي في ألمانيا الأخرى من دون تأشيرة وجواز سفر. لم يكن لئيماً وأرشده إلى المحطة المنشودة فعاد إلى الفندق وهو يلوم نفسه على تهوره. بعد وصوله لندن أدرك عبث سفرته، فلو أكمل دراسته خلافاً لقانون المستبدين فعلى الأغلب سيلغون جواز سفره ويوقفون تحويل مصاريف الدراسة، ولن يستطيع العودة لأهله ما داموا في الحكم. قضى أياماً، كلما خرج تساقط المطر ثم عاد خائباً.

كان كالمحكوم بانتظار بدء التنفيذ وتسليم نفسه للسجّان. حسب الأيام والساعات في عقله، ومن دون تقويم. لا تمر ساعة حتى يتذكّر ما ينتظره حتى اكتأب. جاء زميل دراسة باقتراح الحصول على جنسية أخرى. يعرف محامياً حاذق بالتجنيس، بطريقة قانونية أو أختها. ساعده وعائلته على التجنس. زميله فلسطيني هاجر وعائلته إلى بلاد (الدهن والدبس) بعد النكبة، وغادروا بعد أول انقلاب جمهوري، واستقروا في لبنان. من ذكرياته عن بلاد (الدهن والدبس) صوت عمال شفط مياه الصرف الصحي يتجولون في الأحياء وندائهم" نزاح...نزاح". في الموعد المحدد توجها إلى شقة المحامي، في بناية متواضعة عند نهاية شارع بلس من جهة المنارة. استقبلهما بلباس البيت، ومن دون تأخير أو فنجان قهوة دخل في صلب الموضوع. تبدأ خطوات التجنيس بالبحث عن عائلة بنفس الاسم، ثم رشوة الموظف المسؤول ليضيف اسمه إلى سجلها، وبعدها يقدم طلباً بالتجنس، والنتيجة مضمونة لأن اسم العائلة المطابق متوفر. وسأله هل تمانع إن سجلتك مع عائلة مارونية؟ مجرد شكليات، كما وصفه، والكلفة اثنا عشرة ألف ليرة. عقبتان لا يمكن تجاوزهما، المارونية والكلفة.

أيس. حزم حقائبه وسافر إلى مصيره. لاحظت (الملطومة) اكتئابه فترجّت (اليقطينة المخرومة)، مخلصها من الضرّات وبزورهن. أخذه إلى ابن عم، عضو قديم في الحزب الحاكم، وَعَدهما خيراً وأخلف.

حانت ساعة تنفيذ الحكم، وقصد إدارة التجنيد لتسليم نفسه. عرّج على (أم السرجين)، ورافقه قريب إلى المدينة التي سيمضي فيها سنة الخدمة الإلزامية. يقع معسكر التدريب وسط سبخة. تصبب العرق منهما أثناء نقل الفراش إلى السطح، هرباً من حر الردهة الاسمنتية، ثم خرجا في جولة سريعة في المعسكر، وأصر القريب على مرافقته إلى السطح لوداعه. وجدا ملاءة الفراش البيضاء مسوّدة، لا بالسخام، بل بالخنافس والحشرات. نكث الملاءة وحمل الفراش إلى الردهة. ذكّره المنظر بولع (أبي الجعل) بالحشرات، لو كان هو مكانه لما قرف من المنظر واضطراره للنوم على الملاءة بعد تلوثها. في تلك الليلة نام (أبو الجعل) في فراشه النظيف، وفي غرفة خاصة لا ردهة لعشرين مجند، وأطفأ أنوارها متى ما شاء، وشاهد برامج التلفزيون أو استمع لموسيقى، وخلا عقله من الهم والغم. حسده على غرفته ولو كانت قميئة وعلى فراشه وإن لم يكن وثيراً وعلى بعده عن البلد الظالم أهله. كان (أبو الجعل) في بريطانيا يكمل دراسته فنجا من الجندية.

أفاق على صوت البوق، ووقف أمام الحمام المشترك بانتظار دوره. كان حمام سكن الطلاب المستجد رفاه مفرط مقارنة بحمام الثكنة. تراكمت قاذورات السنين على جوانبه وسقفه ومغاسله حتى اسودت، وتعفن هواؤه برائحة نفايات بشرية متفسخة. وقف بطابور آخر لاستلام الإفطار: كوب شاي أسود، منقوع في برميل للنفط، وصمونة يابسة. بعدها بدقائق اصطف في ساحة الاستعراض. أساحت الشمس اللاهبة عرقه بانتظار اطلالة قائد الثكنة الجديد. سمع صوته الغاضب قبل رؤية سحنته القبيحة. سبقه مرافقه الجندي "سلاح سز"، أي معفي من حمل السلاح لذلك يسخرونه للخدمة. خرج باكياً مولولاً، وطالباً العفو من سيده وواعداً بعدم تكرار جريرته. تبين أن الجريرة برود أسياخ الكباب التي أحضرها فطوراً لسيده الضابط، فكان جزاؤه صفعات وركلات وشتائم بذيئة. أخيراً ظهر القائد ليحذرهم من غضبه المستطير لو خالفوا الأوامر أو تهاونوا في التدريب. قائد كتيبة مدرعات سابقاً، تشاجر مع ضابط آخر على حظوة جندي مخنث، لم يحكموا عليه بسنين

في الحبس أو يطردوه مجرداً من شرفه العسكري نقلوه إلى معسكر التدريب عقوبة له، فكان أول ضحاياه المرافق سيء الحظ.

ارتدوا الملابس العسكرية والأحذية الثقيلة، إلا شاباً ضخماً من عائلة مربي الجواميس، لا يظنه نفس الصبي الذي اغتصبه المعلم الشيوعي أمام زملاء صفه. حشر جسمه في البزّة العسكرية لكنهم عجزوا عن إيجاد حذاء بمقاس قدميه. قضى الأيام الأولى من التدريب حافياً. لسعت قدميه رمال الساحة الحارة، وانهالت عليه شتائم وصفعات المدربين الساديين فبكى بحرقة طفل. تألم (الأثرم) لبكائه ولعن معذبيه. بعد أيام اختفى.

في اليوم الأول وحتى ما قبل الأخير تدرّبوا على السير العسكري المنتظم، إلى اليسار وإلى اليمين، ودر إلى الوراء وإلى الأمام سر والتراصّ. المدرّبون أكراد، يعاونهم نائب عريف من حارات العاصمة، اكتملت بهم حلقة الموت. يدرّب الأكراد الجنود ثم يرسلون إلى الشمال ليصرع المتمردون الأكراد المنحوسين منهم، تنقلهم شاحنات مكدسين فوق بعضهم البعض، حتى الذبائح تعامل بطريقة أجلّ. سرعان ما ترأس الأكراد نائب ضابط، حزبي ترك الدراسة والتحق بدورة سريعة لأمثاله فقط. ناصبه العداء. كان يلتذّ بتعذيبهم بالهرولة حول الساحة. أبطأ (الأثرم) يوماً عن اللحاق بالركب فزجره نائب الضابط الحقود، وحذره من التهاون في تنفيذ الأوامر، فلا شفاعة لشهادته الجامعية. قالها الفاشل في الدراسة بسخرية وتشفي. لا غرابة في ظل حكم الأوغاد من بائع الثلج ونائب العريف وزعيمهم السفاح.

أزعجه يوماً استدعاء قائد الثكنة. توقع أسوء الاحتمالات. واحتار لطلبه الركوب معه في سيارته العسكرية. ساقها بنفسه حتى مبنى مقر الفرقة. استقبلهما ضابط برتبة عقيد. رحّب به بحرارة، وعرّفه بنفسه. تبين بأنه قريب (اليقطينة المزروفة) من الدرجة الخامسة. وعده بالمساعدة لو واجه أي مشكلة. كلامه تحذير مبطن لقائد الثكنة أيضاً. لولا قريب والدته لما عرف قريب والده بوجوده، ولا يظنه سمع به من قبل.

بعد انتهاء الدوام في ظهيرة يوم خميس اكترى سيّارة أجرة لتقله إلى (أم السرجين) لزيارة قريب والدته وعائلته. أثناء انتظار حصول السائق على رخصة الانطلاق من المشرف النقابي صعد إلى المقعد الخلفي رجلان بملابسهما القبلية. خاطب أحدهما الآخر:

- انظر لأنفه الضخم. شبيه بأنف أبيه.
- وله نفس المظهر المتعجرف.

نزل (الأثرم) من السّيّارة وصفق الباب خلفه. ناد السائق عليه فلم يلتفت، واكترى سيّارة أخرى.

في الأسبوع التالي اشترى مسدساً صغيراً من جندي شاركه الردهة، تحسباً لمواجهة محتملة أخرى مع كارهي (اليقطينة المخرومة). عندما يحقد القبليّ يفقد عقله تماماً. قبل الانصراف أخبرهم نائب العريف بأن الضابطِ في طريقه لتفتيش ردهتنا وخزانات الجنود بحثاً عن الممنوعات، وطلب منهم الخروج من الردهة والانتظار خارجها. تيقن باكتشاف المسدس المخبأ في خزانته والعقاب الصارم الذي ينتظره جزاء حيازة مسدس غير عسكري داخل ثكنة. بعد دقائق أخبرهم نائب العريف بانتهاء التفتيش وعدم العثور على ممنوعات. أضاف متوجهاً له بالكلام بأنه فتش خزانته بنفسه. قبل سفرته التالية إلى العاصمة سأله عما يحتاجه فزوده بقائمة. اشترى طلباته ورفض استلام أثمانها.

في أول فرصة سلّم المسدس لقريبه الذي ضحك من جهله بالأسلحة، فالمسدس أقرب إلى لعب الأطفال، ولا فائدة له من دون رصاص.

في أول الشهر تدفع الرواتب، لا تكفي لكروة الأجرة بين المعسكر والعاصمة. حضر شاب غريب ليقبض ويوقع، ثم غادر، وتكرر ذلك كل شهر. دفعه الفضول ليسأل عنه. قالوا بأنه مثلنا ملزم بالخدمة العسكرية، لكنهم أعفوه من الحضور والتدريب، وبقيت الشكليات، وتلك كانت دية أبيه. الأب ابن شيخ قبيلة معروف، كانت له صولات في العهد الملكي، والأب القائد صديقه، أو هكذا ادعوا. ذهب أبوه إلى القصر الجمهوري، بدعوة من الأب القائد. وصل في وقت متأخر، فأخذوه إلى غرفة نوم، وربما تمنوا له ليلة هانئة. في

الفجر اقتادوه للإعدام. اتصلوا بعائلته وقبيلته ليبلغوهم بأنه أُعدم بالخطأ، وأبدوا استعدادهم لدفع دّيته، فرفضوا المال وطلبوا اعفاء ابنه من الخدمة الإجبارية.

في المدينة القريبة فندق صغير، بنته الحكومة، وأجرته لمتعهد. تناول فيه طعام الغداء، طعامه جيد، والأفضّل من ذلك هواء المكيف البارد. نصف ساعة بددت الحرارة التي اختزنها بدنه أثناء الهرولة والسير المنتظم في ساحة التدريب الرملية. أجرة المبيت متهاودة، وللشهر الواحد مخفضة. نوى استئجار غرفة، ليرقد فيها ساعات بعد انتهاء الدوام وقبل العودة للمبيت في المعسكر، ولكنه بحاجة لنقود أكثر من راتب الجندية.

في زيارته التالية لعائلته، طلب من (اليقطينة المخرومة) نقوداً لاستئجار الغرفة، فأجابه بأن أبناء (أم لسان الزِفِر) استولوا على أراضيه ولا يعطوه سوى الفتات. جوابه نصف الحقيقة، لديه دخل منتظم من أجرة مبناه، ومؤخراً أكمل تشييد بيت (أبي الجعل)، أحدث وأفخم وأكبر بيوت أبناءه ومطلّ على النهر. تحول إلى (الملطومة)، وهي الأخرى ادعت بأنها لا تملك نقوداً، وسيتأكد بعد سنين بأنها خذلته أيضاً. اقترح عليهما الانتقال إلى بيت (أبي الجعل) ليتسنى له تأجير بيته القديم، فرفضا. لن يسكن أحد في البيت الجديد قبل (أبي الجعل)، أعلنتها (الملطومة) بنبرة قاطعة غير معهودة. فضّلت ابنها الذي طعنها بالموسى في صغره، وتمرد عليها وابتعد عنها، فغدا الأعزّ عندها. في سورة غضب حمل المذياع القديم وقذفه إلى الأرض فتهشم. خافا ووافقا على الانتقال.

بعد أسبوع نقل الحمالون أثاث البيت إلى الطابق الأرضي من بيت (أبي الجعل). النصف المقابل للشارع قبو والنصف الثاني مطل على الحديقة، أما الطوابق العليا فمحرمة عليهم، ما عدا غرفة نوم واحدة شغلها (اليقطينة المخرومة)، تلك مشيئة (الملطومة). في الصباح طلبت منه الصعود إلى الطابق الأعلى مؤقتاً، لأن (اليقطينة المخرومة) يريد نقل آخر مقتنياته إلى غرفته. استغرب الطلب فألح عليها بالسؤال عن هذه المقتنيات السرية، فأجابته بعد تردد بأنها كنز (اليقطينة المخرومة). أخيراً تأكد وجود الكنز. سمع به في طفولته. وسأله عنه أحد الأقارب الخبثاء، ونشروا إشاعة بأنها ثروة بالملايين. ختل أعلى

الدرج وشاهده من مكانه الخفي يجرّ وراءه كيساً من الخيش. لا بد أنه كان ثقيلاً ليجرّه بدلاً من حمله.

أجرّ البيت لعائلة من المنطقة الشرقية، تربطهم قرابة عشائرية بالطغاة الجدد، لكنهم من حزب منافس. استأجر غرفة في الفندق القريب من الثكنة. قضى فيها ساعات بعد الظهر تحت برد المكيف.

حان دوره للخفارة الليلية. ظلّ مرتدياً ملابسه العسكرية وحاملاً رشاشة الكلاشينكوف طيلة الليل. تدرب على تفكيكها وتركيبها من دون اطلاق رصاص في الأسابيع الماضية، وحفظ كلمة المرور السرية. جاءت نوبته وسط الليل. ينتابه شعور بالوحشة والكآبة كلما تذكّر تلك الساعات، بالصورة والصوت، فيسترجع منظر الردهة المعتم وجدرانها المكوية بحرارة الأمس ونباح كلاب من وراء السبخة وأزيز حشرات تتهافت على الضوء الخافت والموت السريع. بعد انتهاء نوبته الأولى استلقى بملابسه العسكرية على السرير، وغفي لدقائق ثم صحا فزعاً على حركة وطنين داخل أذنه. أطار النوم من عينيه احتمال وجود حشرة داخل أذنه، واسترجع كل خرافات القرويين حولها. ستخترق طبلة الأذن فيصاب بالصمم وإن لم يقتلها الشمع ستنقب طريقها داخل رأسه حتى دماغه، لتقتات عليه حتى يجنّ ويموت. دس إصبعه داخل الأذن ليخرج الحشرة فازداد هيجانها وطنينها. قفز من فراشه ودار حول نفسه. ضغط بشدة على أذنه كما يفعل عندما تدخل مياه فيها، من دون جدوى. بحث عن عود ليدسه في أذني. كان مستعداً للمخاطرة بالصمم ليتخلص من الحشرة. مرت دقائق بثقل ساعات من الألم والذعر، ثم تدريجياً همدت الحركة وخف الطنين وبعد قليل أفرزت أذنه أشلاء الحشرة.

في المساء وقبل موعد النوم تبادل أفراد السرية الأحاديث والقصص، وكل الكلام مباح إلا السياسة. سأله بعضهم عن حياته في الغربة، فروى لهم بعض أحداثها، وكتم الكثير، وربما اختلق مواقف ليترك انطباعاً جيداً. تجنب أحدهم لأنه مخنث، كما وصفوه، ودّلت مشيته وحركاته وصوته على شذوذه. في إحدى الأمسيات حكموا عليه بالتوقيف لأيام،

وفي مقر الثكنة قاعة مخصصة للتوقيف. توسل البعض إلى نائب العريف ليسجنهم معه، وبرطلوا الجندي المكلف بمراقبة القاعة لإطفاء النور، وفي العادة يترك مضاءاً طيلة الليل. كانوا ينوون اللواط بالمخنث، برضاه بالطبع.

اقترب موعد انتهاء التدريب. بقي تمرين أخير. تجمعوا في ميدان الرمي، وجاء دوره لرمي عدة طلقات من الكلاشينكوف، أخطأ الهدف الكرتوني. أثناء العودة ساروا بانتظام ثم قبل الوصول هرول السائرون أمامه وتركوه. سمع صوت رئيس العرفاء الكردي الغاضب، ثم شعر بقبضة يده على ظهره ودفعة قوية إلى الأمام طالباً منه اللحاق بالصف الفوضوي. كانت ردة فعله جنونية، واستغرقت ثواني. بتلقائية استدار وأنزل الرشاش من على كتفه متخذاً وضع الطعن بالحربة المثبتة على الرشاش. قفز الكردي إلى الخلف. لو تلكأ لثواني لكانت الحربة قد بقرت كرشه. أزبد وأرعد وهجم ليضربه، فأمسك به نائب العريف وآخرون. أقسم الكردي على احالته إلى محكمة عسكرية وسجن طويل الأمد، لكنه تراجع عندما عرف بأن ابن عمه وزير في الحكومة.

انقضت الأشهر الثلاثة وانتهى التدريب، وساد التوجس النفوس، بانتظار أوامر الوجهة التالية. الأسوأ نحو الشمال، حيث يتربص بهم الأكراد المتمردون. بعد صدور البلاغات اصفرّت وجوه واستبشرت أخرى. ارتسم الرعب على وجه المحتال الذي باعه المسدس الخردة، وبرزت عظام وجهه النحيل، فازداد بشاعة. أخفى شعوره بالفرح والتشفي. لكثرة الظلم الذي لحق به من البلد الظالم أهله وغيرهم صار التشفي العلاج الوحيد لنفسه المكلومة.

شفعت له الشهادة الجامعية. نقلوه إلى وحدة إدارية في معسكر بالعاصمة. كلفوه باستنساخ معلومات عن أدلة أسلحة روسية، مهمة سخيفة جديرة بخريج ابتدائية. شاركه المكتب خريجان من جامعة محلية وطابع آلة كاتبة يرتدي صليباً مذهباً. كان الملل القاسم الوحيد بينهم. نأت بينه وبينهم حواجز اجتماعية ونفسية. لبى دعوة وحيدة للطابع. أخذه إلى بيت صديقه، ورحب بهما وزوجته، وقدمت لهم ابنتهما المراهقة

العصير. ذكرته تنورتها القصيرة بأستاذ الفلسفة في الجامعة. وولعه بتلميذاته ذوات الفساتين القصيرة الجالسات في الصف الأول في صفه. أرابه سلوك العائلة لحد الشك في كونها داراً للدعارة.

من أول يوم ناصبه ضابط صف الوحدة العسكرية العداء، لواحد من أسباب محتملة أو أكثر : شهادته، رفضه الانضمام لحزبه أو مذهبه. حرص على الحضور وأداء واجباته ليتقي شرّه. كان خفيراً عندما حدثت محاولة انقلاب، وتمنى (الأثرم) التشفي بخبر مقتله، لكنه نجا ليعاود اضطهاده. أخيراً اهتدى إلى مبرر اقتنع به عقله الصغير: بنطال (الأثرم) غير مطابق للمواصفات العسكرية، فاستبدله.

يومها أتمّ ثلاثة شهور أخرى، نصف مدة الخدمة الإلزامية. حضر شركاء المكتب الثلاثة. أخرج طابع الآلة الكاتبة فطوره وطلب من الساعي أكواباً من الشاي. بدأ (الأثرم) باستنساخ مصطلحات قطع غيار الدبابات الروسية. أثار فضوله تهامس الخريجين. تحدثا عن الإعفاء من اكمال الخدمة مقابل بدل نقدي. صدر القرار، وسيعلن عنه في الأيام التالية.

بعد أيام أعلن القرار. سافر إلى (أم السرجين) لدفع المبلغ. وقف غير بعيد يراقب مدخل إدارة التجنيد المزدحم. بعد قليل تعالى صوت غاضب من داخلها، ثم خرج أحدهم وفي يده نطاق عسكري غليظ، وانهال به على المتزاحمين، فتفرقوا حتى خلا المدخل. صبر حتى خف الزحام قبل تقديم الطلب. سحبه الضابط بخشونة، ورمقه بنظرة استياء، ثم وقعه وختمه.

سرعان ما يتبخر الشعور بالارتياح، فالثكنة حبس رهيب صغير وسط سجن يمتد بطول وعرض البلاد استعجل الهروب منه، ولأن موعد بدء الفصل الدراسي اقترب، لكن دون ذلك جولات على مكاتب وموظفين أجلاف، توسل منهم تصريحاً بالسفر، ولا موافقة بدون كفالة، وكأنهم يدركون أن الخارج مولود والعائد مفقود. لا يجد من يواسيه سوى (ك) من رواية القلعة لكافكا. هو الآخر تردد معه على المكاتب، ووقف تحت لهيب الشمس، واستمع بصبر لشتائم الموظفين المتعجرفين. أخيراً وجد ابن عم مستعد لكفالته. في انتظار

التوقيع والختم خرج رجل ببزة عسكرية من غرفة جانبية. اقتحم جمع المنتظرين بيديه وصدره وبسباب بذيء، فتفرقوا مذعورين. وقف في وسط الغرفة ليعلن بأنه كان يقاتل الأكراد في الشمال دفاعاً عن المدنيين الجبناء. سحبه ابن عمه إلى ركن بعيد هامساً بأذنه بأن ضراوة القتال والرعب أودتا بعقل الضابط فلا يسلم أحد من شروره. بعد انصراف الضابط عاد الهدوء وأبرمت الكفالة وانصرفا فيما بقي (ك) ينتظر.

بعدها بأيام غادر إلى الجامعة. رفضت إدارة التسجيل القبول بعذره، واكتفوا بتأجيل التحاقه للفصل التالي. أيادي الطغاة الذين هرب منهم طويلة، امتدت حتى شاطئ البحر المتوسط وحرمته من فصل دراسي، لتكتمل سنة كاملة من دون دراسة.

جلس مع همومه في مقهى الأنكل سام. لاحظ النّادل حالته فسأله عن سبب استياءه، فأجابه. صادف في تلك اللحظة دخول مدير التسجيل مع آخر. تذكّر بالضبط مكان جلوسه في الطاولة الوسطى القريبة من النافذة المطلة على شارع بلس. تركه النّادل وذهب لأخذ طلب المدير ومرافقه. رأه يشير إليه ليقترب. توسط لدى المدير ليرضى بمباشرته الدراسة، فوافق. ليس بالإكراميات وحدها ربح مودّة النادل الذي تطوع للتوسط له، بل بالاحترام والمعاملة الطيبة والكلمة الحسنة.

سأله فلسطيني عن انطباعاته في الجندية. كان متلهفاً لسماع كلمات تعيد الأمل لنفسه التواقة للعودة إلى وطنه. صارحه بالحقيقة فبدت خيبة الأمل على وجهه. زميله من عائلة معروفة. في كل لقاء يختبرهم بأسئلة عن مصطلحات علمية أو حقائق تاريخية وجغرافية، ويبتهج عندما يقرّون بجهلهم، فيلقي محاضرة قصيرة عنها. اكتشفوا بأنه يقرأ كل يوم صفحة أو أكثر من الموسوعة البريطانية ويحفظ محتوياتها للمباهاة.

حضر (أبو الجعل) فجأة، بمعية أستاذه المشرف. انصب اهتمامه على إسكان الأستاذ الإنجليزي وراحته. ولم يبد أي فضول لمعرفة تفاصيل ضياع ستة أشهر من حياته في الجندية، وغادرا بعد أسابيع.

نصحوه بالاجتهاد لينجح. وصفة غير مجدية أحياناً. جرب طريقة أخرى في تلك السنة: جهد قليل وفذلكة متوسطة وهرطقة وقحة أحياناً. ساعد الكثير من الزملاء، أعطاهم دروساً مجانية، وراجع وصحح تقاريرهم الجامعية، وعندما طلب منه صحراوي تغشيشه في امتحان رفض فترجّاه الجلوس بزاوية منحرفة تمكنه من قراءة إجاباته. بالغش أو غيره جمع المليارات وصار قدوة لطالبي الثراء. نجح (الأثرم) معظم الأحيان، إلا مع أستاذ أمريكي، أغاظه بوضع كتاب ماو الأحمر على منضّدته في كل محاضرة، تعبيراً عن رفضه لسياسات بلد الأستاذ. ظن الأحمق بأنه فعلاً من أتباع ماو، لكن معلومات استخبارات الجامعة كانت أدق، في ملفه الخاص داخل درج تحت برج الساعة صنفوه ثورياً من دون انتماء حزبي. فكانت أعز على قلبه من شهاداتهم.

لا يهدأ التشاؤم، يغلق كوات الأمل، ما ظنه الأسوأ سيأتي الأردأ منه، فدعك من الابتهاج، وتقبل التعاسة، حتى تدمن الكآبة. لم يمهلوه طويلاً، فبعد عام أو أكثر بأسابيع اتصل (بمقدساتي). تعجب فلا سابقة اتصال بينهما. طلب حضوره الفوري، لأن أزمة تعصف بالعائلة. شاخ (اليقطينة المخرومة)، ويخشون من سوء تدبيره للأرض، فيخسر الجميع، ويضطر (أبو الجعل) وهو للعودة من دون اكمال الدراسة. اختاروه لأن (أبا الجعل) لا يستطيع قطع دراسته. تبرير (بمقدساتي) مجحف، فهو أيضاً في المرحلة النهائية من إعداد بحث الشهادة، ولا يستبعد أثناء غيابه سفر الأستاذ المشرف عليها في زيارة طويلة لجامعة أخرى أو مركز أبحاث، أليس هو الأكبر سناً وأجدر بالمهمة؟ جادل نفسه وخسر.

الجندية له لا لـ(أبي الجعل)، وكذلك زراعة الأرض، فلا يلومه أحد على التشاؤم والاعتقاد بالنحس.

اِزرع وخاطر بحياتك

غادر في أول رحلة متاحة، ووصل البيت في ساعة متأخرة من الليل. لم يأت أحد لفتح الباب، حتى حسب أن الجرس معطل، فصار يدق بقبضة يده، وبدأ يستعرض في عقله أفضّل مكان في الساحة الأمامية لقضاء الليلة، ثم انفتح الباب، وبعد سلام مقتضب صعد إلى فراشه لينام.

أفاق في وقت متأخر من الصباح. وجد (الملطومة) جالسة بجانبه. قبّل يدها. سألته عن أحواله مراراً، وطمأنها بأنه بخير، لكن نظراتها لم تقتنع فراحت تجوب ملامح وجهه باحثة عن تأكيد لكلامه. حكت له حلمها:

- لم يخبروني بقدومك. حلمت الليلة برؤيتك طائراً على حصان أبيض ثم هبطت في البيت.

أي حصان هذا يا أم، وأنت خوفته من ركوب الحمير وكل الدواب والدراجات الهوائية ونهيته من الاقتراب من النهر وقنوات الري وصعود النخيل والدعس على رماد الموقد؟ ومنذ أن أكملت ترويضه على الذلة والمسكنة ما عاد الفارس المنقذ الذي تصدى لشليلة بالسب والدعاء على خالها بالهلاك حتى تابت عن رمي فضلات البقر على بابك ونتف شعر شقيقتها الصغرى لأنها لطمتك على رأسك.

بعد السلام اشتكى (اليقطينة المخرومة) من أبناء (أم لسان الزفِر). يريدون الاستحواذ على أملاكه، أو ما تبقى منها بعد مصادرة الحكومة مساحات كبيرة منها. لا أظنه كان يعوّل عليه لاستنقاذها. هم رعاة الغنم في قاموسه وهو الخريج أصغر أبنائه الذي لا "يتخرج" كما تصفه (الملطومة).

قبل التوجه إلى (أم السرجين) أوصته (الملطومة) بالحذر من أخوته:

- لو ضيفوك لا تشرب ولا حتى كوب شاي وأياك أن تتناول طعامهم.

- لماذا يا أمي؟

- أخشى أن يطعموك مخ المطيّ.

اعتقد القرويون أن من يأكل أو يشرب مخ الحمار يصاب بالعُتِه. فلو خَرِف أحدهم أول ما يتبادر لذهنهم أن عدواً سقاه شربة مخ الحمار. أحجم عن مخالفتها، ووعدها بتنفيذ وصيتها. يا ليتهم يكتسبون شيئاً من تحمل وصبرّ الحمار ودفاعه القوي عن نفسه عندما ينفذ صبرّه، ورفسة واحدة من قائمتيه الخلفيتين كافية لإرسال رجل إلى حكيم بدوي أو حتى القبر. ولعل بعض رجالهم يغارون من الحمير مثل ذلك المفتي الصحراوي الذي حرّم على نساء قومه ارتياد اسطبلات الحمير المدجّنة والوحشية في حدائق الحيوان لئلا يشاهدن عضوه منتصباً فتهيج شهوتهن.

في (أم السرجين) قصد قريب والدته في مطحنته. لسنين من قبل استأجر طاحونة (اليقطينة المخرومة). بعد تنازل (اليقطينة المخرومة) عنها لابنه (العرقجي) طرده . أعطته (الملطومة) حليّها الذهبية ليرهنها في المصرف ضماناً لقرض اشترى به مطحنة حديثة تشتغل بالكهرباء. بعد سنين سدّد القرض وأعاد حليّها.

اصطحبه لزيارة (بمقدساتي). استقبلهما في غرفة كبار الضيوف. أول بيت شيّده (اليقطينة المخرومة)، سموه قصر الحجي. قضى فيه سبع سنين من طفولته وصباه، وذكرياته عنه بائسة. بعد هروبهم إلى العاصمة سكنه (بمقدساتي) وأمه وأخواته، ثم تملكه كهبة من أبيه. أهملوه حتى انكشط صبغ جدرانه واهترأ أثاثه وسجاده.

حيّرته حفاوة (بمقدساتي)، وتوقيره قريب والدته وكأن هو وأخاه (أبا العرق) لم يطردوه من المطحنة من قبل. كلما أطالّ النظر في سحنته تراءى له وجه (أم لسان الزِفِر)، وقد بشَّعه الحقد والغضب، ثم رأه كما هو، أسمر قصير القامة في أحد عينيه حول بدأ صغيراً ثم اتسع بمرور السنين. ودّ لو كان في آخر الارض حتى لا يرى هذا الذي تتهمه (الملطومة) بقتل شقيقه، فلا يضطر لمخاطبته بأخيه وبكلام رقيق.

اشتكى الابن من عناد أبيهما، ورفضه تسليم البذور، حتى فات موعد بذار الأرز. لا يثق (اليقطينة المخرومة) برعاة الغنم من أبنائه، وأولهم (بمقدساتي) لذلك استدعوه ليشرف على الزراعة فيوافق على تسليم البذور وتشغيل المضخات وتوزيع السلف على الفلاحين. اتفقا على تكليف أحد وجهاء القبيلة بأمور الزراعة اليومية.

أصرّ (بمقدساتي) على استضافته في بيته، ووافق بعد تمنع، وعلى الرغم من صدى صوت (الملطومة) في عقله يحذره من مخ الحمار المدسوس في طعام وشراب (بمقدساتي). أسكنه في غرفة الضيوف، بلصقها المرحاض الذي حاول فيه أخ آخر من رعاة الغنم اغتصابه.

تقاطر الفلاحون على مخزن البذور، وتولى الوكيل الزراعي توزيعها. وجلس (الأثرم) غير بعيد يرد السّلام ويستلم طلبات السّلف الزراعية. تغيرت النظم والزمن ولكن طقوس الزراعة لا تتغير. يتبارى المالك والفلاحون حول أيهما ينال حصة أكبر، ولو استدعى ذلك الكذب والقسم حتى بالإمام العباس. يطلب الفلاح أكثر مما يحتاجه من البذور ليبيع الفائض أو يستهلكه. بعد أعوام قلائل أهلك الكذب العديد منهم وفقد البصر آخرون بعد تناولهم بذوراً مسمومة بمبيدات الحشرات. نفذت توسلاتهم إلى قلبه فتغافل عن ظنون عقله. كتب أحدهم بأن العالم مسرح ونحن ممثلون نؤدي أدواراً من أجل البقاء، والناجح من يمتلك القدرة على اقناع الآخرين والتمسح بأنياب الأقوياء بالكذب والتملق. حتى الجامعة مسرح كبير، تحصل الدرجات فيه باختلاق الأكاذيب حول موت الأقارب وبرطلة الأساتذة بصور خلاعية والجلوس في أحضانهم وأكثر من ذلك لو تطلب الأمر.

نقصت البذور ولا بد من شراء المزيد من التجار. أجمعوا على أن لا نقود لديهم للشراء أو للسّلف، فاضطر لدفعها من أجرة بيته القليلة.

طال مكوثه في بيت (بمقدساتي) فعرض قريب والدته استضافته في بيته، فلم يعترض الأحول. أضجره في تلك الأيام بأسئلته الفلسفية، وكأنه أراد التباهي بثقافته، وليبرهن بأنه ليس مجرد راعي غنم خرج من خصيتي (اليقطينة المخرومة). سأله يوماً:

- لماذا كتب سارتر عن التبول؟

يعرف (الأثرم) القليل عن الفلسفة الوجودية، ولا جواب بينها لسؤاله الغريب، ولكنه تذكّر بأن سارتر أحول أيضاً، ولعله سبب اهتمامه بالفيلسوف.

بيت قريب (الملطومة) متواضع. استضافوه في غرفة الاستقبال. فرشوا له على سجادة، للنوم والجلوس. المرحاض قريب من المدخل والوصول إليه يتطلب استئذاناً. بذلوا جهدهم لتأمين راحته، وأخجلوه بكرمهم. ودّ لو لم يثقل عليهم. قضى أياماً وساعات رتيبة وكئيبة، لا كتب للقراءة، والمنظر الماثل من خلال باب الغرفة اطلالته الوحيدة على العالم. في صغره سمحت له (الملطومة) بقضاء ليلة في بيته. احتفوا به، وبعد مخض لبن بقرتهم أطعموه زبدة لبنها الدافئة المكسوة بطبقة كثيفة من السكر وقرصاً من الخبز المحمر من فوهة التنور إلى فمه النهم. في الليل نام على سرير تحت الكلّة، وانتابه حنين طاغ إلى (الملطومة) وفراشه المعتاد. بكي بحرقة وسمع القريب بكائه فصارحه بوحشته. حمله على كتفه وسار به في سواد الليل غير مبال بكلاب الحراسة التي أطلقها الجيران من سلاسلها، وقرع الجرس حتى خرجت (الملطومة) لاستلامه.

سمع بوصوله فحضر ليشتكي غبن (اليقطينة المخرومة). هو واحد من عدة أخوة يشتركون في حيازة أراضي مجاورة. ادعى أن (اليقطينة المخرومة) استغل خلافات الأخوة واشترى مساحة غير قليلة من أراضيهم. عامله باحترام وتهذيب فانطفأت حدة غضبه. بعد انصرافه أخبره قريب والدته بأن صراع الأخوة على الأرض بلغ حد التقاتل بالبنادق.

تأكد له بعد أقل من شهر أن الوكيل الزراعي يأتي ليستمع لتوجيهاته ويتظاهر بعزمه على تنفيذها ثم يذهب إلى (بمقدساتي) ليأخذ منه الأوامر فيعمل بها. التقى (الأثرم) به صدفة وعزم على مفاتحته بموضوع الوكيل المتمرد فأخبره بأنه منشغل باستقبال ضباط في مخابرات النظام الذين يترددون بانتظام على منزل أخيه (القمرجي) للعب القمار، وسيطلب منهم التوسط لإطلاق سراح إثنين من أولاد العم متهمين بالانتماء لحزب محظور، وعقوبتهما الإعدام لو ثبتت عليهما التهمة.

قرر استبدال الوكيل بآخر من وسط القبيلة ومن أقارب والدة أحد رعاة الغنم من أخوته. غضب (بمقدساتي) وطالب بقسمة الأرض. أخرج وثائق بيع صورية لأخواته وأمه (أم لسان الزِفِر)، وقعها (اليقطينة المخرومة) لتجنب استيلاء الحكومة على المزيد من أراضيه. أيده (الأملس) والد زوجته. عند القسمة كشرّ (الأملس) عن أنياب الخيانة، وخيّر (الأثرم) بين أرض مهملة يصعب سقيها أو البقاء مع الشركاء (بمقدساتي) و(العرقجي) و(القمرجي) ومغتصب الأطفال والرضا بإدارتهم للأرض، فرفض البديلين.

بعدها بأيام واجه قريب والدته (الأملس) في مكتب محاماة قريب من الجسر، فلامه:

- حجي! كيف ترضى بأن يتمرد أبناء أخيك على أبيهم ويسلبونه أرضه الذي تعب في شرائها واستصلاحها وهو الذي دفع ثمن أراضي أبنائك.

انتفض (الأملس) مدافعاً عن خيانته:

- أنا خدمته مقابل ذلك طيلة هذه السنين. كنت مجرد أجير عنده.

كان (الأثرم) ثالثهما في سفراتهما المتكررة لمدن المراقد، وعامله (اليقطينة المخرومة) بمودة لا كما يُعامل الأخ غير الشقيق الأقل نصيباً في إرث والده. لولا (اليقطينة المخرومة) لكان (الأملس) وشقيقه طريدين مشردين. لأول مرة في حياته خالف (اليقطينة المخرومة) أوامر شقيقه (المكوي)، وبدلاً من حرمان أصغر الأخوين وطردهما من ديرة القبيلة اقتطع من أرضه حصة مجزية لهما وزاد عليها بالشراء. كانت خيانة (الأملس) انتقامه المؤجل، ولأن (اليقطينة المخرومة) شقيق (المكوي) واستقوى أبناء (أم لسان الزِفِر) عليه اختاره هدفاً سهلاً لانتقامه، وعند القبليين الوارثين لأعراف الجاهلية القبلية إن لم يكن ظهر القاتل أو الظالم مكشوفاً لطعنات خنجرك فانتقم من أخيه أو أبيه أو ابنه.

عاد إلى العاصمة، واكترى سيّارة أجرة لإحضار (اليقطينة المخرومة)، ليمثل أمام الحاكم الإداري للناحية والرد على شكوى (بمقدساتي). اِلتمس في عريضة الدعوى تمكينه من الأرض التي زعم شراءها من أبيه. من قبل استولى (القمرجي) على سيارته وباعها وتقاسم الثمن مع أشقائه. ادعى أمام أقاربه بأنه باع السّيّارة لأنها تسببت بتيه أبيه

الخَرِف مرات عديدة، وبشهادة السائق. في كل مرة ترجّل (اليقطينة المخرومة) من السّيّارة في مكان اختاره، وانتظره السائق ساعات، وعاد بدونه. اعتاد الأب التائه الاستعانة بأحد المارة وبقصاصة ورق دون عليها عنوانه ليعيده إلى منزله بسيّارة أجرة، أما ثمن السّيّارة فاستبقاه ليشتري به أغراض بيت وأدوية أبيه. صدق في تيهان الأب لكنه كذب في مصير ثمن السّيّارة. تقاسمه مع أشقائه أبناء (أم لسان الزفِر).

لا الأرض ولا السّيّارة ولا كل ما أنفقه (اليقطينة المخرومة) ملأت عيون أبناء (أم لسان الزفِر)، وحتى تراب اللحد لن يملأ العيون النهمة، لأنهم كالدجاجة تموت وعيناها على المزبلة. جاء الثلاثة يوماً لا للاطمئنان على صحة وراحة أبيهم بل للاستيلاء على البقية الباقية من نقوده. روت (الملطومة) تفاصيل تلك الزيارة المفاجئة بعد غياب طويل. اقتادوا (اليقطينة المخرومة) إلى غرفة الاستقبال، بعيداً عن أنظار ومسامع زوجته. لا تعرف ما دار بينهم من حديث، لكنه أخبرها فيما بعد بأنه سلمهم كنزه، المتكون من "شذرات"، ولكنها لا تعرف قيمة هذه الأحجار الكريمة الثمينة. قبل مغادرته مرّ عليها (القمرجي). بدا فرحاً وقال:

- لم يتبق لنا شيء عندك!

تصدر مدير الناحية المجلس وراء مكتبه، موظف صغير بسلطات قاضي. وبلصقه (بمقدساتي)، وفي آخر المكتب جلس (الأثرم) و(اليقطينة المخرومة). توجس من هندسة توزعهما حول مكتب الحاكم المحلي. لن يكون أول أو آخر مرتشي في منطقتهم. فالوظيفة في الريف إقصاء وأحياناً عقوبة، ولا شيء غير الرشوة يجعلها محتملة. في العهد الملكي اعتاد (اليقطينة المخرومة) اهداء القضاة وموظفي الإدارة المحلية أكياساً من الأرز الفاخر كل عام. يردد القرويون رواية القاضي الذي نظر في دعوى فقير على غني، وقبل الجلسة رشاه الغني بحفنة من الليرات الذهبية، فما أن جاء دور الفقير ليعرض مظلمته تلجلج في الكلام فنهره القاضي قائلاً: ليكن كلامك في حضرتي مثل رنّة الليرات الذهب، ورد دعواه.

طلب الحاكم من (بمقدساتي) عرض شكواه، ثم سأل (الأثرم) عن هويته، فأخبره بأنه أحد الأبناء، وقطع دراسته ليشرف على زراعة الأرض وبطلب من (بمقدساتي)، وبين له أن الأرض والبيوت ملك الأب، وزعها على أبنائه واستبقى حصة له، ويريدون الآن الاستيلاء عليها. استولى الغضب على لسان (بمقدساتي)، فما عاد ينطق مثل رنّات الذهب ولا حتى الفضة. هدد بإقامة دعوى لوضع (اليقطينة المخرومة) تحت الحجر ومنعه من التصرف بأمواله. صرخ به حاكم المنطقة:

- لو سمعت منك مثل هذا الكلام مرة أخرى فسأصدر الأمر بحبسك فوراً.

خرس (بمقدساتي) وتأبط عباءته وخرج. شكر (الأثرم) حاكم الناحية وغادر مع أبيه.

في المساء جلس (الأثرم) في مقهى بانتظار قريب والدته. تقدم شاب وعرّف بنفسه. ابن العم القتيل المتهم بتدبير قتله أحد أبنائه. طالبه بإرجاع حصته وأخوته من إرث أبيه، وادعى أنها وديعة عند (اليقطينة المخرومة)، فأخبره بجهله بالموضوع، ولو كانت هنالك أرض مودعة فعلمها عند (بمقدساتي). صارحه بأن (بمقدساتي) هو من نصحه بمطالبته. اقتنع أخيراً بأن (بمقدساتي) خدعه ليصرفه عن مطالبته بإرثه فانصرف.

بعد أيام ذهب لتفقد القليل المتبقي من أرضهم الزراعية. جلس في مبنى مضخة للماء بانتظار وصول الوكيل الجديد. شاهده يسير مع الأخ الذي حاول اغتصابه. بيد الأخ عصا غليظة. افترض أنها لطرد كلاب الحراسة الضّارية. ما أن اقترب الأخ حتى رفع عصاه وهجم عليه قائلاً:

- ماذا تفعل أنت هنا؟

اعترضه الوكيل. وسارع لنزع عقاله الغليظ، سلاح القرويين لتأديب العصاة والمعتدين، ثم شهر مسدسه، تفاجأ الأخ بردة فعل الوكيل، قريب والدته، فابتعد وهو يتمتم بكلام غاضب غير مفهوم. اعتذر الوكيل وأقسم بأنه لا يعلم بنية الأخ، ولو علم لما سار معه. أخذ أحدهم المسدس من الوكيل ودسّه في يد (الأثرم):

- لو هجم عليك أحد استعمله!

تبين أن الأخ مغتصب الأطفال اجتمع بأخيه (العرقجي)، قبل محاولة الاعتداء على (الأثرم)، وأغلب الظن أن (أبا العرق) حرضه على التهجم عليه. لا يتورع مغتصب الأطفال عن القتل وبعد سنوات قتل رجلاً من القبيلة حضر أمام بيته ليشتكي من تعسفه. أشاع الأقارب بأن صلات الأخ القاتل مع مخابرات النظام أنقذته من حبل المشنقة. في اليوم التالي نصحه قريب والدته بالمغادرة إلى العاصمة فوافق.

عاد مقهوراً. راكم الخسائر والخيبة. أضاع نصف سنة دراسية، وطُرد من أرضه. لاحقه الإحباط. لعلهم سمعوا بهزيمته المذلّة. لم يأتوا لمواساته. خنسوا في سيّارة قريب، وقدموا الشرطي. سلمه خطاب من المحكمة. انفجر مرجل الغضب داخله، وقذف بسيل من الشتائم البذيئة على أمهات الخانسين في السّيّارة. توعدوه بالانتقام لو عاد إلى (أم السرجين)، فوعدهم بلقاء قريب. قبل سنين حضر أحدهم لمقابلة (اليقطينة المخرومة). أبلغه بأنهم وافقوا على زواج اختهم من استاذها نزولاً عند رغبتها، فلا يفكر بالاعتراض. الأستاذ ملحد، يردد في مجالسه بأن أبا جهل أعظم من محمد، لأنه من نخبة قريش ومحمد راعي غنم. عينه (الطاغية) سفيراً فانقلب عليه. استولى على أموال السفارة، ولجأ للصحراويين الوهابيين، الذين تغاضوا عن كُفره وسرقته.

عاد إلى القبو، واستلقى على فراشه. تصدّع رأسه بالغضب. في الشارع غمّ وفي البيت أصله. تقاطروا على الغرفة، تبعهم (اليقطينة المخرومة) وجلس على كرسي أمامي، رأس المصائب كلها، زوج الأربعة وأب رعاة الغنم وصاحب الاصبع الغاصب الفاجر. جمع كل غضبه وصبه عليه. كانت تلك ثاني مرة، بعد المواجهة أمام مقهى الجبل. سبّ أمه لأنه يعرف مدى تعلقه بها، وهمّ بالهجوم عليه ليضربه، لولا حال بينهما زائر من الأقارب.

أشتعل بالغضب ثم انطفأ فندم. يرونه ضعيفاً، لا مثلهم، يتعوذون من القلب القاسي، لكنهم لا ينظرون في قلوبهم ويتحسسون قساوتها.

للخلاص من مصائب الأهل ذهب للاستعانة بواحد منهم، بيت القريب في زقاق معتم، هواءه مضمخ برائحة مجاري قديمة، وأرضه رطبة بمياه وسخة. لا يحجب المارة عن داخل

أبواب بعض الدور سوى ستائر رقيقة، تخرج من خلالها أحاديثهن وخطابهن الغاضب لبزورهن. لو مررت ببطء في الأزقة لعرفت الكثير من أسرار ساكنيها.

فتحت الباب امرأة في أواسط العمر. رطنت بالفارسية، وعند سماعها باسم قريبنا أدخلته غرفة. أجلسه بجانبه على سجادة. بعد كلمات الترحيب المعتادة وجه كلامه للمرأة بالفارسية. اختفت لدقائق وعادت بأقداح الشاي. خادمة أو زوجة مؤقتة أو الوظيفتان. ذكرته بزينب، الإيرانية صاحبة النزل. لم يكن نزلاً بالمعنى الدقيق بل غرفاً في بيتها تؤجرها في المواسم. مقارنة بزينب (الملطومة) شبح امرأة. في صوتها الجهوري خُنّة، سجلها دماغه. أثناء اقامتهم في بيتها وقع حدث غريب، روت تفاصيلها (الملطومة). قالت:

- فردت فراشك فنمت طيلة الليل. في الصباح همّمت بطوي الفراش لأنضده في زاوية الغرفة كالعادة. رفعت المخدّة فوجدت تحتها عقربين أصفرين سّامين.

لا بد أنها ارتعبت، وربما صرخت مستنجدة فلم يأت أحد. جاءت بعصا وندست بها العقربين، كررتها ثانية وثالثة، فبقيا هامدين. تأكدت بأن العقربين ميتان، فتخلصت منهما. تصف الحدث بالمعجزة، فهي مدت الفراش لليلة السابقة، ولو كان العقربان خاتلين داخله لرأتهما، فلابد أنهما تسللا في الليل، وماتا تحت المخدة. موت عقرب واحد بهذه الطريقة صدفة نادرة لكن موت عقربين معجزة أنقذته من موت محقق بلدغة عقربين صحراويين سّامين.

خرج من بيت القريب بوعد بالمساعدة.

حلّ موعد الحصاد. اضطرّ (الأثرم) لتأجير آلة حصاد، فما عاد الفلاحون بعد الانقلابات العسكرية يحصدون بأيديهم، وحاصدة (اليقطينة المخرومة) سرقها أبناء (أم لسان الزفِر) مع ماكنة الحراثة وباعوهما. نصيبه و(اليقطينة المخرومة) و(أبي الجعل) ملأ زاوية من مخزن للحبوب. انتظر بيعه واستلام حصّته ليواصل دراسته. أتى قريب (الملطومة) ليخبره بأن ابنه باع المحصول وقبض الغلّة وهو عاجز عن استرجاعها. أصابته نوبة هياج نتيجة

اليأس والإحباط، أثمرت عن تسليمه ألف دينار. يشك بأن (الملطومة) دسّتها في يد قريبها ليسلمها له. بالكاد يكفي المبلغ نفقات دراسة (أبي الجعل)، زاد عليه من أجرة البيت وحوله إلى الشقيق الشقيّ. لم يبق سوى بيع بعض مقتنيات البيت، آخر ما يلجأ إليه المفلسون. قصد شارع السنجق أو ربما السمرهد حيث تكثر دكاكين بائعي السّجّاد، وعرض على أحدهم شراء بعض سّجّادات البيت. حضروا من دون تأخير، وعرضوا عليه المحتالون مبلغاً زهيداً، مشترطين ألا يتصل بأحد غيرهم، وإلا فلن يشتروها. لم يكن ينوي ذلك أصلاً، خجلاً من معرفة الناس بضيق يده واضطراره لبيع أثاث البيت. كانت السّجّادات ملعبه في الصغر. تصور علبة كبريت سيّارة فاخرة عليها، ونقوش السجادات العريضة جادات، وألهمته غاباتها وغزلانها مغامرات حررته من مخبئه تحت جناح (الملطومة) الخانق في بيت كالسجن. ظلّت غزلانها وفيّة لا مثل ذلك الغزال الصغير الذي أهداه شيخ طيب لوالده، فأسكنه في الحديقة، حاول التقرب منه يوماً فنفر منه، وخاف منه، ثم ترك أحدهم الباب الخارجي مفتوحاً فهرب، لكن طول حبل حريته وعمره كان قصيراً، أمسكوا به وأعادوه ليذبح ويؤكل.

ودع سّجّاداته وغزلانها وقبض ثمنها وسافر إلى الجامعة.

وفاة (اليقطينة المخرومة)

كلفه طقم أسنان عيرة جديد ثابت معظم ثمن السّجّاد، لا يزال صامداً بعد خمسين عاماً، باطنه ذهبي، قد يغري دفان على اقتلاعه وبيعه بعد وفاته. جاءت الأسنان الثابتة متأخرة جداً، كان الخوف من اكتشاف أسنانه المتحركة قد تجذر في نفسه. حرمه الابتسام والضحك ملأ الشدقين، وأحجم عن الحديث مع طالبات الجامعة لئلا يتعثّر لسانه بطقم أسنانه فيبرز من فمه، وتصور المنظر المبكي المضحك، وتمثل له كابوساً في أحلامه.

عكف على اطروحته فأنهاها بسرعة وتخرج، لكن شهادتين لا تكفيان لكفّ شرور البلد النكد وحكامه الطغاة وعائلته وصروف الدهر.

درس في النظام الجامعي الأمريكي ست سنوات، فمن المنطقي اكمال دراسته العليا في جامعة أمريكية، لكن شاء وشاء الحكام، ومشيئتهم العليا. حظروا الدراسة في أمريكا، بسبب خلاف حول النفط، كان أقرب إلى زعل بين أحبة من خصومة أو عداوة. لم يتحمّس للجامعات البريطانية. تقضي سنوات فيها ثم يفاجئوك بأنك غير جدير بالشهادة أو يمنحونك شهادة أدنى. استعانت به ابنة ملك صحراوي سابق في مراسلة جامعات بريطانية، فقبلتها أوكسفورد وكمبردج ولندن، لا لسجلها الدراسي الباهر بالتأكيد.

عاد إلى بلد (الدهن والدبس) للإعداد المرحلة القادمة من دراسته. وجدهم غير الناس الذين تركهم قبل عام. حتى أنهم تبادلوا الأدوار، الرئيس تابع والتابع رئيس. أحسّ بأن وجوده بينهم أخل بتوازن القوة ولخبط الأدوار، وتمنى لو كان بعيداً كل البعد عن تلك المشاهد المأساوية، التي مكانها في مسرحية يونانية كلاسيكية لا في البيت الذي ينتظر (أبا الجعل). مكانه هنا بدلاً منه، ليشاهد وتسقم التراجيديا نفسه.

غلبت الشيخوخة على (اليقطينة المخرومة)، وظهر الخرف في كلامه وتصرفاته. شعر ذقنه عمره أيام ومن قبل لا يمرّ يوم من دون حلاقة. بلى ورقّ ثوبه من كثرة الغسل. الباب

الخارجي مقفل لئلا يزوغ من رقابة (الملطومة) فيخرج إلى الشارع ويتيه. يحتج فتتجاهله أو تنهره. تصرخ به لو وجدت ملابسه ملوثة. توبخه وتجره بخشونة من يده إلى الحديقة، وتعرّيه من ملابسه، وتغسله بماء خرطوم السقي. لا تكترث لصراخه وشكواه من برودة الماء، ولا تبالي بانكشاف عرّيه لابنه ولعيون الجيران المتلصّصة من نوافذهم المطلة على حديقتنا الخلفية. ارتاح (الأثرم) بعد قبولها بغسله في زاوية في الحديقة الأمامية مستورة عن أعين المارة والجيران.

- سقوه مخ المطيّ.

رددتها (الملطومة) بثقة مطلقة، لا تقبل الجدل، ولن يقنعها كل أطباء المدينة بالخرف. جريرة أخرى أضافتها إلى سجل جرائم (أم لسان الزِفِر) وبزورتها. لوث مخ المطّي عقل زوجها، وهي تتعذب بخرفه أيضاً، لكنها سأمت دور القدّيسة المظلومة. أزاحت (اليقطينة المخرومة) من محراب الرب الثاني كما كانت تسميه، وجلست محله، رّبّة الأسرة. تأمره وتزجره وتوبّخه وتعرّيه. ولا إهانة للرّب الثاني السابق أشد وأمرّ من التعرية. أشفق على الإثنين وأحجم عن منافستها على السلطة، لكنه أسمعها عدم رضاه عن طريقة معاملتها لزوجها، فتعذرت بعجزها عن العناية به وتدهور عقله بسبب مخ المطيّ.

يجهل مفعول مخ الحمار، ولا يظن عالماً سيجري بحثاً عليه، لكنها حكت له عن مأساة (اليقطينة المخرومة) الجديرة بمنافسة الملك لير في فصولها، فشّخص سبب إصابته بالخرف أو على الأقل التعجيل به.

تكررت زيارات (المخبول) عندما شاخ وعجز (اليقطينة المخرومة)، وكان يأتي للمطالبة بنقود، ويغادر ساخطاً لأن أباه افتقر بعد نهب أولاده من (أم لسان الزِفِر) أراضيه ومدخراته وحتى سيارته. ذات يوم أغبر مثل كل أيامهم افتعل شجاراً مع (اليقطينة المخرومة)، بسبب معاملته لوالدته (القهرمانة)، ولو كان بالفعل حنوناً على والدته لأسكنها معه وأكرمها. كعادة (المخبول) حمل حذاءه، وانهال على رأس أبيه ضرباً، ولا بد أنه يلبس أحذية بدون قيطان، ليسهل عليه نزعها واستعمالها.

لم يُضرب (اليقطينة المخرومة) من قبلها بالحذاء، لكنه لم يسلم من اعتداء أولاده، ولعله تذكّر بأنه لم يبرّ أباه، ولم يكن أبوه قاسياً مثله، ولو كان شديداً لما تمرّد عليه (المكوي) و(اليقطينة المخرومة) ومدخن الجروت. اتفق الثلاثة على مقاطعة أبيهم شيخ القبيلة، لكنهم لم يذهبوا بعيداً عن أراضيه الخصبة، والتي كانت محط أطماعهم، واكتفوا بالانتقال إلى الضفة الأخرى من النهر. قاد (المكوي) التمرد ليس لأن الجد كان إنساناً قاسياً أو بخيلاً بل لأنه متدين وطيب. لأن الطيبة مذمومة في غابتهم البشرية، والتمرد على الاباء تقليد ثابت في عائلتهم المتوحشة سواء كان الأب شديداً وقاسياً مثل (اليقطينة المخرومة) أو طيباً مثل الجد.

لم تكن تلك أول مرة يتعرض بها (اليقطينة المخرومة) لاعتداء من أحد أبناءه. من قبل الصفع بحذاء (المخبول) أطلق (العرقجي) نيران بندقيته الرشاشة فوق رأس أبيه لإخافته فقط، حتى لا يعود لأرضه ثانية، ويستولي الابن على غلتها. عندما جرّأته الحاجة للعودة تكفّل به (بمقدساتي). حل ضيفاً في بيت (بمقدساتي)، كان أكبر قصور (أم السرجين)، وثاني بيت شيّده (اليقطينة المخرومة)، وكل بيوت أبناء (اليقطينة المخرومة) شيّدها أو اشتراها هو بنفسه، وكانوا مثل علق اِلتصق بجسده، امتصوا دمه وعرقه حتى تورموا ثم أهلكوه، أو هم أشبه بفراخ العقرب، متى ما كبروا ونشطوا نهشوا أمهم.

كانت ليلة ماطرة حولت الطرق الترابية لمدينة (أم السرجين) إلى سواقي جارية ومستنقعات، وقبل العشاء أو بعده وبالتأكيد قبل أن يخلد الأب إلى النوم في غرفة الضيوف في قصره الذي تكرم به على ابنه (بمقدساتي) افتعل الابن الأحول مشاجرة مع أبيه الهرم، ولم تنته بطرده من البيت. سار الأب في الطريق المهجور، تصفعه الريح، وينقع عظامه المطر، حتى كلاب الحراسة الشرسة اخافها النَّوء، خنست في أوجِرتها، ولم تنبحه أو تخرج لتطارده. كان (اليقطينة المخرومة) ينوي العبور إلى الضفة الأخرى، واللجوء لبيت أخيه غير الشقيق (الأملس)، ولم يدر وقتها أن أخيه شريك (بمقدساتي). قبل بلوغه الجسر لحق به (بمقدساتي). روى شاهد من أهالي (أم السرجين) بأنه رأى (بمقدساتي)

يجرجر أباه من شعره وجبته ليرميه في النهر الهائج، ويصعب على المستمع تصديق مثل هذه الرواية، أن يُقدم الابن الذي عاش وكبر ونكح وأنجب وربى وتنعم وقامر بفضل مال أبيه على قتله، سألوا الشاهد:

- هل أنت متأكد؟ الوقت ليل والظلام دامس والمطر شديد والريح عاصفة...

فيقسم لهم بالله والأنبياء والأئمة. كان (بمقدساتي) منهمكاً بسحب أبيه نحو النهر فلم يشعر بوجود الرجل الغريب إلا بعد حين، وقبل أن يولي (بمقدساتي) هارباً رفع رأسه فشاهد الغريب ملامح وجهه في ضوء مصباح الشارع عند حافة الجسر. ساعد الغريب (اليقطينة المخرومة) على النهوض، ومسح عن وجهه الطين، ومشى معه حتى بيت ابن عمه.

ينتظر الأبناء في عائلتهم حتى يهرم الأب ثم ينتقمون منه، باستثناء واحد على الأقل. عوّد الأب ولده شرب الخمور. جمعت الأمسيات بين الأب والابن والمشروبات المسّكرة، وبعد عدة قناني من العرق (أبو كلبجة) يسّكر الاثنان، وتسقط الرسميات بينهما، ولا يعود للأب هيبته واحترامه. حرص الأب على سمعته أمام الناس فجلس في بيته ليشرب ويسّكر، وفقد هيبته أمام ابنه. يشرب الابن في الليل فيزداد تهوراً وطيشاً، فيخرج لسرقة بقرات الفلاحين الفقراء، و(سبع الليل) كنية اللصوص بين القبائل، ومن يحللون الفرهود في النهار يعجبون بشجاعة اللصوص في الليل، فلو قتله صاحب البيت أو حارس الجماعة فلا ثأر ولا ديّة. بعد مرحلة اللصوصية انحدر الابن إلى القتل، وعزم على قتل أبيه، لكنه خشي على نفسه من انتقام أعمامه فاستعان بقاتل مأجور. كانت ليلة ظلماء، خرج فيها الأب لقضاء حاجته بجانب البيت، وبيت القريب السّكير خال من المراحيض، وبعد قليل دوى صوت الرصاص. لم يمهله القاتل حتى يقوم من محل الخلاء، أطلق عليه ست رصاصات، ومن مكان قريب، فلم يخطئه، ثم انسلّ هارباً بين البساتين تحت جنح الظلام. تحامل الأب المصاب على نفسه، وجرجر أقدامه إلى داخل البيت. نطق بكلمة واحدة: قتلوني! قبل أن يسقط جثة هامدة أمام زوجته المولولة. وقعت مسؤولية الثأر من القاتل

على (اليقطينة المخرومة)، هو الآخر كلف قاتلاً محترفاً بالمهمة، أجرته عشرة دنانير فقط، نفذها بدقة، لكنه قتل أخ القاتل، ففي الجريرة تشترك العائلة والعشيرة، أفحكم الجاهلية تبغون؟ رددت ألسنتهم كلمة لا لكن أيديهم قالت نعم منذ أربعة عشر قرناً وحتى اليوم، قبل هلاكه تاب القاتل المحترف وسافر لأداء العمرة.

استحوذ جرو سائب على اهتمام (الملطومة). اعتاد التسكّع عند أول الشارع. بعد الظهر تعود قريبة لوالدتي من وظيفتها، وتتحاشى المرور بجانبه. يتبعها بهدوء. تزجره فلا يرتدع، فتضطر أحياناً لعبور الشارع إلى الرصيف الآخر. يشيعها حتى مدخل البيت ثم يختفي. اشتكته إلى (الملطومة)، فصممت على التخلص منه. شاهدها (الأثرم) واقفة وسط الحديقة الخلفية، تحمل بيدها قضيب حديد ثقيل بشكل مسمار لولبي، مصدره والغرض منه مجهولان، لكن (الملطومة) مولعة بتخزين ما تقع عليه يداها، حتى التالف والمتروك. في غرفتها أدوية ضغط الدم انتهت صلاحيتها قبل أعوام، وما زالت تتناولها يومياً، وتحمل (اليقطينة المخرومة) على ابتلاعها قسراً. وفي المستودع الواقع فوق مخزن الصرف الصحي مؤونة أعوام من الأرز والسكر والشاي والمنظفات، ورفضت التخلص منها حتى بعد تعفنها. التقت نظراتهما، وظلت واقفة والحديدة متدلّية من يدها حتى اقترب وشاهد الكلب الصغير جثة هامدة. استدرجته إلى الحديقة وأهوت على رأسه بالحديدة. تركها للتخلّص من جثته. صدم بقسوتها. ذكّرته بأطفال (أم السرجين) الساديين المتلذذين باصطياد الكلاب والقطط السائبة وسحلها حتى الموت والقفز فوق صَدَفات السلاحف المتجولة بين النهر والبساتين حتى تخرج أرواحها مع فسائها. حاولت تبرير فعلتها: خافت على قريبتها من الدهس بسبب الجرو، الذي ألجأها الذعر منه إلى عبور الشارع. لو عضها الكلب أو حتى طاردها بنباحه لربما قبل تبريرها، ولو رمته بحجر مرة واثنتين لولّى هارباً وأدرك أنها صنو أصحابه الأصليين الذين تركوه لقسوة (الملطومة). وأين كانت حميتها عندما حاولت (أم لسان الزِفِر) وخنوصها قتله بالفطام المبكر وكادت أن تنجح بزنبرك الساعة؟ ولا يظنها تجرأت حتى على معاتبتهم. بعد القبض على السفّاح (أبي طبر) في العام التالي

تذكّر مقتل الجرو. خلافاً لشهرته لم يستعمل طبراً في قتل ضحاياه بل قضيباً مثل القضيب الذي استعملته (الملطومة) في قتل الجرو. سهد سكان العاصمة في تلك الأشهر خوفاً على حياتهم من السفّاح، ونسجوا الأساطير حول هويته وقدراته الفائقة في التملّص من الشرطة. كان امتحاناً لرجولتهم وسقطوا فيه.

اشتدّ المرض على (اليقطينة المخرومة). أمسك برأسه متوجعاً، وقضى النهار في فراشه. أخبرته (الملطومة) بأن أخيه (الأملس) زاره قبل مجيئي، ووجده على ذلك الحال. أدار نظره بين أخيه المريض الراقد على فراش رثّ، والأريكة المستهلكة وقد برزت من جوفها رفاصاتها:

- هذا أنت! كيف؟

رددها كالمشدوه ثم انصرف ولم يريهم وجهه مرة ثانية.

هاتف (القمرجي)، وأخبره باستفحال مرض أبيه وحاجته لفحوصات في مستشفى. ولو كان لديه مبلغاً كافياً لأدخله المستشفى على نفقته، فأجابه باستهزاء:

- هل تعبت أمك من تمريضه؟

كانت تلك كلماته بالحرف الواحد، بعد أقل من عشر سنوات سيصاب بجلطة قلبية تقعده البيت حتى وفاته. بعد أيام حضر ابن (بمقدساتي)، طالب في كلية الطب، خمن أن (القمرجي) أرسله ليتأكد من صحة كلامه وربما ليطمئن بقرب وفاة أبيه. طالب الطب أسمر البشرة مثل أبيه. من لا يعرفه يظنه خلاسياً. ضغط على اظفر اصبع قدم جده ثم غادر.

في الليلة التي عجز (اليقطينة المخرومة) عن رفع رأسه عن المخدّة ، مشى (الأثرم) إلى منطقة قريبة، وترجّى طبيب عام الكشف على (اليقطينة المخرومة). قاس الطبيب ضغطه، وداواه بإبره. أخبره بأن حالة (اليقطينة المخرومة) سيئة.

بعد يومين أُختبر (الأثرم) بموقف عصيب. توزعوا الثلاثة في القبو، (اليقطينة المخرومة) راقد في فراشه داخل غرفته، و(الملطومة) واقفة أمام باب غرفته الموارب، و(الأثرم) عند أسفل الدرج. صوت تنفس (اليقطينة المخرومة) غير اعتيادي، لا يشبه

الشخير، وتخوف من الأسوأ، لعله يحتضر. رمقته (الملطومة) بنظرة حادة، لا بد أنها قرأت ما يدور في عقله، وبلهجة آمرة تعلمتها مؤخراً خاطبته:

- اصعد إلى غرفتك ودعه ينام!

لعلها قصدت: دعه يموت. تردد في تنفيذ أمرها، لم تتقن بعد دور الأم المتسلطة، وثوبها المهلهل غير مناسب للدور، خيطته عندما كان بصرها قوياً، ومن أول محاولة تنظم الخيط في سمّ الإبرة، وقبل أن يترهل جسمها فتتشوه ثيابها. أوصدت باب الغرفة وكررت أمرها. أطاعها وتمنى فيما بعد لو لم يفعل.

في الصباح توقف صوت تنفسه. طلب (الأثرم) سيّارة إسعاف. وضعوه على سدية وسخة، وصعد معهم داخل السّيّارة. تبين له بأنها للنقل فقط، فلا أجهزة إنعاش أو مصل للوريد. عند مدخل الطوارئ استوقفهم شرطي مسلح برشاش، ورفض السماح لهم بالدخول إلا بعد مراجعة مكتب الأمن والحصول على ترخيص. أقنعه السائق بالتساهل معهم. انتظر أمام غرفة الإنعاش. بعد قليل خرج طبيب ليخبره بأن (اليقطينة المخرومة) توفي. بعد سؤاله عن تحصيلي الدراسي وبخه بشدة لأنه لو نقله قبل ساعات لربما استطاعوا إنقاذه. لو صّبر عليه لأخبره بأنه أصغر أبناءه، المسلوب القوة والإرادة، بفعل التذلّل والتسلط والاصبع الفاجر، ونفاذ صبر الأم حتى أرادت الموت له، وظلماً اتخذته شريكاً صامتاً لها. لو استعاد قوة ذلك الطفل المتحدي الشاتم في (أم الجواميس) لنحاها جانباً ونقله إلى المستشفى. وبأي وقاحة تعاتبه أيها الطبيب في بلاد (الدهن والدبس) الخائبة وسيّارة اسعافكم لا تصلح إلا لنقل الموتى، ومسعفيها تجاهلوه وانشغلوا بتناول فطورهم؟

ساخت قدماه من تحته وجلس يبكي والدي. بعد قليل خرج من غرفة جانبية وجه مألوف، زميل سابق من اليمن. يأس من الطب في الجامعة الأميركية فرحبت به عصابة الحكام مقابل الانتماء لحزبهم. واساه وسأل عن أحواله. عند باب القبو عاد العجز لقدميه، فولولت (الملطومة). اجتذب صراخها الجارة المؤجرة لبيته، تحامل على قدميه وجرجرها إلى الطابق العلوي.

في المشرحة، حضر وبعض الأقرباء وغاب أبناؤه. ألقى آخر نظرة عليه، قسمات وجهه مسترخية، وحتى ثوبه البالي لم يقلل من مهابته. ارتاح وأراح أبناءه، (بمقدساتي) الذي حاول قتله ولم يغفر له كلماته الجارحة "أنت خرجت من خصيتي"، و(أبا العرق) الذي ودّع أبيه أمام مضيف القبيلة في (أم الجواميس) بصلية من بنادق أزلامه التي اشتراها لهم الأب من قبل لعل الصدمة توقف خفقان قلب الكهل، وما حضر (القمرجي) لأن المشرحة لا تتسع لمائدة القمار وأصدقاءه مخبري النظام ليلعبوا برتيتة على روح الأب، وغاب مغتصب الأطفال لأن الموت يهيّج لعثمته، وخنس (المخبول) في بيته المبني بنقود الأب لا حياءاً من العاجز الذي صفعه على رأسه بحذائه في آخر لقاء بينهما بل لأن حقده عليه بركاني، لا يخمد حتى بعد الموت، بل يكمن ثم ينفجر.

استعدوا لحمله ووضعه في التابوت. تلكأ (الأثرم) لعلهم يستثنونه من حمله، لكن أحدهم لم يمهله. دفنوه في مقبرة العائلة بجانب شقيقيه. أقام أبناء (أم لسان الزفِر) عزائين، في العاصمة و(أم السرجين). أول مرة قُرأ القرآن في بيت (القمرجي). سأله (الأملس):

- ألم يترك (اليقطينة المخرومة) مالاً ليصرف على عزائه؟ وهل سألت والدتك؟

أجابه بالنفي، فرمقه بنظرة غير مصدّق وابتعد، وكأن ما صرفوه على عزاء (اليقطينة المخرومة) ليس من أفضاله أو المنهوب من أرضه.

بعد انتهاء العزاء بأيام قليلة وصل (السلبوح). غاب سبعة أعوام، قضى معظمها في الفشل الدراسي، وتبذير آلاف الجنيهات من مال أبيه. لم يذهب من المطار إلى قبره ليترحم عليه، ولا يظنه استدلّ على القبر أو يحفظ آية واحدة. حضر من دون زوجته الأجنبية، ولحقه (أبو الجعل). بعد التحسر على ما فاته من بيت فاره مثل بيتي (القمرجي) و (أبي الجعل) أو حتى منزل (الأثرم) القديم المتهالك غضب (السلبوح) وطالب ببيع واقتسام ثمن مبنى اشتراه (اليقطينة المخرومة)، ليزداد ثمنه وتستفيد عائلته من عوائده. كان يحصّل

الأجرة بنفسه، وبعد الخرف توقف. أذعن الورثة لطلب (السلبوح). استعانوا بابن (الأملس) لإتمام البيع، هو صنو أبيه في الخداع. تلكأ في دفع حصة (أبي الجعل) فتشادا.

استلم (السلبوح) و(أبو الجعل) نصيبهما من البيع وغادرا على عجل. وفرّ له البيع مبلغاً كافياً لإكمال دراسته. احتار بين هولندا وبريطانيا. قبلته جامعة أوكسفورد لكن لا أحد من أساتذتها أبدى استعداده للإشراف على موضوع بحثه. أخيراً وقع اختياره على جامعة بريطانية أخرى في مدينة صغيرة.

نزل في فندق متواضع بالمدينة. في اليوم التالي خرج للتجوال في المدينة، وبعد الغداء وجد حقائبه مبعثرة أمام مدخل الفندق، وقد أُتلف سحاب إحداها فبرزت محتوياتها من ملابسه. عاتب مدير الفندق فرد عليه بفظاظة الإنجليز. شكّ بوجود صلة بين فوز محمد علي كلاي واشهار إسلامه قبل ساعات وطرده من الفندق. كان متردداً في الدراسة في هذا البلد ذي الماضي الخبيث بعد استماعه لتجربة زميلي دراسة من الكويت. الأول ذهب للسياحة فبرز له أحد حليقي الرؤوس العنصريين. تقصّده من بعيد وعندما اقترب منه سدد له لكمة أوقعته أرضاً، والثاني ذهب للدراسة فأوصلوه إلى حافة الجنون. تلوث عقله بالحقد الدفين عليهم، ونفسّ عنه في شوارعهم. سار حاملاً مظلته ليغرزها في أقدامهم ومؤخراتهم، وان التفتوا اعتذر لهم بكل لطف.

انتقل إلى فندق آخر، دفعته أجرته الباهظة إلى الإسراع في البحث عن شقّة. الشقق المعلنة في الجريدة المحلية قليلة، ومالكوها يرفضون تأجيرها لطلاب أو لأجانب مثله. رضي مرغماً بشقّة قميئة في طابق أرضي، مرحاضها في فجوة تحت الدرج، وللوصول إلى الحمام يسير عدة خطوات في الحديقة الخلفية في البرد القارس أو تحت المطر أحياناً. الغرف في الطابق الأعلى مؤجرة لمخنث من عائلة ثرية وعانس خمسينية مشاكسة وآخرين. يشتركون في حمام واحد، ويتطلب تسخين ماء الاستحمام وضع نقود في عدّاد الغاز الخاص بالحمام. بعد أسابيع ادعت العانس بأن أحدهم سرق ماء استحمامها الساخن، وطالبته بتعويض لأن

فاتورة غاز شقته تشمل حمامهم. وعليه دفع الفاتورة وتحصيل النقود من عدّاد غاز الحمام. بعد شهرين عرض مالكها شقة أفضّل فقبلها دون تردد.

في الجامعة حالفه الحظ. من أول شهر توصل إلى تفاهم مشترك مع أستاذه، واستمر ذلك حتى التخرج. لا مفر من لقاء بعض الدارسين من مواطنين وعرب. العربي الوحيد نجدي مبتعث، تفاخر بأنه افتضّ بكارة تسع فتيات ولم تبق سوى واحدة ليكمل هدفه الأسمى. الأربعة من بلاد (الدهن والدبس) مبتعثون، وحرص على تجنبهم. اثنان منهم مخبران، والثالث سيكون ضحية وشاية أحدهما. بعد سنتين طردت الجامعة الرابع المسالم. لأن العودة من دون شهادة عار سيعرّضه للسخرية. انتقل إلى جامعة في ويلز، لا تتشدّد في القبول والتقييم.

جامعة (أبي الجعل) في مدينة قريبة، مسافة نصف ساعة في الحافلة العمومية. تكرّرت الزيارات بينهما. علاقتهما أبرد من شتاء الإنجليز. سكن هو في غرفة، مع عشيقته الممرضة، تكبره بسنين، مكتنزة مثله، مطلقة ولها ولد معاق عقلياً، أودعته مركزاً للعناية الخاصة. بكت بحرقة لأنها تأمل بالزواج من (أبي الجعل)، لكنها تشكّ في جدّيّة العلاقة. صارحه بأنه: "يتسلى"، وسخر من فكرة الزواج منها. الزيارات قصيرة، لأن غرفتهما باردة. في جهاز تدفئتها حصالة، يلقمها (أبو الجعل) نقوداً معدنية لتشتغل. يضطره بخل (أبي الجعل) للبقاء بملابسه الشتوية الثقيلة طيلة الوقت، وتجبره الكآبة السائدة بين الإثنين على اختصار الزيارة. في إحدى المرات حضر في الموعد وقرع جرس باب الغرفة مرات قبل فتحه الباب.

شقته الصغيرة محطة استراحة للمسافرين من أقارب وأصدقاء. كلما حضر أحدهم تتوقف دراسته، وتضيع أسابيع أو أيام ثمينة. ذهب مكرهاً مع أحدهم من بلاد الصحراويين إلى مدينة ساحلية صغيرة. أراد شراء كوب مثلجات. استبق شاباً في صف الانتظار، عمداً أو سهواً، فغضب الإنجليزي ووصف النجدي بالخنزير. توقع (الأثرم) رداً عنيفاً من الصحراوي، الذي اشتهر بتنمره، لكنه بلع الإهانة وسكت.

ازدحمت المدينة الصغيرة بثلاثة آخرين من العائلة. وكأن قوة خفية جذبتهم لينغصوا حياته. أولهم ابن (المكوي) مع زوجته الثانية وابنة الزوجة الأولى. تبعه ابن أخيه مع زوجته الحامل، ثم اكتمل النصاب بمجيء (السلبوح). ترك ابن (المكوي) ثروته الموروثة من والديه، وجاء من أجل برامجهم التلفزيونية. هكذا أجابه عندما سأله عن سبب هجرته. استأجر بيتاً في الضواحي، واشترى دكاناً صغيراً. رافقه في جولة قصيرة على أرفف البضائع، وشاهد أسلوبه في الترحيب بزبائنه. عاملهم بتعالي كما عامل فلاحي أرضه. كان من الصعب عليه تقمص تواضع البائعين، ولو بالتظاهر فقط، لكنه معجب بذكائه التجاري. يقبض من موردي الخبز والمعجنات ثمن بضاعتهم غير المشتراة آخر اليوم، وهم لا يهتمون باسترجاعها، فيبيعها في الأيام التالية. شاهد (الأثرم) ابنته للمرة الثانية. أول مرة كانت رضيعة في حضن أمها قبل فقدانها الأم بساعات. ساق بتهور كعادته في طريقه بين مدرستها وبيته، غير مكترث لأبواق السائقين الغاضبين. لا يشرب الخمور لكنه مولع بالقمار، واعتاد المراهنة على سبق الكلاب. كانت زوجته متجهمة طيلة الوقت، وكلامها قليل. وبعد سنوات قليلة نفذ صّبرها، خسر الإثنين، زوجته بالطلاق وابنته بزواجها من أجنبي في الكنيسة، وأدمن ولداه من الثانية المخدرات.

حفيد (المكوي) متزوج من ابنة (العرقجي). لوثته بيئة العائلة الموبوءة بالمفاسد. طلب منه أبوه شراء بندقة صيد وتهريبها. في ألمانيا الغربية وجد البندقية. فككها وخبأ أجزاءها داخل سيّارته، وساق بها عبر حدود العديد من الدول حتى أوصلها إلى أبيه. لو اكتشفت شرطة الحدود البندقية لحكموا عليه بالحبس لمدة طويلة. شجعه نجاح تجربته في التهريب على السفر إلى لبنان. ترك زوجته وابنته مع عائلته، وغادر ولم يعد. في البقاع اللبناني تزوج من فتاة لبنانية، واشتغل مع عصابة لتهريب الحشيش، ثم اختلف معهم فقتلوه، كما سمع (الأثرم) من أقاربه. رفضت عائلته الاعتراف بزواجه الثاني، وحرموا اللبنانية من حصتها في الإرث. تزوج أخوه من أرملته ابنة (العرقجي).

هبط الأقرباء على المدينة الصغيرة، وأحضروا معهم أحقاداً قديمة. بعد أسابيع دعاه (السلبوح) إلى الغداء في شقته. وعده بالحضور لكن من دون غداء. عرّفه على زوجته الأجنبية، وجلسا يتحدثان فيما انهمكت الزوجة بإعداد الطعام. لا يتذكر مواضيع الحديث. قام هو وزوجته لتناول الطعام وبقي (الأثرم) جالساً. قال له بأنه لم يعده بتناول الغداء على مائدته. أصرّ وعاند، ثم غادر.

أُبلغ (الأثرم) بحاجة (الملطومة) لعملية عاجلة في عينيها لعلاج بصرها الكليل. توقع هبة (أبي الجعل) لنجدة أمه، لكنه رفض السفر متذرعاً بسيّارة المرسيدس. شمله ما يسمى بقانون الكفاءات، أصدرته حكومة الطغاة لإغراء أصحاب الشهادات العليا بالعودة، تمنحهم الحق في استيراد سيّارة وأثاث وغيرها من دون رسوم جمركية. اتفق (أبو الجعل) مع تاجر على مدّه بثمن السّيّارة ليبيعها له فيما بعد بربح ضئيل. شحن السّيّارة لا يتطلب وجود (أبي الجعل)، لكنه أناني، وترعبه المسؤولية. قطع (الأثرم) دراسته وسافر.

جال بها على عدة أطباء عيون، وكلهم نصحوا بعملية بدون تأخير. سأله الجراح:

- هل ضربها أحد على رأسها؟

اضطرّ للكذب. عرف بذلك من ابن قريب والدته. سكن معهما لإتمام دراسته. زارهم (المخبول)، واستقبلته (الملطومة). اتهمها باضطهاد والدته (القهرمانة). غضبت (الملطومة) وردت:

- أمك كانت قوادة.

نزح حذاءه وضربها على رأسها، فأمسك به ابن القريب وسحبه إلى خارج البيت.

تفرض العملية عليها تقنين طعامها. اضطرّ لتخويفها من فقدان بصرها، حتى اقتنعت بالقليل من الأرز بدلاً من صحن مملوء حتى الحواف، وربع رغيف خبز وملاعق من مربى لمرضى السّكري جلبه معه بدلاً من ادمانها اليومي على دبس التمر. أدخلها المستشفى الذي اختاره طبيب العيون. تناول طعام الغداء في مطعم قريب، وأصابه الطعام الملوث بالزحار المزمن. أدخلوها ردهة العمليات وجلس خارجها. بعد أول ساعات المساء انقطعت

الكهرباء. حبس أنفاسه بانتظار اشتغال المولد الاحتياطي. بعد قليل حملوا فوانيس إلى غرفة العمليات. من يصدق عملية عيون على ضوء الفوانيس؟ تعلق بصره بنافذة صغيرة أعلى باب ردهة العمليات، تسرب منها بصيص نور الفوانيس، ودعا لنجاح العملية واستعادة بصرها. عوّدته الحياة في بلد (الدبس والدهن) على توقع الأسوأ ولم يخذله حدسه يوماً.

أخرجوا (الملطومة) من غرفة العمليات على سدية. مخدرة وعيناها معصوبتان. مرّ الجراح وطمأنه بأنها بخير، وشدّد على ضرورة بقائها مستلقية في السرير ومن دون حراك. قضى الليلة ساهراً بجانب سريرها. قبل الفجر أرادت قضاء الحاجة. ضغط زر استدعاء الممرضة مرّات من دون استجابة، و(الملطومة) تلحّ عليه بالإسراع. عثر على الممرضة المناوبة في غرفة آخر الممر. كانت تغطّ في نوم عميق. نادى عليها فردت عليه بتأفّف. تجرأ وهزها تكراراً فتململت. أفاقت ومشت كالسكرانة نحو خزانة، وناولته الوعاء اللازم:

- الله يخليك خذه ودعني أنام! افعل بي ما تريد ودعني أنام.

لو سمع غيره كلامها لاعتبره دعوة لمشاركتها السرير. ارتاب في حالتها، وكأنها تحت تأثير منوم أو مخدر لا نوبة نعاس شديد.

في اليوم التالي سمح الطبيب بخروجها من المستشفى. راجعه في العيادة ليصف لها نظارة طبية. استعملتها لأيام فقط. قبل سفره قالت له بمرارة:

- العملية فاشلة.

تألم من كلامها. لم ينتظر امتنانها لما تحمله من سفر وانقطاع دراسته ومرضه بالزحار، ولكن تمنى لو سكتت.

استأنف الدراسة، وقضي شهوراً في إتمام خطة البحث. عاد بعدها لجمع البيانات. سمع بأن حكومة الطغاة تشترط اجراء بحوث الدراسات العليا على البيئة المحلية، وما انتبه بأن المقصودين طلاب البعثات وكلهم حزبيون لا مثله دارسون على حسابهم الخاص. قضي أسابيع متنقلاً بين مكاتب موحشة وموظفين متجهمين. نظراتهم مليئة بالارتياب. قال له

أحدهم بوقاحة بأنه يجمع المعلومات لفائدة أعداء الأمة، وأمر وزير موظفيه بالامتناع عن تزويده بالمعلومات لأنه أحدث بلبلة في وزارته. كان موظفو دول أخرى مجاورة أكثر تعاوناً. انتهى من البحث الميداني وعاد إلى الجامعة.

اجتاز المرحلة النهائية وحصل على الشهادة. نوى المغادرة بعد أسبوع. قال له أحدهم:

- مجنون! أنت عائد إلى سجن كبير.

أخلص له النصيحة على عكس (أبي الجعل). اتصل ليتأكد من عودته السريعة. توعده:

- لن أبقى هنا وحدي للعناية بوالدتنا.

لو كانت في قلبة ذرة من الأخوة لأصرّ عليه بالبقاء مكانه أو الذهاب إلى أي مكان آخر، لكنه أناني. أخبره بأنه ينوي الزواج قريباً، وطلب منه شراء ثوب العروس وبدلة له. صرف آخر نقوده لشراء طلباته وهدية العروسين.

في قاعة المسافرين القادمين تذكّر التحذير من العودة إلى السجن الكبير. معظم أحلامه كوابيس. يرى نفسه واقفاً على مكان شاهق من دون طريق للنزول، أو يسير في شارع مكتظ بثوب البيت وحافي القدمين، أو يدهم غرفته لص فينهض لمجابهته فتنشل قدماه، لكن أسوأها على الإطلاق يجد نفسه في هذا السجن الكبير عاجزاً عن مغادرته. انتابه شعور باليأس، ستكون عودته هذه المرة نهائية، ولن يستطيع التحجج بالدراسة لمغادرة السجن الكبير.

سكن في بيت (أبي الجعل). أخبره بأن مشروع الزواج تأجل، بسبب اعتراض عائلة الفتاة. رفضوه لأنهم مسيحيون ولا يريدون زوجاً مسلماً لابنتهم. الفتاة طالبة في الجامعة التي يدرس فيها. طاردته حتى وقع بحبها وصمّم على الزواج منها. تغافل عن تسديد ثمن ثوب وبدلة العرس، وربما اعتبرها أجرة سكناه في بيته.

أغاظ (الأثرم) انتماء (أبي الجعل) للحزب الحاكم، وحضوره الاجتماعات الحزبية. أبلغه بذلك ونصحه بالتغيب عن الاجتماعات، قبل أن يطلبوا منه الانخراط في المليشيا الحزبية، خاف وعمل بنصيحته.

ينام (الأثرم) وتبقى (الملطومة) ساهرة، تنتظر (أبا الجعل). اعتاد في بعض أيام الأسبوع التردد على بيت (القمرجي) للعب القمار. (القمرجي) مدمن على القمار، تعلمه أثناء دراسته وبعد عودته نشره بين أشقائه وأقاربه. بعد جدل طويل توقف عن التردد على بيت (القمرجي) وموائد القمار، لا رأفة بحال أمه، وأغلب الظن خسر ما لا يطيقه بخله وحبه للمال.

صديق (أبي الجعل) المسيحي من أيام الدراسة أستاذ محاسبة وتدقيق في جامعة أخرى. تفاخر أمامه بأنه وأساتذة آخرون، بينهم قزم، يستدرجون طالبات الجامعة إلى فندق أبيه في شرق العاصمة، لا لإعطائهن دروساً خصوصية بالتأكيد. بعد شهور اكتشفوا شبكة مماثلة في جامعة أخرى. سالت دموع الأب القائد، لدى سماعه بانتهاك أعراض بناته الجامعيات، هكذا أشاعوا.

التدريس في الجامعة حكر للحزبيين وقلة من غيرهم وأجانب، والولاء للقائد والحزب أهم من المؤهل والكفاءة، لذا كانت كتبهم وبحوثهم رديئة. خدع أحدهم الطاغيتين الحاكمين بادعائه اختراع دواءين للسرطان، سماهما على اسميهما، وقبض مكافآت سخية منهما، ثم انكشفت خدعته. أخبره (أبو الجعل) بأن مراجعين أجانب أعادوا بحوث أساتذة قدموها للترقية مرفقة مع ثلاث كلمات فقط: ارموها في القمامة. صرف (الأثرم) النظر عن التدريس في الجامعة.

حضرا مجلس عزاء لقريب، وصادف وجود (المخبول). تعجب من حرارة ترحيب (أبي الجعل) بأخيه المعتوه. عرض عليه توصيله بالسّيّارة فقبل. بعد قليل التفت (أبو الجعل) جهته وقال:

- سنأخذه إلى مكان مهجور ونوسعه ضرباً.

انتفض (المخبول):

- خدعتني لتعتدي علي!

قال لشقيقه بأن (المخبول) في ضيافته وحمايته ومن العار التعرض له.

ثلاث سنوات من العذاب

عذابه ثلاثي، حاولوا قتله بالثلاثة، بالفطام المبكر وزنبرك الساعة وعصا مغتصب الأطفال الغليظة، وأهدروا ثلاث سنين من حياته، بالخدمة العسكرية وخدعة تكليفه بزراعة الأرض وخصام الدلع المؤقت مع أمريكا، وستقضم ثالثة الأثافي ثلاث سنين أخرى من حياته التعسة.

اختار العمل في وظيفة بحوث واستشارات بدلاً من الجامعات الموبوءة بالأساتذة الداعرين والطلاب الحزبيين، وبعد فوات الأوان تبين له أينما ولى وجهه فثمة عذاب. أول الغيث الأسود محكمة عسكرية. لا يكتمل قرار التعيين من دون موافقة العسكر. قصد الإدارة المختصة، فأخبروه بأنه متهم بالتخلف عن الفحوص السنوية للمؤجلين، وعليه المثول أمام محكمة عسكرية. ظنّ أن ضابط الصف يمزح، لأنه كان طالباً يدرس في الخارج وبموافقة رسمية. ناوله خطاب التبليغ بحضور المحكمة وصرفه. وبّخ نفسه: يا أحمق! هذا جزاء من يعود بقدميه إلى داخل السجن الكبير وسجانيه الذين يعدّون بالملايين.

سلّم أمره لخالقه، وتوجه إلى المدينة القبيحة التي درّبه فيها العساكر الأكراد على السير والتمييز بين يمينه ويساره. دخل قاعة المحكمة، من دون أصفاد في اليدين وسلاسل في القدمين كبقية المتهمين، وكأنهم كفّار يساقون إلى جهنم. لكنهم اقتادوه إلى قفص الاتهام مثلهم. جلس القضاة على المنصّة، وبدأت المحاكمات. سبقه متهم بجريمة تغيب حكم عليه بمدة طويلة من الحبس. ذكّرته بمحكمة المهداوي، لا ينقص الصورة عن الأصل سوى حفنة من الشيوعين المرددين الأهازيج والملوحين بحبال السحل. جاء دوره. نادوا عليه بصفة المتهم أو المجرم. صدر الحكم بالبراءة نظراً لكونه طالب دراسات عليا يدرس في الخارج. انتهت المحكمة.

بادره رئيسهم بسؤال:

- ما الذي رماك علينا بدلاً من الجامعة؟

لصقت بذاكرته مقاصد كلماته لا حرفيتها. أعور منحدر من بلدة أو قرية جنوبية. مصاب بوباء السلطة والتسلط. يتصوره من النوع المدمن على الوقوف أمام المرايا يتمرن على التكلّف المهيب في السكون والحركة والنطق. في اجتماع حضره (الأثرم) مرغماً ضحك أحد الحاضرين، من الجنوب أيضاً، فوبخه بشدة. خجل (الأثرم) نيابة عنه، لكن الضاحك بلع الإهانة واعتذر عن سوء أدبه. أشاعوا بأن المدير العام الأعور يضطهد الجنوبيين من طائفته عمداً حتى لا يتهم بمحاباتهم.

مكان عمله في أبعد نقطة من بيت (أبي الجعل)، وبعد أخذ ورد وافقوا على توصيله بسيّارة نقل الموظفين. يفيق باكراً ليستقل سيّارة التويوتا متعددة المقاعد. وان لم يجده السائق منتظراً عند أول الشارع يمضي في طريقه. يتكرر المشهد بعد انتهاء الدوام، وحشر مع الموظفين أرخص من أجرة سيّارة عمومية.

ركنوه في إدارة الدراسات، مستودع المشاغبين والفاشلين، سألوه:

- ما الفرق بين البحث والدراسة؟

القصد من سؤالهم احراجه، وأي جواب غير كاف، فيحق لهم بعد ذلك السخرية من صاحب الشهادة العليا. طقس إذلال يرفعون به أنفسهم ويذلون غيرهم. لو لم يكونوا خبثاء لرثى لحالهم. تركهم لقصّ القصّص وشرب الشاي والمرطبات وتناول الطعام.

أراد مديرهم إرهابه بذكر الأمن العامة، مقرهم على بعد رمية حجر. أسواره عالية وعليها أبراج حراسة. كلما مر بمحاذاتها تخيّل صور وصراخ المعذبين داخلها. بعد الدوام يدرّب المدير موظفي الأمن على أساليب جمع البيانات. يجزم بأنه لم يتطرق للقواعد الأخلاقية، فهي الحد الفاصل بين البحث العلمي والاستجواب بالتعذيب الوحشي.

- من المفيد لك إعطاء محاضرات لهم والأجور مجزية.

رفض (الأثرم) فامتعض. اعتبر رفضه إدانة، لأن الجماعة وحدها تقرر أحكام السلوك، حتى تشريع التعذيب والقتل، فلا يُقبل تفرد أحد. أسرّها في نفسه حتى سنحت الفرصة لينتقم.

في أول أسبوع أبلغ بدعوة مفاجئة لاجتماع. خطب بهم ضابط الأمن. تبين فيما بعد أنه ضابط سياسي، يتجسس على الموظفين، ويبعث التقارير عنهم إلى الحزب والأمن العامة. قصير وهزيل وبعينين بحجم فتحات مغرفة الأرز وسط وجه مشوه بثقوب خلفتها دمامل أو حب شباب. كل مقومات عقد نفسية راسخة. تحدث عن يوم محو الأمية، والمسيرة بعد انتهاء الدوام للاحتفاء به، والنقل بواسطة سيارات التويوتا.

- مشاركتكم في المسيرة وعد شرف.

قاطعه:

- أنا لم أعدك بشرفي بأي شيء!

صعد الغضب إلى رأس (الأثرم). وليكن ما يكن.

فاجأه احتجاجه. ازداد اصفرار وجهه، واختفت عيناه تحت تموجات ابتسامة متصنعة كشفت عن أسنان دقيقة كأسنان فأر.

- سأشرح لك يا دكتور بعد انتهاء الاجتماع.

لم ينتظر. قام وخرج.

قامت الدنيا من بعده.

بعد قليل دخل مدير الدراسات مكتبه ليكذب:

- أراد إرسال تقرير عنك إلى الأمن العامة لكني أقنعته بصرف النظر.
- ليفعل ما يشاء! هل سيشارك الجميع؟
- لا، فقط المستفيدون من التنقل بسيارات الإدارة.
- لن أشارك إلا إذا شارك الجميع.

خرج مستاءً لأنه مستثنى. شارك هو وأمثاله مرغمين، وتمخطر ضابط الأمن بينهم، وعلى وجهه ابتسامة صفراء، فرحاً بنصف انتصار.

استدعاه الأعور في اليوم التالي. خاطبه بجفاء:

- كنت أظنك عنصراً جيداً.

العنصر الجيد في قاموسهم هو الحزبي، فنفي عنه تلك الصفة البغيضة. أراد اجابته بأن نزّاحي بيوت الخلاء أنظف من كل محازبيكم بما فيهم المؤسس، لكنه تحسس رقبته وسكت. بعد سنتين أو أقل نقلوا الأعور إلى وظيفة أدنى، وخسر معها ماء وجهه الذي أراقه بالنفاق.

تجهمت الوجوه بعد أيام. تهامسوا حول قرار بإعدام ثلة من الحزبيين بتهمة التآمر. أحد المعدومين موظف سابق في المؤسسة، له أصدقاء ومعارف بينهم. خافوا على أنفسهم. لا بد أن حفلات تعذيب سبقت الإعدام. ولا خلاص من التعذيب إلا بالاعتراف على شركاء، وليس مهماً كونهم مذنبين أم أبرياء.

فاجأتهم الثورة في إيران. كشف المنافقون خفايا نفوسهم. أسرّه بعضهم بأن انتماءهم للحزب للمصلحة فقط واكتفاء لشروره. لم يصدّقهم، فهي خدعة معروفة لاستدراج المعارضين للكشف عن آرائهم السياسية. جاء أحدهم نادباً حظه. ذهب وصديقه لشراء أثاث المُهجرين من بلاد (الدهن والدبس). طردهم الطاغية لإرعاب أفراد الطائفة المحكومة المذعورين بالتنشئة. اشترى كل منهما خِزانة ملابس. فرح صديقه بعد عثوره على مئتي دينار في الخزانة التي اشتراها، أما فهو فحزن لأنه وجد خزانته فارغة. ليس مهماً أنه مال حرام. بعد سنين هاجر إلى أمريكا، وأصيبت زوجته بمرض عضال. شمل الطرد مُقعداً في (أم السرجين). بعد فقد قدميه في حادث تغلب على اعاقته وعاد للعمل على كرسي متحرك. أبعدوه إلى الحدود الشرقية وتركوه ليجد طريقه عبر حقول ألغام. بعد أشهر وصلهم نبأ وفاته.

شنّ القائد ذو الأسماء الحسنى، التي تزيد على أسماء الله بواحد، الحرب على إيران. في كل صباح استرجع الموظفون، وأولهم المنافقون، أخبار الانتصارات، الحقيقية والوهمية، وتبادلوا التهاني والقبلات على الوجنات، والعزف بالأصابع وترديد مقاطع من أناشيد والدبك. بلغت نشوتهم ذروتها عند اطلاق الصواريخ السوفيتية الصنع على المدن. شارك (الحكواتي) بالاحتفال اليومي، لكنه صارحه على جنب بأنه يتمنى انتصار إيران. قبل

أشهر أخبره بأن الحرب ستقع ولو كانت لديه وسيلة لإخبار الإيرانيين بذلك لفعل، لأن وزارة التجارة بدأت بتخزين مواد استهلاكية كافية لستة أشهر. قال له (الأثرم) مجنون من يبدأ حرباً على دولة بعد ثورة، وسيندم. بين قبيلتيهما ثارات قديمة، لم تثنه عن التودد. قبل أكثر من نصف قرن طردت قبيلة (الأثرم) فرعاً من قبيلة كبرى، للاستيلاء على أرضها. لجأت القبيلة وشيخها لقبيلة (الحكواتي)، وانتقموا باغتيال شيخ لقبيلة (الأثرم). شنوا غارة فاشلة لاستعادة أراضيهم المغتصبة، فذبحت قبيلة (الأثرم) منهم أربعين محارباً، وأغاروا بدورهم على قبيلة (الحكواتي) فقتلوا شيخها وجمعاً من أفرادها. ولو سمع أبو جهل بالغزوات المتبادلة، وهو يملأ بطنه بالزقوم وشراب الحميم والغسلين لفرك يديه فرحاً بانتصار آخر بعد غزوة أحد.

لا تنتهي حكايات (الحكواتي). خلط الدراما بالكوميديا. يكره عرب الصحراء، يتهمهم بالتحريض على الحرب. زعم أن لواطياً قصد مبغى اللواطيين في ضواحي أبو ظبي. دق باب مخنث سبق وصاله. أطلّ وجه المخنث المزوَّق بالحمرة والكحل، وصاح به غاضباً ليبتعد عن غرفته. سأله عن السبب، فأجابه بأنه متزوج ولا يزال عروساً ولو شاهده رجله فسيقتله. كان ذلك قبل زواج الشواذ في دول الغرب بسنين.

ليس الصحراويين والقائد الطاغية استحقوا ازدراء (الحكواتي) بل الجميع. أولئك الجنود الذين وجدهم رئيسهم الضابط يتناوبون على اغتصاب جندي إيراني أسير. لم يعاقبهم. بل نحاهم جانباً قائلاً:

- أولادي دعوني أريكم كيف يجب اللواط.

الجبهة البعيدة بمئات الأميال تدنو من الرفاق كل يوم، تتعقد المشاعر. خذ مقطعاً عرضياً لنفوسهم. ما رءاه (الأثرم) كل يوم من ابتهاج يخفي تحته طبقات من المشاعر، أخفها التظاهر بالرجولة وتمويه الخوف وطمأنة الزوجات والأمهات، دونها شريحة من التوتر والترقب، لا يستبعدون دعوتهم إلى الخنادق والقتل أو الجرح أو الأسر، وأسوأ الاحتمالات

وضعوه في الأسفل، بعيداً عن الإدراك والوعي، احتمال انهيار النظام وحملة الانتقام من أعوانه.

دولاب مشاعرهم يصعد وينزل حسب سير المعارك. عندما مالت الكفّة لصالح أعدائهم، اختفت المظاهر الاحتفالية. غير خاف عليهم كره (الأثرم) للنظام الحاكم. قصدوه للبراءة منه. بصوت عال وصف (الحكواتي) تنكره بالشماغ والعقال ليزوغ عن أعين الرفاق. همس آخر من أزقة العاصمة بأن مآل الحِمل الأعوج السقوط. جاء ثالث بنبوءة لجوء طائرات النظام إلى العدو، وبالفعل تحققت بعد سنين. تشجع كردي بعثي مهدد وعائلته بالتهجير على شتم قحطان وعدنان ونسلهما. جاهر آخر برواية عن سجين بوشاية كاذبة وبعد اطلاق سراحه ضغطوا عليه لينتمي للحزب فلما فرغ صبره أجابهم: وهل تقبلون بالحزب من اغتصب سّجانيكم مؤخرته؟ حتى المخلص بينهم دأب على ممازحته: لم يا دكتور لا تنتمي لحزبنا وتوقع ورقة إعدامك؟ كان من شروط الانتماء توقيع وثيقة الإقرار باستحقاق الإعدام من دون محاكمة لو كنت أو صرت منتمياً لحزب آخر. ابتعثوه فيما بعد للتخصص بالترجمة الفورية وعاد ليترجم للقائد الطاغية.

أرذلهم أربعة، (المسخ) ضابط الأمن الجنوبي و(الدسّاس) مدرب الجلاوزة و(المتحرش) النجفي و(البذيء) الساكن محلة الصابونجية المقر السابق للمبغى العمومي القديم. غاب (المسخ) أسابيع وعاد ليخبر الرفاق عن زيارته لجبهة الحرب. تباهى في اجتماع حزبي بتجواله في مدينة قصر شيرين الإيرانية قرب الحدود، بعد انقضاء المعارك بالطبع. عثر على امرأة عجوز تخلفت عن أهلها الهاربين من قوات الرفاق. أخرج مسدسه وأطلق على العجوز الكردية رصاصة أردتها قتيلة. لا يريد (الأثرم) الدخول في عقله ليفهم. يخشى مما سيلاقيه بين تلافيف مخه الرمادية. توقع رعباً مختلفاً عن وحوش حكايات (الملطومة) وما شاهده أورفيوس في الجحيم. بعدها بسنين كافأه القائد الطاغية. أرسلوه للدراسة في الخارج، ورجع بشهادة عليا، وعينوه مديراً عاماً. قبل شنق القائد الطاغية يوم العيد دق

باب بيته مجهولون. فتح لهم الباب. أطلقوا على رأسه رصاصات فسقط ميتاً. ارتاحت روح العجوز الكردية.

- باشر أنت بالبحوث وسأنضم لكم فيما بعد.

أمره (الدسّاس)، فأذعن مدركاً أن الرجل لا يعرف أصول عمله. بدأ وانتهى من البحوث وهو لم يشارك. كان منشغلاً بتدريب زبانية النظام في الأمن العامة والتحضير للسفر إلى الإمارات للتدريس في جامعتها الجديدة. قبل ذلك استدرجه في الكلام حول مشاكل العمل. بدأ هو بالانتقاد فأيده. قال (الأثرم) بالنص:

- السوس متفشي فيه.

سارع (الدسّاس) لنقل كلماته إلى خليفة (الأعور) المؤقت، ليعاقبه إدارياً ويأمر بانتقاله من المكتب المستقل إلى مكتب صغير مع بقية الموظفين. قدم استقالته فرفضوها. اشتكاهم للوزير، وطلب منه نقله إلى الجامعة، فوعده بالمحاولة. بعد أسابيع أقيل الوزير من منصبه، لأنه تلكأ في التطوع للمشاركة في الحرب فدفعه القائد الطاغية في صدره فسقط الرجل الخمسيني على ظهره. سافر (الدسّاس) إلى الإمارات ولم يعد بعد ذلك. أبلغه خليفة (الأعور) المؤقت استعدادهم لقبول استقالته. كانت مكيدة فلو استقال لأجبروه على الالتحاق بالجبهة.

اشتكت سكرتيرة مسيحية من (المتحرش). ادعت بأنه يتربّص بها، وكلما استعملت المصعد ركب معها، ليتحرش بها. غالباً بأكثر من قرصة في الفخذ أو محاولة تقبيل. لم يعاقبوه لأنه حزبي. غاب أشهر وعاد ليتحدث عن مشاركته في عمليات تخريبية خارج الحدود. رافق (الأثرم) في مقابلات ميدانية للبحوث فعمد إلى التخويف بصلاته الحزبية للحصول على البيانات. طلب منه الاكتفاء بتسجيل البيانات فاغتاظ.

كره (البذيء) من أول يوم. عقدته نحن وأنتم، أثناء حركة النجدي جهيمان قال له: إنه من "أنتم" أتباع المهدي المنتظر، وبعد اتصاله المزعوم بالقائد الطاغية نقل عنه قوله: "أنت واحد منا". اصطحب يوماً ابنه الصغير إلى العمل. همس في إذنه فانهمر من فم الطفل

سيل من الشتائم المقذعة. علمه أبوه الشتم لأن من لم يكن ذئباً أكلته الذئاب، ولم يبين إن كانت الذئاب هم أم أنتم أم الإثنين.

(المتحرش) و(البذيء) رفيقان لصيقان. أرعبهما عزرائيل المنتظر عند الجبهات. قريب (الأثرم) استبشر بحلم. رأى في المنام وحشاً يكرّ يميناً ويساراً فيلتقم البشر. تخفى هو وأبناؤه داخل سفينة فنجوا. كذّب رؤياه مقتل أصغر أبناءه في الجبهة. خوفاً من عزرائيل أو الوحش لازم الرفيقان مكان العمل نهاراً وليلاً. في النهار بدعوى العمل، وفي المساء والليل الخفارة. طالت (الأثرم) نوبة خفارة، لإذلاله فقط، فنصحه الحارس الريفي بكتمان صلاته لأن كل من يصلي ينتهي في السجن. حكى الرفيقان أنهما ذات مساء وأثناء خفارتهما وجدا ثلة من الصبيان يلعبون بالكرة في الباحة الأمامية، فقبضا عليهم، وخيراهم بين تسليمهم للأمن أو الإذعان لمشيئتهما، فأذعنا وتناوبا على اللواط بهم.

أنجز البحوث المقررة لوحده، بدون مساعدة من فرق البحث. منح الوزير الجميع مكافآت مالية، وكان من بينهم (البذيء) و(المتحرش) وغيرهما. أضافت على حقدهما حسداً مرّاً.

حسده الآخرون أيضاً، حتى المدير العام الجديد (المتزلف)، حل محل الأعور. قبل أشهر عوقب (المتزلف) لتفريطه بملايين الدنانير، نقلوه إلى وظيفة أدنى، وعامله البقية بازدراء وتجاهل. تفاجأوا بتعيينه رئيساً عليهم. لم يتعجبوا عندما عرفوا السبب. نشر قصيدة مديح بالقائد الطاغية فعفى عنه ورقّاه.

كلفوه بتنفيذ برنامج تدريبي في منهج البحوث للموظفين. استعان بأساتذة الجامعة. في فرع علوم الاجتماع قابل إحدى قريباته. أبلغته سلاماً حاراً من أستاذ يرغب بلقائه. في قاعة الأساتذة المكتظة أدار بصره بين الحاضرين فلم يشاهد وجهاً مألوفاً بينهم. نهض أحدهم ودنا ليعانقنه. لم يعاتبه على نسيانه، وعرّفه بنفسه. كان زميلاً له في الجامعة البريطانية. تخرج قبله وعاد. زاره قبل أيام من تخرجه مع صديقته البريطانية. تعرف

عليها مؤخراً وبدءا علاقة حميمية. قاده إلى زاوية في القاعة بعيداً عن مسامع الآخرين وقص عليه سطوراً من محنته:

- بعد عودتي جاء الأمن واقتادوني إلى سجن محكمة الثورة. احترت في معرفة السبب. أخبروني بأن أحد الطلاب في الجامعة أرسل لهم تقريراً ادعى فيه بأني كنت أقرأ في جريدة عربية تصريحاً لنائب الرئيس (القائد الطاغية حالياً) وقلت: أهذا كلام معقول من مثله؟ حبسوني حوالي ستة أشهر، ثم حان موعد المحاكمة. توقعت حكماً بالإعدام. مثلت أمام المحكمة وحضر الشاهد الوحيد. تبين بأن زميلنا الشيعي من العمارة هو المخبر. طلب منه رئيس المحكمة القسم بالله على القرآن الكريم بأن شهادته صحيحة فأحجم عن القسم. ألغيت المحاكمة وسمحوا لي بالتدريس. لو أقسم لما رأيتني اليوم.

طلب فريق من أساتذة الجامعة مشاركته في دراسة أمانة العاصمة. رفض (المتزلف) طلبهم، فاستغاث الجامعيون برئيس الأمانة. فصدر القرار من أعلى. احتاروا في تفسير هذا الإصرار.

مدة الدراسة ستة أشهر. ليس فيها من محاسن سوى التغيير. جرب السيء، وكان مستعداً لكل الاحتمالات، حتى الأسوأ.

في أول أسبوع تعرف على الرعب. بالعادة يتظاهرون بالرجولة، لكنهم كانوا أمام رعب غير معتاد.

- حضر! حضر!

تناقلوا التحذير. توقفت الأحاديث الجانبية. جلس الواقفون خلف مكاتبهم. خبأوا الجرائد والمجلات. دسوا لفائف الكباب وقناني المرطبات داخل الدروج. أمسكوا أقلامهم، وفتحوا سجلاتهم. لم يظهر المنتظر. تبينوا بأنها مزحة. لعنوا من سخر منهم.

بعد أيام قابل (الأثرم) رئيسهم الرهيب. ضابط في الأمن العامة كلفه القائد الطاغية بإدارة العاصمة. استقدم ثلة من أمثاله. أشاعوا الرعب بين الموظفين والعمال. وزع اهتمامه

بينه وبين صاحب مقهى مشهور. كان ضيفه شقياً في شبابه. بيده عصا تظاهر بأنه يتوكأ عليها. رفعها فخرج من طرفها نصل حديدي، فابتسم صديقه الرئيس. بعد مغادرة صاحب المقهى اشتكى الرئيس من خذلان فريق الجامعة. اكتفوا بتقرير رديء، واستلموا مكافآتهم ثم تركوه لينجز المهمة وحده. استرجع رئيس أمانة العاصمة مشهداً من أيام دراسته في نفس الجامعة. بعد تيقنه من فشله في أحد المواد كمن عند مدخل الجامعة للأستاذ – من الطائفة الأخرى كما وصفه. أمسكه من تلابيبه وهدده بالقتل إن لم ينجح في المادة. أعداؤه كثيرون، لكن خوفهم من بطشه أقوى من رغبتهم بالانتقام، فيكتفون بالدعاء عليه وحرق أعصابهم بالغضب المكبوت، إلا جماعة اختارت هدفاً أسهل. في صباح أحد الأيام خرج الرئيس من بيته ليجد كيساً أمام الباب. دفعه الفضول لفكّ عقدة الكيس فاندلقت من داخله أشلاء جثة. لم يرعبه منظر الجثة فهو معتاد على مثلها في عمله، لكنه ناح لرؤية رأس أبيه المقطوع.

تساءل (الأثرم) مع نفسه إن كان اسم السائق المكلف بتنقلاته نعمة أو نقمة. هو والقائد الطاغية سميّان. عندما ولد كان القائد الطاغية نكرة، فلم يسّمه أبوه تيمناً أو تزلفاً. كان يستغل تطابق الاسمين. كل السائقين مثله مستنفرون، ويعملون لساعات متأخرة من اليوم، ويعودون إلى بيوتهم منهكين فلا بقية من طاقة لمداعبة الأطفال أو مضاجعة الزوجات. اهتدى إلى طريقة لتفادي الإرهاق التام. عندما يرّن جرس الهاتف يرفع السمّاعة ويبادرهم بذكر اسمه. النتيجة واحدة في كل مرة. يغلقون السماعة فوراً ولا يكررون الاتصال، فيقضي بقية ساعات العمل في راحة. بعد سقوط نظام القائد الطاغية تحول اسمه إلى نقمة.

كان بقية السائقين أقل حظاً منه. وصف له جوانب من عذابهم. وضع الرئيس أحد جلاوزته على رأسهم. المشترك بينهما نزعة السّادية. لم يكتفيا بالعقاب الإداري لمن يتخلف عن موعد الدوام. في مكتب الجلواز قطع من خراطيم مياه بلاستيكية ملأها بالحصى. يجتمع الاثنان، الرئيس والجلواز، في حفلات تعذيب منتظمة. ينهالان على

أجساد السائقين المخالفين بالخراطيم. أصيب الجلواز بالسرطان وأرسلوه إلى الخارج للتداوي. تعاهد السائقون على الدعاء عليه بالموت الزؤام.

يصعب التصديق لأول وهلة. تحول دونها ثقته بالفطرة البشرية السليمة، حتى يشهد شاهد من الجلاوزة. أثنى مساعد الرئيس عليه لأنه يتربص بالموظفين ليداهمهم متلبسين بالتسيب. اعتاد التجوال بين مواقع العمل والمشاريع. لاحظ مرة غياب مشرف فاتصل به على الهاتف اللاسلكي وسأله عن مكان تواجده. أجابه كذباً بأنه في الموقع. فكان جزاؤه عقوبة غليظة.

ثم شهد (الأثرم) فصلاً من فصول التنكيل. كان في مكتب المساعد عندما دخل الرئيس وبصحبته مرافقه وحارسه الشخصي. جلس ثم أصدر أمراً إلى الحارس. بعد قليل دخل الحارس وشاب. وقفا عند الباب. بدا القلق والترقب على وجه الشاب المصفرّ. تجاهله الرئيس ووجه كلامه للحارس:

- ينقل إلى أحد المواقع الحدودية في أقصى الشمال ليقضي فيها ستة أشهر.

للرئيس المخابراتي صلاحية الحبس ستة أشهر من دون محاكمة. لو عاد الشاب المنحوس حياً أو جريحاً سيكون محظوظاً. قبل أسابيع تجول القائد الطاغية على مستشفى عسكري. أحد المرضى خامد بدون حراك، فلا سلام ولا تقبيل أيدي ولا حتى نظرة تدل على وجود حياة خلف المقلتين الشاخصتين. تركوه في موقع جبليّ مكشوف من دون ملابس ثقيلة تقيه البرد القارس فتجمدت عروقه وانفلج. أخبر أحد العائدين من موقع في الشمال بظهور أعراض هلوسة بينهم، إذ تراءى لهم شيخ في الجبل المقابل عبر الحدود يتوعدهم بالهلاك.

اقتاد الحارس الشاب المرعوب، ثم خرج الرئيس بعد قليل. الشاب مهندس وابن الرئيس السابق. أثناء جولة مفاجئة للرئيس على مواقع المشاريع لاحظ تأخر تنفيذ تعبيد شارع، فسأل المهندس الشاب عن السبب فأجابه:

- لم تحضر الآليات في الموعد وأنا لست راعياً بهم.

غضب الرئيس وصمّم على معاقبته.

تخوف (الأثرم) من مصير مماثل لو أغضبهم، ولن يكون بأهمية المستشار المعماري الذي حبسوه، وتوسّط الرئيس للإفراج النهاري المؤقت عنه. يأتون به من السجن في الصباح ويعيدونه إلى زنزانته بعد انتهاء الدوام، ويتوقعون منه إبداعاً معمارياً بين الموعدين. لم يتحمس لمقابلة (الأثرم). ظنه مخبراً على الأغلب. استقبله بجفاء. بعدها طلبوا من (الأثرم) توزيع مكاتب مبناهم الجديد على الوحدات الإدارية. راجع مصادر عديدة حول مكاتب مشابهة وقدم مخططاً من دون مقابل. توزيع المكاتب مهمة مصمّم التنظيم الإداري لا مهندس المبنى. لكن للمستشار المعماري رأي مخالف. وافقوا على مقترحه بتكليف شركة سويسرية بالمهمة. قبضوا مليون دولار مقابل تقرير انتهى على رفّ مهمل.

في لقاء مع مسؤول الحدائق والمتنزهات تباهى بإنجازاته. أولها تنفيذ ملعب للأطفال في إحدى الحدائق. نهب مكوناته من بيوت الإيرانيين في قراهم الحدودية المحتلة. ذكّره بضابط الأمن المتفاخر بقتل امرأة إيرانية عجوز. اشترك المشهدان في الدماء. عندما كبر الأطفال الذين ركبوا تلك المراجيح دفعوا أجرتها دماً، كما ضابط الأمن المقتول.

أنجز المهمة وقدم تقريره. تضمن دعوة إلى تغيير نمط الإدارة وتحسين ظروف العمل. لا بد أن الرئيس استاء من تقريره، فكلف نائبه الأول بمناقشته. اجتمعا لنصف ساعة ليبلغه بعدها بأنهم مصّرون على إدارة العاصمة بمركزية شديدة. كان نائب الرئيس رفيقاً للقائد الطاغية. يصحبه في جولاته، ويثني عليه، ثم توفي بالسكتة أثناء اجتماع خارج بلاد (الدهن والدبس)، وأشاعوا بأنه اغتيل بأمر (الطاغية) بالسّم. بعد شهر أو أكثر بقليل أنعم الرئيس الطاغية على رئيس العاصمة بوسام الرافدين من الدرجة الثانية أو الثالثة، تقديراً لحسن إدارته، ودعا إلى جعله قدوة للأخرين، تساوى هو و(المكوي) في الأوسمة. انتقد (الأثرم) أسلوب إدارته والقائد الطاغية امتدحها. لو انتبهوا لكانت نهايته في السجن. من الاشراف على جمع القمامة وتنقية مياه المجاري وكنس الشوارع وتعبيد الطرق ومن قبل استجواب وتعذيب السجناء إلى الإمرة على رؤساء الجامعات ومراكز البحث طفرة تعبر بك المحيط، لكن رئيس العاصمة فعلها. كلفه القائد الطاغية بوزارة التعليم العالي والبحث

العلمي. اجتمع برؤساء الجامعات والبحث العلمي داخل مكتبه في الطابق الأعلى، وهددهم بالقذف من النافذة العريضة لو عصوا أوامره. ربما قص عليهم نجاحه في الجامعة بترهيب أساتذته.

استأنف (الأثرم) عمله. استمارة تطوعه في القتال تنتظره، في درج مكتب سكرتيرة المدير. تجاهلها. كلهم تطوعوا، وطمأنوا هواجسهم بأنها مجرد شكليات، لإعلان الولاء لا غير. كذّبهم ولم يتطوع. وكان مستعداً لتحمل العواقب.

كلفه (المتزلف) باستشارة لمركز محو الأمية وتعليم الكبار. اشتكى المسؤول (السوداني) من كثرة الأميين العرب وقلة التمويل. اقترح عليه اصدار شهادات للمتبرعين. تبين عدد الممحية أميتهم بفضل تبرعاتهم، لأنهم مغرمون بتعليق الشهادات على جدران مكاتبهم، وبالتحديد وراء أماكن جلوسهم، حتى يراها زوارهم، فيثنون عليهم. لامه (المتزلف) لعدم توثيق اقتراحه. كان محقاً. بعد شهور نشرت جريدة الشرق الأوسط خبراً في الصفحة الأخيرة عن فكرته، سوى أنهم انتحلوها لأنفسهم.

عذاب في البيت أيضاً

في كل يوم عمل رجع (الأثرم) إلى البيت مثقلاً بالغمّ. جاهد لإخفائه، لئلا تنتقل عدواه إلى (الملطومة) والحبوبة. طال أمدّ الحرب. لا ينقضي نهار أو ليل من دون سماع أزيز الطائرات المقاتلة ودوي الانفجارات وأصوات قذائف المضادات.

طارده الطاغية إلى عقر داره. دعا إلى انتخابات رئاسية. لم يجرأ أحد غيره على الترشح فيها. أشاعوا بأن من لا يشارك في التصويت ستصادر أملاكه ويسجن. قبل موعد الانتخاب زارتهم عضوات في اتحاد نساء الحزب بفساتين ملونة وحمرة شفاه فاقعة وعيون مكحلة. لم تكن بينهن ثكلى أو أرملة حرب. حملن تهديداً مبطناً بأن الجميع حتى العجائز المقعدات مدعوون بقوة للتصويت، بل وكذلك الأجانب. تركن آثار حماسهن على سجادة غرفة الاستقبال، ذرات من الكعك اليابس المتطاير من أفواههن. لم تبق الحرب للضيافة سوى الشاي وكعك يابس لا يمضغ من دون غمس. لكن متاجر الحكومة لم تخلوا يوماً من صناديق الويسكي وقناني البيرة. في يوم الانتخاب أدلى (أبو الجعل) بصوته، ورفض (الأثرم) المشاركة في الانتخابات الصورية مخاطراً بخسارة ممتلكاته القليلة وحتى السجن.

أصيب (القمرجي) بسّكتة قلبية، لكنه لم يمت. أخبرتهم زوجته بأنه عاد في الليلة الماضية هائجاً بسبب شجار مع سائق أجرة، وفي المساء مرض. اتهمت سائق الأجرة وتغافلت عن ليالي السّهر المتواصلة حول موائد القمار ونوبات الغضب وفشله في إدارة مصنع. بعد عودتهم من التدريب على تشغيل أجهزة المصنع في إيطاليا تسرّب العمال. اشتكى من خيانة أفراد قبيلته الذين وظّفهم. أحدهم من أقارب (الملطومة) أفرغ حقده على الحكومة في المصنع:

- كنت أترك الحذاء في القالب أطول من الوقت المحدد حتى يخرج مثل عجينة بلاستيكية غير صالح للاستعمال كرهاً بهم.

امتلأت نفس (القمرجي) بالحقد على الجميع حتى فاضت وكادت تقتله. سأله (الأثرم) عن سبب اختياره لابنته اسم مكروه عند طائفته فأجابه:

- نكاية بهم.

سكان بلاد (الدهن والدبس) يدورون في حلقات مفرغة من النكايات.

أرسلوا (القمرجي) إلى بريطانيا للتداوي. أصدقاؤه ضباط مخابرات لا يرد لهم طلب. بعد عودته تقاعد من الوظيفة وتفرّغ للقمار وزراعة الأرض مثل بقية رعاة الغنم في تصنيف (اليقطينة المخرومة). كانت الشهادة الجامعية زائدة عن حاجته. سمع (الأثرم) من زميل دراسة سابق بأن (القمرجي) يعمل لمخابرات (الطاغية)، صدّقه بعد أن عرف بأنه وشى به. سألوا (القمرجي) عن ابن (بمقدساتي) الذي اشترك مع سفير في نهب أموال سفارة (الطاغية) فدلّهم على (الأثرم). أراد افتداء اللص ابن (بمقدساتي) بـ(الأثرم) المعارض.

ماتت (أم لسان الزفِر) بالتدريج. عمي بصرها. ضعف سمعها. انشلّت، ثم أصيبت بالفشل الكلوي. زارها (الأثرم) قبل النهاية. لم تتعرف عليه. احتاجت لغسيل كلية. دار بها ابنها (بمقدساتي) على المستشفيات. وجدها مكتظّة بجرحى الحرب. نصحه موظف بالاستعانة بنقيب العمال في مستشفى، عامل النظافة. استرحمه فوافق العامل على ادخال (أم لسان الزفِر). ماتت عدوة (الملطومة) التي حرمت (الأثرم) بالصّبر من حليب أمه وحضنها في صغره، ثم تآمرت لقتله بزنبرك الساعة، وسلطت أبناءها عليه، وهم بدورهم أورثوا العداوة والأحقاد لأحفادها.

اشتدت وطأة المرض على (الملطومة). ألمتها دمامل بحجم كاسات الحجامة نبتت على ظهرها. لا تثق (الملطومة) بالأطباء ووصفاتهم.

- تريدون موتي. لن أموت قبل أن تحين ساعتي.

وراء اتهام (الملطومة) حرمانها من علبة صفيح مليئة بدبس التمر، كانت تأكل منها كل يوم، فضّلتها على المربيات الخالية من السكر. بعد تقنين كميات الأرز في غدائها شاركت الحبوبة طعامها.

وصل جنون ارتياب (الملطومة) ذروته بعد زيارات عشيقة (أبي الجعل) المنتظمة. رفض والديها الزواج، لأنهما لن يستطيعا حضور قدّاس بعد زواجها من مسلم، لكنها حافظت على علاقتها معه. أحضرها يوماً معه. دلفت من الباب الخارجي بصمت، ومن دون سلام. بعد قليل شاهده (الأثرم) ينوء بحمل فراش إلى غرفة الطعام. سألت (الملطومة) عن هوية الزائر. لم يخطر ببالها أن تكون زائرة. لا يتذكّر (الأثرم) جوابه أو ربما تشاغل بالنظر إلى قدميه حتى لا ترى على وجهه خجل ممزوج بالسخط. بلغت به الوقاحة جلب عشيقته ليضاجعها في غرفة الطعام غير بعيد عن مكان جلوسنا. وهي تقبل بإهدار سمعتها أمام عائلته. تكررت الزيارات.

فاجئه يوماً بأنه ينوي الزواج قريباً، وطلب من (الملطومة) اخلاء غرفتها لسكنى عروسه. كانت غرفة النوم الوحيدة القريبة من غرفة الجلوس، وبسبب ألم مفاصل قدميها لا تستطيع (الملطومة) استعمال غرفة نوم في الطابق الأعلى، ولو نزلت إلى الطابق الأسفل فستمكث فيه على الدوام. استعطفته (الملطومة) لكنه رفض. لولا توسلاتها لما بنى (اليقطينة المخرومة) له بيتاً، وتذلّلت ليكفّ عن التفكير ببيعه، وأصرّت على تركه جديداً ليدشّنه (أبو الجعل) بعد عودته، ووافقت بعد نوبة غضب (الأثرم) وتحطيمه جهاز الراديو الضخم، بشرط السكن في الطابق الأسفل ونصفه كالقبو. لأنها تطبعت على التذلّل والمسكنة للأقوياء عديمي الإحساس كان ابنها المفضّل من شّق عضدها بموسى حلاقة وهجرها.

تأملت (الملطومة) تحنّن ابنها (أبي الجعل) عليها. أمهلها أياماً ثم أخرج صرّة ملابسها وقذف بها أسفل الدرج. نزلت تجرّ قدميها إلى جانب والدتها في الطابق الأرضي. كتم (الأثرم) غضبه وأبلغه بأنه ووالدته وجدته سيتركون بيته ليسكن هو وعروسه لوحدهما. طلب من المستأجرة اخلاء البيت، بعد أيام اتصل ابنها مهدداً. بينهم وبين القائد الطاغية صلة قبلية لكنهم ناصريون مغضوب عليهم. تركوا البيت خرباً.

لم تطق (الملطومة) مجالسة والدتها طيلة النهار. تكبدت صعود الدرج مرة كل يوم. من مجلسها المعتاد راقبت (الأثرم) بنظرات الارتياب. ظلمها (أبو الجعل) وأشركته في جريرته. خيّل لها عقلها المريض أن زائرة (أبي الجعل) واحدة من بنات العم. هما اثنتان نذرهما أهلهما للزواج منه و(أبي الجعل) منذ الصغر. تذكّر زيارتهما قبل سنين. كان طالباً في المدرسة الإعدادية. جاءا مع والدتهما واستضافتهن (الملطومة) في غرفة الاستقبال. دفعهما الفضول لاقتحام غرفة جلوس العائلة. وجداه جالساً على فراش يشاهد التلفزيون. مدّت احداهما يدها تحت أريكة قريبة من فراشه، وأخرجت قنينة مرطبات مخفية. نظرت إلى أختها وقالت مستهزئة:

- يريدون تزويجنا من هذا!

تزوجت من خارج العائلة وتوفيت بالسرطان بعد سنين قليلة، والأخرى مرضت أيضاً وبقيت عازبة. التقى (الأثرم) بها بعد حوالي خمسين عاماً وكانت ما تزال فظة. تصورت (الملطومة) أن ابنة العم الفظّة جاءت لخطف ابنها البكر وقتلها بالسّحر. أنساها الخرف الكثير إلا إحدى طرق القرويين لإبطال السّحر. وجد آثاره على أيدي مقعده. اعتقد القرويون بالمفعول الأكيد للنجاسة، ولم يهمها تنجيس بدن وملابس (الأثرم) المصليّ. عاتبها فوعدت بالكفّ عن ذلك.

صرف (الأثرم) معظم مدخراته على ترميم بيته الخرب. ندر العمال المهرة بسبب الحرب فاضطرر للاستعانة بسباك نكرة. اشتكى السباك من قرب التحاقه بالخدمة العسكرية وسوقه إلى الحرب، وعند ظهيرة كل يوم نادى بأعلى صوته على الغداء. أنجز عمله الرديء وقبض أجرته وغادر. أوكل اصلاح أرائك بيته القديمة لأربعة من الصمّ والبكم. تفاهم معهم بالإشارات، وأعادت أيديهم الماهرة الحياة إلى المقاعد البالية. كان السباك أحق بأن يكون أصمّاً وأبكماً منهم.

كان من المستحيل عليه ترك (الملطومة) تحت رحمة (أبي الجعل). حاول اقناعها بالسفر سوية ليعمل ويعيشا بسلام، لكنها رفضت بشدة لأنها لا تريد الموت في الغربة وأن تدفن في غير مقبرة البلدة المقدسة.

لم يبق سوى نقل بعض الأثاث إلى بيته قبل الانتقال، لكن سبق القدر. صوت ارتطام جسم بالأرض سمعه في غرفة الجلوس. وجد (الملطومة) مفترشة الأرض. نظراتها زائغة وكلماتها غير مفهومة. نقلها إلى مستشفى قريب. شخصوا حالتها بجلطة دماغية. جلس بقربها في ردهة النساء طيلة فترة الزيارة. عند وقت الانصراف أدنت يده وقبّلتها، فتذكّر ركوع الراهب زوسيما أمام ديمتري كارامازوف في رواية دوستويفسكي، لأنه تنبأ لديمتري بمحن وشقاء، أو لعلها أخيراً أدركت بأنه كان الوحيد البارّ بين أبنائها. طلب من الطبيب المشرف (العاني) إدخالها غرفة إنعاش كما ينبغي لمصابة بجلطة، فرد بأن أولوية العلاج للشباب والبلد في حرب. لعن الطبيب وسيده القائد الطاغية وحربه في سره.

دفنت كما أوصت في مقبرة خاصة لا في مقابر (اليقطينة المخرومة) وعائلته الظالمين.

ماتت أعز الناس، وليس لحزنه وصف.

استلم دعوة عشاء غير منتظرة من أحد أبناء (المكوي). احتار في سبب اهتمامه غير المتوقع. عرّفه على قريب آخر، انتقل الاثنان للعمل في وزارة الخارجية مؤخراً. على عادة الكثيرين تقلبت ولاءات الإثنين بين عدة حركات وأحزاب سياسية، وستتغير فيما بعد. نصحه ابن (المكوي):

- لا ترحلوا! سيصبح بلدنا جنّة.

لم يطلعه على قراره بالسفر في أقرب فرصة لكنه كما يبدو افترض بأن أي واحد في وضعه يخطط للرحيل. بعد سنوات قليلة لم تصدق نبوءته، فقد تحول البلد إلى جحيم، ونقم عليه نظام القائد الطاغية لشطحة لسان، فأمر أقاربه بهدر دمه فأطاعوه.

خطط لطلب إجازة خارج البلد بداية الصيف. سبقه المدير:

- إلا ترغب بإجازة يا دكتور؟

لا يعرف سبب حماسه لسفره، ولعله أراد التخلص منه. سارع للموافقة. قبل السفر لا بد من موافقة إدارة الجندية. بقي ختم واحد قبل الموافقة، لكن يد نائب الضابط لم تمتد للختم، سأل رفيقه في المكتب:

- أليس مواليده مدعوون لخدمة الاحتياط؟

كتم شهقة كادت أن تخرج من فمه. أيس من السفر وسارع عقله المذعور إلى تصور الحياة في خندق على الجبهة ومصيره لو فرّ أو رفض اطلاق النار.

- نعم! صدر قرار باستدعاء مواليده قبل أيام.

أيام فقط فصلت بينه وبين الحرية. ثم أضاف:

- لكنه مستثنى لأنه من أصحاب الشهادات العليا.

عاد تنفسه إلى طبيعته.

سافر بعد أيام وفي جيبه ألف دولار فقط.

إلى المنفى الصحراوي

وجد عنواناً لمعهد في عاصمة الصحراء. أعد كشفاً بمؤهلاته وخبراته ورسالة طلب توظف. ترجّى أحدهم لإرسالها بالبريد. تأكد له بعد شهور بأنه رماها بالقمامة متعمداً. سأل المعهد فأجابوه بعدم تلقيهم طلبه.

صدرت التأشيرة وسافر إلى القاهرة. أوقفوه في المطار. لا بد من موافقة الضابط، وبانتظار عودته في صباح اليوم التالي كان سيقضي ليلة في سجن المطار. أينما ذهب فضابط أمن بالمرصاد. تشفّع له ضابط في الجمارك. ليلتها كان مرتدياً قميصاً تذكارياً طبعت عليه بخط عريض حروف وشعار الأف بي اي الأمريكية. قال بزهو: حلقنا لحى الجميع! جالت دورياتنا الشوارع وكل من وجدناه بلحية طويلة حلقناها على الرصيف. أخبره بأنه لا تفوته حلقة من حلقات المسلسل الأمريكي دالاس، ولا تكتمل لذة المشاهدة بدون قنينة مرطبات مستوردة مثلجة.

يطغي هم البطالة على كآبة الغربة. البحث عن عمل هنا منافي للمنطق، أشبه بالسباحة عكس التيار، هنا يهاجرون للعمل في دول أخرى. على الأقل أرضى نفسه المتأففة من البطالة، بعدها سيقول حاولت ولم أوفق. صباح كل يوم اشترى الصحف وقرأ الإعلانات المبوبة. وجد وظيفة مناسبة. قدم طلباً ودعوه لمقابلة من دون نتيجة. بعد عشرات الصحف ومئات الإعلانات وقبل اليأس بارقة أمل. شركة استشارية تطلب موظفين أكفّاء أسسها أستاذ في الجامعة الأمريكية التي تخرج منها، واضطرّته الحرب الأهلية إلى نقل مقرها إلى القاهرة. قابل مديرها فعرض عليه وظيفة براتب جيد.

بعد أقل من شهر طلبوا منه التهيؤ للسفر إلى روما لتدريب موظفين من دول عربية. اعتادوا عقد برامجهم في مدن أوروبية، لاجتذاب الصحراويين الذين يعتبرونها فرصاً للسّفر والسياحة. يقضون لياليهم بالسّهر في الملاهي وفي النهار يحضرون الدروس

بأجسادهم وتغيب عقولهم. كان مستعداً لتنفيذ المهمة ثم تذكّر التأشيرة. سأل فأبلغوه بأن عليه الانتظار أربعين يوماً قبل الحصول على تأشيرة دخول جديدة. عرض المشكلة على المدير. أخبره بأنهم جميعاً يخاطرون بالعمل هنا، فهو فلسطيني بدون رخصة عمل. سأله إن كانت شركته ستحصل له على تأشيرة دخول متعددة. وخرج من دون جواب.

لو خاطر بالسّفر معهم إلى روما فسيضطر للبقاء أربعين يوماً قبل العودة. كتب رسالة استقالة مبيناً السبب. بعد أيام امتلأت الجرائد بإعلانات طلب أساتذة لجامعات دول الصحراء. العمل في الدول الصحراوية علاج أمرّ من الصّبر لعلّة البطالة. حضرت فرق التوظيف، وسارع لملأ طلبات التوظف حتى للجامعة التي تريد منك بيان طائفتك. كان من بينها المعهد في عاصمة الصحراويين، ولأنهم الأقدر على استخراج تأشيرة عمل بسرعة وافق على عرضهم.

قبل السفر إلى البلد الصحراوي بأيام تجاذبته مشاعر مضطربة، فرح بعمل ومصدر رزق وحزن لسنين قادمة في بلد الصحراء، حليف القائد الطاغية، الذي أمدّه بالمال والسلاح، فسالت دماء مئات الألاف.

رنّ جرس الباب، نادراً ما يحضر أحد لزياراته. توقع بائع الحليب أو قارئ عداد الكهرباء. فتح الباب فقابله وجه (أبي الجعل). بدا كأنه نسخة فقيرة من الأصل، حيرته ملابسه الرديئة وحقيبته الرثّة. جاء ليتزوج. ترك وراءه الوظيفة الجامعية والبيت المطل على النهر والسّيّارة من أجل زواجه من عشيقته الطالبة. ستلحق به بعد أيام. وافق أهلها على الزواج بشرط سفرهما إلى الخارج، حفظاً لسمعة العائلة أمام كاهن الكنيسة والأقارب والجيران. فرش له في غرفة الاستقبال، وأبلغه بسفره بعد يومين. طلب (أبو الجعل) تعليمه الصلاة. تعجب من الطلب. كان (الأثرم) مراهقاً عندما تعلمها من كتيّب اشتراه بمصروفه. يومها تفاجأ (اليقطينة المخرومة) وأشفقت (الملطومة) عليه. في قراهم الصلاة والفضائل بعد الزواج، والنفاق أيضاً. كان باستطاعته تعلمها بنفسه. بعدها بسنين عرف السبب.

تركه في الشقة. بعد وصول عشيقته تزوجا، أو هكذا افترض، ووجد عملاً في جامعة ليبية.

أوصله موظف العلاقات العامة في العاصمة الصحراوية إلى مبنى مسبّق الصنع. السكنى في شقة الضيافة لأيام بعدها الانتقال إلى عمارة سكنية. كانت محطة أخرى في مسار الغربة، كل ما فيها عمَّق مشاعر الوحشة والكآبة.

في اليوم التالي اقتادوه وثلّة من الأساتذة الجدد إلى مكتب المدير العام. خلاسّي من نجد. أشاعوا بأنه انضم إلى حزب البعث في شبابه، وأغروه بالبعثة والوظيفة فانشق، وأبطن نقمته على الحكام. عندما جاء دوره للتعريف بنفسه خاطبه ساخراً:

- إنهم يقولون بأن حربكم مع الجارة كفخّار يكسّر بعضه. والحمد لله أنها حوالينا ولا علينا.

فَهِم (الأثرم) أن القائلين هم حكام بلاده وأتباعهم. كان المدير العام يدعو أحد الأمراء من أخوان الملك لحفلات عشاء في بيته. يضيفهم فيها عاهرات حبشيات ومشروبات كحولية مشتراة من سفارة أوروبية بأسعار باهظة.

خمسة أنذال

كانت (الملطومة) تعلق رسم الخمسة للبركة، لكن هنا في وسط الصحراء تعرف على خمسة أنذال ناقمين. تولى موظف الاستقبالات تعريفه بهم.

- الحسن تزوج سبعين امرأة.

بهذه الكلمات رحب بي (المخصيّ). احتار حول دوافعه. أيكون طائفياً وملحداً في نفس الوقت؟ ورجح الحسد. سماه (المخصيّ) معنوياً على الأقل. تؤذيه زوجته الإنجليزية فيتنمر على الاخرين. اشتكى للجميع بأنها تأبى مجامعته ولا تطبخ مرق البامية. لا تخفي الزوجة ازدراءها له. تتجاهله وتجلس بعيداً عنه. طبعه الفائر لا يتفق مع فتور مزاجها. تزوجها على الأغلب من أجل التجنس، واستمر الزواج بالمشتركات القليلة حتى نفاذها، ومن دون ذرية تحولا إلى قطبين متنافرين. انفجرت عصبيته على المتدربين. صفع أحدهم فشكاه. بعد أقل من سنة طردوه.

تأمل (المخصيّ) أن تعوضه زوجة (أبي لباس حريمي) عن حرمانه. تجرأ على مغازلتها والتحرش بها أمام الجميع. لم تنهاه أو تشتكيه. تزور جيرنها برداء بيتها. تبدو وكأنها للتو نهضت من سريرها، ونسيت تمشيط شعرها الكثّ، وغسل قذى عينيها، حتى ظنّها (المخصيّ) طريدة سهلة. استحق زوجها كنيته (أبا لباس حريمي) بسبب لباس داخلي حريمي. وجدته زوجته مخبئاً في حقيبة ملابسه. تأكدت بأنه لباس صديقته الأمريكية. لا بد أن لونه أحمر، وموشّى ونصفه شفاف. احتفظ بلباسها الداخلي تذكاراً لأيامه معها، ولياليه أيضاً. فضحته أمام مواطنيه والصحراويين. سخروا منه علناً، ولعلهم حسدوه في سرّهم، وتمنى كل واحد منهم امتلاك لباس حريمي. استبقوه لتدريس اللغة الإنجليزية حتى بعد استغنائهم عن معظم الأساتذة الأجانب.

ثالث الخمسة (المخبر)، أقاربه جيران بيت (أبي الجعل)، لا هم قطعوا ولا عائلته الأمتار القليلة بينهم لتبادل الزيارات، ولا حتى ألفوا وجوههم. قابله (المخبر) بسلام

فاتر وابتسامة مغتصبة. تمايل في مشيته للتعويض عن قصر قامته، وزوجته الأيرلندية بطوله، سلمت بكلام غير مفهوم، ثم ابتعدا كفأرين مذعورين.

- لماذا تركت؟

اتهام أكثر منه سؤال، بمعنى أنت خائن. عقد الابتعاث يلزمهم بالعودة، لكنهم اختاروا العمل في البلد الصحراوي. عاد هو فاضطهده أمثالهم، فصار خائناً في نظرهم. كان عليه البقاء ليهلك في الحرب فداءً لهؤلاء الحثالة وأمثالهم. من الأسبوع الأول تحددت المواقع، هو في ضفة لوحده والثلاثة على الضفة الأخرى، وما بينهم خندق عميق مليء بأحقادهم.

الرابع (الحرباء) التقاه بعد شهور. عمل في فرع بالمنطقة الشرقية من الصحراء. دعاه لشقّته في سكن الموظفين. في جانب من غرفة الاستقبال فرش حصيرة صلاة، وصارحه متودداً بانتمائه الطائفي المشترك.

الخامس (المنافق) ساعد نائب المدير العام الصحراوي في إعداد بحث الشهادة، فكافأه بوظيفة. وصف نفسه: نحن النخبة. الصحراويون في نظره آكلي اليرابيع والجراد. تبجح بأن صحراوياً ضايقه في الشارع. أوقف سيارته وبعقال السائق جلده عدة مرات، ثم ساق مبتعداً عن المكان. ورث شجاعته المزعومة من أبيه، هو الآخر درّس في مدرسة صحراويين. وجده شرطي خارج المسجد وقت الصلاة فساطه بخيزرانته. انتزع أبوه الخيزرانة من الشرطي وضربه عدة أسواط، ثم استقال وغادر. اغتاظ من (الأثرم) لأنه كشفت انتماءه الطائفي لزميل من نفس الطائفة. كان يجهل بأنه حريص على اخفائه، حتى على أمثاله. أخبره الزميل بأنهما درسا في نفس الجامعة. داوم (المنافق) على صلاة الجمعة مع الصحراويين عاقداً يديه على صدره مثلهم ومن دون علي ولي الله وحي على خير العمل. الصحراوي خبيث. تعمد التباهي بنكاحه زوجة عراقي زميل في نفس الجامعة. كان يجامعها في سيارته. يجلس وراء المقود وتفترش الزانية حضنه.

جلد (المنافق) ولده. له ابنتان أيضاً، عقاباً على تبوله اللاإرادي أثناء النوم. لم يشفه الجلد. كان يرخي حزامه قبل فتح باب شقتهم عائداً من العمل، لا لاستعماله على ولده

بل لإفساح مكان رحب في جوفه للغداء. من الباب مباشرة إلى طاولة الطعام حيث تكون زوجته قد أعدت السفرة. يعلق سترته على الكرسي، ويبدأ تناول طعامه.

تضايق (الأثرم) من معاملة (المنافق) لأبنائه. اختار للثلاثة أسماء مستساغة في الغرب، لينسجموا مع الأمريكيين لكنه أهمل رعايتهم. أثناء دراسته في أمريكا زاره موظفو رعاية الأسرة، بعد ظهور عوارض سوء التغذية على ابنته البكر. حذروه إن لم يتحسن وضعها فسينقلون حضانة الأبناء إلى عائلة أخرى. بررت زوجته تسللها هي و(المنافق) تحت جنح الظلام للتمتع بكأسين من المثلجات، قالت: لو اصطحبناهم فسنضطر لشراء مثلجات للجميع. في ساعة متأخرة من إحدى الأمسيات وجد ابنتهم البكر واقفة أمام باب شقته. نهضت من فراشها وخرجت وهي نائمة. في ليلة أخرى غاب أبواها فجاءت لتشكوا إليه من ألم في أذنها فأخذها إلى عيادة طبيب في مستوصف خاص. درس وسكن ابنه في أمريكا، وتزوج من مديرته في العمل، أمريكية بعمر أمه، هكذا وصفوها بدون مبالغة، لكنها لم تكبره بأكثر من عشرين عاماً. قاطعه الأب بعد الزواج.

استغل الأربعة الأنذال كرم صحراوي، عائلته من عبيد الحكام. انتهت العبودية قبل عشرين عاماً، واستمر الولاء المطلق. يدعو الأربعة لبيته، كاسراً عرف الامتناع عن مخالطة غير الصحراويين، لتناول المأكولات الصحراوية والمشروبات الكحولية الممنوعة. دعاه الصحراوي للانضمام لهم فاعتذر.

في عطلة ما بين الفصلين سافرا (المخصيّ) وزوجته، هي إلى موطنها وهو إلى تايلاند، وبصحبته سوري سمين بشعر أحمر. كذب السوري على زوجته، وفضحته بعد عودته. نقبت كعادتها في جيوبه فوجدت التذكرة. لم يخبرها عن تايلاند، ولا كان هدفه و(المخصيّ) السياحة البريئة. لا بد أنهما خططا للسّفرة قبل وقت كاف، فالإقبال على تايلاند بين الصحراويين كبير. شهد ذلك بنفسه في مطار عاصمتهم. كان بانتظار رحلة إلى دولة صحراوية أخرى في مهمة عمل عندما أُعلن عن قرب اقلاع رحلة تايلاند فنهض الصحراويون كرجل واحد، وركضوا نحو الباب المفضي إلى الطائرة. لو تعثر أحدهم وسقط

لداسوه بأحذيتهم. لم تطلبا الزوجتان الطلاق. اشتهرت زوجة السوري ببراعتها في الرقص الشرقي. كانت زوجات الأساتذة يشتكين من ملل الحياة في الصحراء. يجتمعن كل حين ويتبارى بعضهن في الرقص الشرقي. أفرغت زوجة السوري غضبها في الرقص، تحضر بالعباءة كالبقية وتحتها بدلة الرقص الشرقية، اشتروها من سوق الحميدية لتكون ضمن جهاز عرسها. ربما تمنعت عن لبسها والرقص لزوجها بعد افتضاحه، لكنها لم تبخل على جاراتها.

لم تغفر الزوجة الراقصة لزوجها، إلا بعد شرائه حلية ذهبية باختيارها. لا ترقص زوجة سوري آخر، لكن أهلها اشترطوا عليه حلّية ذهبية أول كل شهر. التزم السوري بوعده، وعندما اشتهت عقداً ألماسياً، رفض بحزم وذكّرها بوعد أهلها. كان عريساً جديداً اشتكى بقلة حياء من رداءة صنع سريرهما في السكن، ففي ظرف أيام وليال ادعى بأنه كسره بفعل الاهتزاز أثناء مضاجعة زوجته. تصاحب عليه أمريكي مهاجر من بلاد (الدهن والدبس)، عجوز شارف على سن التقاعد. بعد حصوله على مرتبة أستاذ دائمي تكاسل، له كتاب واحد منشور. أن تكون أستاذ جامعة في أمريكا قمة المعرفة في نظر الصحراويين. أغراه المعهد براتب ضخم، مرّتان ونصف راتب (الأثرم)، وأقل بقليل لزوجته. هي إحدى طالباته. تزوجها قبل أشهر من مجيئه. سخّر المتجنس الأمريكي السوري الوقح لخدمته. احمرّ وجهه خجلاً عندما شاهده (الأثرم) حاملاً ملابس الأمريكي من محل التنظيف إلى شقته. بعد مهلة طلبوا من المتجنس إلقاء محاضرات في القانون الدولي باللغة العربية. استوقفه قبل ظهيرة يوم ودعاه إلى مكتبه. على المنضدة دفتر ملاحظات بورق أصفر خطّ عليه سطراً واحداً بحروف كبيرة:

- منذ الصباح جلست لأعد المحاضرة وهذه النتيجة كما ترى: سطر واحد! اكتشفت بأني نسيت اللغة العربية.

عرض عليه المساعدة، لكنه رفض. زاره في شقته. اشتكى من تدهور صحته منذ وصوله، بسبب جدران الشقق المصنعة. ادعى بأنها تتفتت ببطء لتنبعث منها مواد كيماوية سامة،

تتنقل عبر أنابيب المكيّف المركزي. استدعى عمال الصيانة الفلبينيين مرتين لتنظيف أنابيب شقته. من قبل ذلك طلب منهم تنظيف أرائك ومقاعد الشقّة لأن سكنتها السّابقين سودانيون، تجلس نساؤهم في الحمام على مقاعد تحتها صفائح مليئة بدهون زيتية ساخنة رائحتها قوية، يؤمنون بفائدتها في إثارة الرجال جنسياً، تلتصق بالجلود والملابس والأثاث والجدران، ولا يطيقها غيرهم، كلما شمها (الأثرم) ولو عن بعد أحس بالغثيان. أثناء آخر لقاء بينهما اشتكى الأستاذ المتقاعد من ظهور دم في بوله. أول ما خطر ببال (الأثرم) إلحاح عروسه في الفراش، لكنه عاد لاتهام جدران الشقّة. في منتصف العام استقال هو وزوجته من دون القاء محاضرة واحدة. غادرا إلى بلدها حيث طلقته بعد أشهر.

يعامل الصحراويون المغتربين – عدا البيض الشقر، باستعلاء وجفاء وريبة، ومثل كل البدو لا يخفون احتقارهم للعمال اليدويين. سُرقت إحدى الشقق في المجمع السكنى، فدارت الشكوك حول عمال النظافة الفلبينيين، وتبين بعد التحري أن السارق صبي من عائلة سودانية تسكن في المجمع أيضاً. تسلل من مجرى التهوية. لم يعتذروا للفلبينيين بالتأكيد، لأنهم مثل تلك السيدة الصحراوية التي رأتها زوجة زميل ترمي بقية خروف مشوي ومحتويات طناجر من الأرز في القمامة، فنصحتها بإعطائها للعمال. رفضت لأنهم كفّار. أخبره أحد المتدربين يعمل بإدارة السجون عن مأساة أحد هؤلاء العمال. أوقفوه لمخالفة تافهة، فأقنعه موقوفون معه بأن مصيره الإعدام بقطع الرأس في ساحة قطع الرؤوس. صدّق مزاحهم وانتحر. دفعت معاناة المغتربين (الأثرم) إلى تأليف ونشر باللغة الإنجليزية كتابين يعرفانهم بحقوقهم ومقالات تكشف تعرضهم للاضطهاد والتمييز في المعاملة.

لا يفارق (الأثرم) القلق على مصيره، يمتص البهجة قطرة قطرة حتى لا يبقي منها شيئاً، مثل الصّبر الذي جرّعته إياه (أم لسان الزفِر) فحرمته من حليب الأم. قصد سفارة بلاد (الدهن والدبس) لإنجاز معاملة. استقبله القنصل بفتور. عزم عليه بشاي أو مرطب فاعتذر شاكراً. خاف من سّم الثاليوم. يزقّونه للمعارضين في طعامهم وشرابهم داخل السّجن

ثم يطلقون سراحهم ليسري السّم الكيميائي في أجسامهم ببطء فيموتون بعد وقت قصير وعذاب شديد. أنجز القنصل المطلوب ثم أخبره بأنه استلم أمراً من حكومته بمصادرة جواز سفره عند مراجعته للسّفارة، ولكن لأنه حضر من أجل أمر مختلف فسيرد له جواز سفره هذه المرّة، ولو عاد فسيضطر لمصادرته. شكره وغادر متشبثاً بالجواز لئلا يخطفه أحد. هنا بدأ فصل جديد من العذاب، سيكون أشدّ وأمضى من السابق.

بدأ بالتفكير بجواز سفر بديل، فلو انتهت صلاحية جواز سفره فسيلغي الصحراويون رخصة إقامته ويزجونه في سجن الترحيل الرهيب في الملز، ويحلقون شعره بالموسى، ثم يرحلّونه إلى بلد (الدهن والدبس) عند حليفهم الطاغية لينكّل جلاوزته به، وستفرح عائلته بالتخلص منه ولو بالقتل. تابع إعلانات مكاتب الهجرة وحكومات جزر البهاما التي تعرض جنسياتها للبيع وللمستثمرين. اهتدى إلى مكتب في كندا، يديره كندي من أصل فلسطيني. راسله فوعد بتسهيل حصوله على الجنسية الكندية بشرط امتلاك حساب مصرفي بعشرات الألاف من الدولارات. في وقتها ادّخر أقل من ربع المبلغ.

استلم رسالة من (أبي الجعل) يحثه على تقديم طلب للهجرة إلى كندا من دون وسطاء. راجع هو السفارة في الكندية في إيطاليا فوافقوا على منحه تأشيرة هجرة للعمل. لا توجد سفارة كندية في بلاد الصحراء فكتب لسفارتهم في القاهرة من غير جدوى.

منّى نفسه بمهلة سنين باقية في جواز سفره، سيأتي الفرج قبل انقضائها. قيظ الصيف لا يطاق في البلد الصحراوي، عينة صغيرة من حر جهنم، يهرب الصحراويون منها إلى بلاد أخرى، لا يبقى سوى الفقراء منهم والعمال. سافر إلى لندن. اكترى له أحدهم شقة، بمبلغ باهظ، مالكها مسيحي مهاجر من بلاد (الدهن والدبس). أثرى من تجارة العقارات، والوسيط ورث ثروته من والده، جمعها من احتكار الطحين في زمن الشحّ. مر على الشقّة وأثاثها أجسام متعرقة، لصحراويين على الأغلب. تغلغل الوسخ وسخام المداخن فيها حتى توشّح سجادها واصطبغت اطارات نوافذها بسواد وتضمخ كل شيء فيها برائحة قطران سجائر. دفع الأجرة مقدماً ومثلها ضمان. قبل سفره تهرّب مالكها الخبيث من ارجاع مبلغ

الضمان، فاشتكاه لابن ثري الحرب، فوعده باسترجاعها. تبرع بها لمساعدة معارضين لنظام القائد الطاغية، وندم لأنهم أوغاد كما تبين فيما بعد.

التقى (أبا الجعل) وزوجته. كان أول لقاء له بها. ذوق (أبي الجعل) في النساء رديء. كانت (الملطومة) تردد بأن الملك المكلف بتوزيع الحسن على البشر مرّ علينا نحن المسلمين بدون توقف، وبات لدى المسيحيين. زوجة (أبي الجعل) كذّبتها، خلا كل ما فيها من الحسن: سحنتها الزعفرانية وعيناها الصغيرتان كزروف مغرفة الأرز وأنفها المدبب وترهّل جسمها، واكتمل قبحها عندما فتحت فمها لتنطق. يصفون مثلها في الجنوب بالفهية، فتود لو أنها صمتت. أصابت (الملطومة) بظنها أن ابنها (أبا الجعل) مسّحور، فلو لم يكن لما أعجب بها وهاجر ليتزوجها. لعل الأرواح الساكنة في بئر البلدة المقدسة أرسلتها له.

أتيا إلى لندن هاربين من ليبيا. لبثا فيها ستة أشهر، وغادراها بذريعة الإجازة. كعادته ترك معظم ملابسه القليلة، وسافر بحقيبة واحدة لئلا يشكوا بنواياهما. وصف له معاناته في العمل وعذابهما في السكن. سيطر الطلاب على الجامعة، بتحريض الأخ القائد، وتحكموا بالأساتذة والمناهج، حتى أنهم نصبوا مشنقة لأستاذ. اضطرا للإقامة في فندق رخيص، بسبب قلة الشقق. الحمام مشترك، وباب المرحاض من دون قفل، وكلما أرادت زوجته استعماله رافقها ليقف حارساً أمام بابه. تلبكت امعاؤهما بسبب طعام المحليين غير المستساغ وقلة الخضار والفواكه الطازجة. وجد (الأثرم) صعوبة في تصديقه. بعد سنين سأل أستاذاً عمل في جامعة ليبية فكذّب كل ادعاءات (أبي الجعل). قبل وصول (أبي الجعل) راسل صديق (الأثرم)، كويتي من أصل لبناني، ليساعده في البحث عن وظيفة. عرض عليه التوظف في شركته فوافق. في ثاني لقاء مرّ به قبل التوجه للسفارة الكويتية لاستلام التأشيرة. بعد مغادرته بنصف ساعة عاد من دونها. عند أول شارع السفارة شاهد جمعاً من المتظاهرين. خمّن بأنهم معارضون معتصمون أمام سفارة القائد الطاغية القريبة. ارتد على أدباره خوفاً من مصورين داخل السفارة، يلتقطون صوراً للمعارضين المتظاهرين،

وخشي أن يظهر وجهه في إحدى الصور أثناء مروره في الشارع ولو من بعيد فيظنونه معارضاً. انتظر حتى اليوم التالي ليستلم التأشيرة ثم سافرا.

انقضت الإجازة وسافر (الأثرم) عائداً إلى البد الصحراوي. في العمل كما السكن غرباء، كل واحد يدور في فلكه الخاص، يلتقون ساعات ويفترقون أياماً وأحياناً يتصادمون. أناطوا به مهمة مساعدة بنكهم الزراعي في استرداد قروضه. بعد بحث قصير تبين أن النسبة الأعظم منها بجيب أمراء ووجهاء، فلا أمل بتحصيلها. اضطرته مهمة أخرى للتجول في أرجاء الصحراء، إلى الشرق حيث ما يزال سكانها المهمشون يشربون مياه الآبار الملوثة ويسكنون بيوت الطين غير بعيد عن آبار النفط. في شمال الوسط خطّت على واجهة مدرسة ابتدائية عبارة: اللعنة على اللواطين، لكن سكانها مواظبون على الصلاة في المساجد. أراد وهابي مهووس إرغامه على الصلاة معهم فرفض. في المدينة المنورة تبجح مدير البلدية بقلع نخل النخاولة الروافض وتشريدهم من دورهم وبساتينهم، واشتكى صنوه في مكة المكرمة من وسخ البورميين اللائذين ببيت الله من ظلم البوذيين. غضب (الأثرم) عليه، لأنه لا يجد بأساً في استغلال الحجاج، حتى قنينة الماء تباع بأضعاف ثمنها. في الشمال الغربي التقى أميرها أخا الملك. وجده جالساً في خيمة أمام وجاق، وبيده كتاب باللغة الإنجليزية عن الإدارة الحديثة. جال به بسيارته في أحياء المدينة. لا تزال بصمات آل الرشيد ماثلة على مبانيها القميئة وطرقها المتربة. عندما جاء دوره لاستلام الحكم فيما بعد نحوه جانباً.

في السكن اكتفى بالمشاهدة من بعيد، والتعجب وأحياناً السخط. خلا قلب والدة جاره السوري من الرحمة، زوجته أجنبيه، مرضت بداء شلّ حركتها. زارتهما والدة الزوج، وحرّضت ابنها على تطليق زوجته فرفض. أهملت عائلة أخرى صحة قلب طفلها المريض. أمضى ساعات في مسبح السكن، وخرج منهكاً فسقط ومات. لجاره الفلسطيني الأصل زوجة أمريكية وصديق مصري. تردد المصري على شقة الفلسطيني بانتظام. أكل على مائدتهم وقضى معهما الساعات. بعد زيارة للأمريكية عادت زوجة زميل حانقة لأنها وجدت

المصري معها وزوجها غائب. بدا الامتعاض على وجه المصري لرؤيتها. بعد أيام حذرتها من تصرفها النزق. تبين بأن الأمريكية تميل للمصري، وهي مقتنعة بأنه صادق في عواطفه تجاهها وجاد في عرضه الزواج منها بعد طلاقها. صارحتها بأن المصري الذي خان صداقة زوجها لا يهمه سوى الحصول بواسطتها على الجنسية الأمريكية، ولن يهتم بتربية ولديها من زوجها الفلسطيني. اقتنعت الأمريكية. قلّب (الأثرم) المشهد في عقله، الفلسطيني ضحية الاثنين، الصديق الخائن والزوجة الخائنة أو الموشكة على ذلك، فهل الأفضّل التفريق بين الخائنين أو انقاذ الفلسطيني المظلوم من الأمريكية؟ ومن يدري إن كانت ستكرر نفس السلوك مع آخر.

تستحضر الخيانة حكاية أخرى. ترك الأستاذ (عاني) عمله في بلد القائد الطاغية. تزوج بمطلقة، طبيبة لها ولد من زوجها الأول، وتوظف في جامعة الصحراويين. لم يهدده القنصل بمصادرة وثائقه. سخّره (عاني) للتسوق والتوصيلات. بعد جولة تسوق دعاه لشقته في السكن الجامعي. أحضرت خادمتهم الحبشية الشاي، وتمخطرت أمامهم بغلالة شفافة كشفت خفايا جسمها. سألته زوجة (عاني) عن صلة قرابته من حفيد (المكوي) المقتول في البقاع اللبناني. قالت بأنها تعرفه. هو تذكّرها أيضاً. أخبره بأنه تصادق على واحدة من مواطنيه، طبيبة مطلقة، وتوطدت العلاقة بينهما. لو كان (الأثرم) خبيثاً لقال لها بأن قريبه ثرثار، ويحب الحديث عن نفسه وأصدقاءه ومعارفه، وبالتفاصيل، وستفهم بالتأكيد. قاطعوه بعد تلك الزيارة، وفرح بخلاصه من السخّرة.

لزوجة زميل صحراوي أخت، طالبة جامعية. المتجنسون أمثالهم يعيشون في برزخ، فلا هم صحراويون ولا أجانب، لذلك الأخت ساخطة، وتستعجل السفر. في مساء يوم التقاها في شقة أخيها. تذكّر (الأثرم) يومها خبراً سمعه في اجتماع. يضطر للاجتماع مع الصحراويين في العمل، وكعادتهم أضاعوا الوقت بتبادل الأحاديث والأخبار وشرب الشاي. كان خبر اعدام امرأة محور حديثهم. امتلكت المرأة المجنّسة مشغلاً للخياطة، واجتذبت مهارتها في التفصيل الصحراويات الثريات، وارتاد مشغلها رجال، لا لتفصيل ملابس بل

للتلصّص على النساء. وضعت مالكة المشغل أجهزة تصوير في الغرف، وجلس زبائنها الذكور في قاعة للتفرج على النساء وهن يخلعن ملابسهن. أعجب أحدهم بفتاة فرّشى المتجنّسة لتمكّنه منها. عند عودتها لتجربة ردائها دسّت للفتاة مخدراً في شرابها، فلم تعد عذراء. أفضت لأمها بسّرها، فعرف الأب، واشتكى إلى حاكم الصحراء. صدر أمر بالقبض على المرأة ومحاكمتها، وحكم عليها بقطع الرأس. قبل تنفيذ الحكم هاجم ثلّة من الأمراء وأعوانهم السجن، وأطلقوا سراحها. أبدى الصحراوي النّاقل للخبر ارتياحه لإعادة القبض على المرأة المفسّدة واعدامها. كذّبت أخت الزميل خبر اعدامها. بنات المرأة زميلاتها في الجامعة. حضرن في الصباح كالمعتاد بعد تناول الافطار مع والدتهن. ونجا الصحراويون المتلصّصون من العقاب. روى (الأثرم) لهما أيضاً ما قاله له موظف صحراوي في العمل قبل أيام. استعان به للإجابة على أسئلة برنامج مسابقات. وزعوا عليهم الأسئلة مسبقاً، خوفاً من عجز المتسابقين عن الإجابة ولو على سؤال واحد. زوده بالإجابات، بعدها وجده واجماً. ربح أكثر من راتبي لشهر كامل، وتمنى ربحاً أكبر، ثم قال:

- أنا محتار هل أحزن لطلاق أمي أم أفرح لزواج خالتي؟

تبين بأن اباه طلّق أمه فزوجوه أختها.

استلم استغاثة من زميل عمل من بلاد (الدهن والدبس). أرسلوه إلى أمريكا ليكمل دراسته. تخرج وبحاجة لثلاثة ألاف دولار وإلا سيضطر للعودة. أرسل المبلغ فوراً وقدم له طلباً للعمل في المعهد الصحراوي. وافقوا على تعيينه لكنه فضل العمل في جامعة أمريكية، وأعاد له القرض.

زرع الأبوان الرعب والخجل في نفسه، ومن بعدهما استلمه القلق من اقتراب الهاوية، فلا جواز سفر ولا بلد يقبل به، فلا مفرّ من نوبات الذعر، لا تبارحه، حتى أدمن عليها، ثم غزت كل العلّل بدنه، وأولها ارتفع ضغط الدم. تردد على أطباء، مصري وسوري وهندي وسوداني في مستوصفات خاصة، أنشأها صحراويون للربح فقط، لا تخرج منها بدون

تحاليل وأشعات حتى لو اشتكيت من صداع. سارع طبيب سوداني مبتدئ لوصف دواء جديد، مضاره أكثر من فوائده.

زاره (المخبر) في مكتبه، ورفض الجلوس. كلفته سفارة (الدهن والدبس) بجمع تبرعات للحرب، وطلبوا مجوهرات لا نقود. قال بأنه يعرف اجابته سلفاً، لكنه مضطر للسؤال. رفض فانصرف خائباً. تبرع (المنافق) ببعض مجوهرات زوجته، الأرخص ثمناً. ادعى بأن قرطاً منها تبرع به باسم (الأثرم). عاتبه على فعله، وظنه كاذباً، فمن يبخل على أولاده بكوب مثلجات لن يتبرع عن غريب بحلّية، ولعله شعر بالضَّعة لأنه خنع وطأطأ للطاغية وتمرد (الأثرم)، فأراد اشراكه ولو كذباً بهوانه.

في بلاد (الدهن والدبس) هنالك من يفيق في الصباح وقبل شرب الشاي وتناول صحن باقلاء مقلية بدهن حيواني أو لحم وشحم رأس خروف مسلوق وفي عقله فكرة واحدة طغت على كل ما عداها: التنكيل به. استلم إنذاراً من مكتب (المتزلف)، أما أن يعود لخدمتهم أو الحكم عليه بالحبس لمدة لا تقل عن عشرة سنين. لا زال يحتفظ بنسخة منه. بعدها بزمن قصير أبلغته إدارة المعهد بضرورة مراجعة إمارة المنطقة. قابله موظف بنظرات فاحصة ومرتابة. أراد منه التوقيع على بلاغ صادر من وزارة خارجية (الدهن والدبس) بواسطة حكومة الصحراويين يطالبه بالعودة الفورية ويحثّ الصحراويين على طرده. وقع ورجع محملاً بهموم وأحقاد، لم تفتّ السنون من حدّتها حتى اليوم.

حلّ وقت القرار المصيري، بعد عام واحد ستنتهي مدة جواز سفره، فقرر الاستقالة والسفر بحثاً عن ملجأ بعيداً عن البلد الصحراوي. رفضوا الاستقالة ووعدوه بتدبير إقامة من دون الحاجة لتجديد جواز سفره.

بعد عودة (الأثرم) من الإجازة اتصل (المنافق) ليترجّاه التوسط لدى المعهد. اضطر لتأخير عودته بانتظار حصوله على البطاقة الخضراء الأمريكية. أقنع إيراني متجنّس بتوظيفه في شركته الصغيرة، لمجرد الحصول على بطاقة الإقامة. بعد إلحاح من (الأثرم) أعطوه مهلة إضافية للالتحاق بعمله. لدى عودته أولّم له خروفاً مشوياً، وحمله الباقي

منه. بعد أسابيع كلفّوا (المنافق) بمراجعة مخطوطة مقال قدمه (الأثرم) للنشر، فصححه بقلم أحمر مثلما يفعل معلمو المدارس الابتدائية بإجابات طلابهم. دافع عن مقاله ودحض تصحيحاته. غضب (المنافق) وقاطعه. بعد سنين اتصل به ليبلغه بأنه يعمل في جامعة، ويمتلك بيتاً مطلاً على البحر في ولاية فلوريدا وسيّارة جديدة. تعمد ذكر استمتاعه باحتساء بيرة ومشاهدة أمواج المحيط في تلك اللحظة. بعدها بأشهر فاجأته سّكتة قلبية وهو يقود سيارته الجديدة. سقط ميتاً قبل بلوغ طوارئ أقرب مستشفى. اضطرت زوجته لبيع بيتهم المرهون، واستأجرت شقة صغيرة، وأعادت السّيّارة المشتراة بأقساط، وعملت براتب صغير في دار حضانة.

لم يبق من العام وصلاحية جواز سفره سوى شهر واحد. انطفأ البصيص وأطبق النفق المظلم عليه. حسد (عاني ثاني)، هو الآخر امتنعوا عن تجديد جوازه لسبب أو آخر. ترجى مساعدة زميل في العمل، لا تربطه به صلة قرابة أو صداقة، صحراوي قريب للحاكم من بعيد، زوده بإقامة دائمة وجواز سفر صحراوي. سافر به إلى أمريكا لعلاج عقمه.

سارع (الأثرم) لتدبير أمور مغادرته. ذهب إلى البنك لسحب مدخراته. أودعها بعملات أوروبية من دون فوائد . أصرّ موظف البنك الأردني الخبيث على تسليمها بالعملة المحلية فرفض وهدده، فرضخ. حولها بواسطة مكتب مصرفي وبسعر أفضّل إلى حسابه في بنك بريطاني. تبرع بحوالي عشرها لمنفعة معارضي القائد (الطاغية). كان أجدر بها من هؤلاء الذين تبين نفاقهم وفسادهم بعد حين.

باع بعض أمتعته وأهدى الباقي. وفي آخر ليلة حضر الصحراوي الفرح بتشريد النخاولة "الروافض"، لا لوداعه بل لمساعدته في إعداد بحث، وأثقل عليه بظلّه حتى ساعة متأخرة. سمع بأنه أثناء قصف القائد الطاغية لعاصمة الصحراويين هرب الصحراوي إلى أقصى الغرب، وبعد انتهاء القصف تلكأ في العودة حتى هددوه بالفصل من الوظيفة. كان يغطي جبنه بوقاحة شرسة في معاملته للغير.

ثمان سنوات عجاف في المنفى الثاني

استقبلته صور القائد (إلى الأبد) في المطار. أرسل قريبه سائقه وابنه لتسهيل دخوله. لجأ قبل سنوات. انتمى لمجموعة معارضة لنظام القائد (الطاغية)، عددهم خمسة لا غير. سخر منه أفراد العائلة، أشاعوا بأنه كان يسكر في ملهى، ويهذر بفكرة خيالية لقلب النظام. بعد الصحو خاف من وشاية مخبر فهرب. حجزوا له غرفة في فندق قميء. الدفع بالدولارات. في الليل دبت صراصير من حمامه الشرقي. هدأ عقله المسّهد بالقلق من المخفي الآتي بحكمة: عندما تفعل الصحيح في البلد الخطأ توقع الشقاء.

قضى صباح اليوم التالي في مكتب للمخابرات برفقة السائق. بعد الاستجواب وافقوا على اقامته المفتوحة. شكرهم لأن بلدهم واحد من اثنين فقط يقبلون بأمثاله.

انتقل إلى شقّة، اختارتها زوجة قريبه بتوصية من سائقها، في مبنى لسكن العمال، يقع في أعلى منطقة المزة، والأبعد من الطريق العام، فيها غرفتان للنوم وحمام واحد. أثاثها رثّ وأجرتها باهظة، ولثلاثة أشهر فقط. سائق القريب مخابراتي شرِه، ولن يترك مثل هذه الفرصة من دون اقتطاع حصة لنفسه. انتقل المالك وعائلته للسكن في بيت قريب لهم. لم يسعهم البيت فأسكنهم ساحته الخلفية. ترددوا عليه أكثر من مرّة بذريعة الحاجة لملابس أو قطعة أثاث.

بحلول الظلام أتت الكآبة، استحوذت على مشاعره، واسترجعت الذاكرة وحشة (أم السرجين) ووحوش حكايات (الملطومة) ورعب القائد (الطاغية). لم تحضر الكآبة وحدها. جلبت معها مخلوقاتها الكريهة. اقتحمت النوافذ المشرعة لاستقبال نسمات الليل الرطبة. أزّت بسرعة لتصطدم بالجدران ثم هبطت الصراصير الطائرة على المقاعد والسرير والبلاط، ودبت نحوه. سارع لإغلاق النوافذ والتخلص منها.

وصل القريب بعد أيام. زاره في الشقّة. سيارته مرسيدس أدخلها بوساطة المخابرات من دون جمرك. استاء من رداءة الشقّة، ولام زوجته. الودّ مفقود بينهما، والزوجة تكره عائلتهما من دون تمييز. سلمها (الأثرم) هدايا، بينها قرّطان ذهبيان لابنة زوجها من زوجته الأولى وساعة لشقيقها. أخبره الابن بأن لا هو ولا شقيقته استلما الهديتين.

اتقنت زوجة القريب لهجة سكان (الدهن والدبس)، حتى تظن بأنها واحدة منهم. تعرف عليها أثناء دراسته في كلية الحقوق المصرية. يأس أبوه (الأملس) من نجاحه في المدرسة الثانوية، وخشي من استدعائه للخدمة العسكرية. لو طلبوه فسيهرب. استعان الأب بأخيه غير الشقيق. توسط الأخير لدى زعيم اقطاعي لبناني، تربطه به معرفة سطحية. قبلوه بوساطة اللبناني في مدرسة للفاشلين في طرابلس، ومن هناك إلى الإسكندرية لدراسة الحقوق. التقى بزوجته الطبيبة. وبعد تخرجه من الجامعة رجعا سوية. تسلية أقاربه السخرية المرّة. أشاعوا بأن زوجته ممرضة لا طبيبة، فمن غير المعقول أن تقبل طبيبة به زوجاً، وعاملوها بغلاظة، لم تغفرها لهم. كانت تذّم العائلة أمام (الأثرم) وتصفهم بأنهم عاطلون باختيارهم، ولم تستثني أحداً منهم. زاد من حقدها عليهم معاملة زوجها. أجبرها على تعلم لهجته، وحرمها من زيارة عائلتها في بلدها، وعندما جاءت والدتها لزيارتها وأحفادها حبسوها في غرفتها. من قبل أساء معاملة زوجتها الأولى. اشتكته إلى أقاربه، وادعت أمام (اليقطينة المخرومة) بأن زوجها يعاشر المومسات في فراش الزوجية، وطردها من بيته.

أول الهم البحث عن شقة بديلة. تصورها هينة. تبين بأن أكثرية شقق التأجير للسائحين الصحراويين. لا يكترثون لقذارتها ورثاثة أثاثها، لكنهم يهتمون بالعاهرة المقيمة، يستأجرونها مع الشقّة. أما شقق العائلات فلا يرغبون بتأجيرها له لأن كل القادمين من بلاد (الدهن والدبس) مشبوهون، يشكّون بارتباطهم بالمخابرات، ويخشون من استيلائهم على شققهم.

جال على مكاتب العقار من باب توما حتى المالكي ومن المزرعة حتى أعلى المهاجرين. تورمت قدماه وكاد يفقد الأمل، وفكر بشراء شقة صغيرة ولو كلفته معظم مدخراته. قبل اليأس وجد مالكاً رضي بتأجيره شقّته في حي المزرعة. هو عميد في الجيش، اقترب موعد تقاعده وأراد الانتفاع بأجرة شقّته لشراء بيت في مدينته حمص.

ذهب مع (سيف) ابن القريب من طليقته لتصريف نقود. قاده إلى دكان في سوق الحميدية. صاحب الدكان عضو في تنظيم إسلامي معارض للقائد (الطاغية). لما عرف بحاله بشره بالخلاص. مناه بجواز سفر جديد ووظيفة في الإمارات الصحراوية. دام ابتهاجه دقائق. بدده قائلاً: ليساعدك قريبك! بعد أشهر أفلس مصرف يمتلكه مهاجر من بلاد (الدهن والدبس)، فتبخرت أموال الكثيرين من مواطنيه، ومن ضمنهم قادة هذا التنظيم الإسلامي. أقاموا في إيران واستفادوا من مواردها، لكنهم أودعوا أموالهم في مصرف خارجها.

تُركن الانطباعات الأولى على أعلى رفّ، تحفظها الذاكرة، لكنها عرضة للمسح، لو جاء أحسن منها. لو لم يقبلوا به فلا مكان آخر يأويه. تعجب من الذين يلوذون بمن يقتل (الطاغية) أبنائهم كل يوم، لا يستطيع مواجهتهم والنظر في عيونهم، لذلك تحمل من دون شكوى، حتى الذي طرده من دكانته الصغيرة وأهانه. اشترى منه حاسب آلي فلم يشتغل. بعد الطرد والإهانة قال: كفاية عليك الراديو! قيل له أنه من عائلة محترمة.

توقفت حرب القائد (الطاغية)، وسلّم بمنفى طويل. لكن شهية (الطاغية) للحروب بقيت مفتوحة.

استلم رسالة شفوية من الصحراوي المضياف. نقلها زميل مشترك. فيها خبر محزن وسار. طلب موظفو سفارة (الدهن والدبس)) من المعهد تزويدهم بوثائق ومعلومات عنه. رفضوا لمنافاة الطلب للأعراف الدبلوماسية. حضر معهم (الحرباء) صاحب سجّادة الحصير المفروشة دائماً في شقته، بانتظار ركوعه وسجوده أمام ربه الفعلي في القصر الجمهوري لا في السماء. كان دليلهم. أجاب (الأثرم) برسالة شكر ووصف فيها دبلوماسي السّفارة بأنهم

جواسيس للأمن. بعد أسابيع أخبره بقّال الحيّ بأن رجلاً من المخابرات سأله عنه. أسّره جار بأن البقال لواطي يعتدي على الأطفال. استلم بلاغ الاستدعاء باليد بعد أيام، من دون تفاصيل. خاله تحقيقاً روتينياً، يخضعون له كل الهاربين من (الطاغية). سيعاملوه باحترام ويجيب على أسئلتهم ثم يعود إلى الشقّة.

فرع المخابرات في حي التجارة. قاده موظف إلى كرسيّ خيزران في الدور الأرضيّ بين حائط ودَرج، بجوار قهوجي الفرع. ألقى عليه نظرة سريعة، وانصرف إلى أدوات عمله. لم يعرض عليه كوباً من الشاي أو فنجان قهوة، ولو بثمن. تردد عليه موظفون، هم أيضاً أشاحوا بوجوههم عنه بعد نظرات خاطفة. تشبث بأمل احتمال حدوث خطأ ما. فقد الإحساس بالوقت. ما يتذكّره بوضوح جلوسه على المقعد الخيزراني وقتاً طويلاً، أكثر من ساعتين بالتأكيد، حتى سرى الخدر في قدميه، ومعه غضب أشد حمرة من نار القهوجي، وكل مشاعره الإيجابية تجاه الدولة المجيرة بدأت بالتبخر مع أبخرة الشاي المتصاعدة من الأواني الوسخة، وطالت لعناته القائد (الطاغية) وأعوانه الذين أوصلوه إلى هذا المكان.

أخيراً جاء دوره. أدخلوه في قاعة فسيحة مضاءة بالنيون. توزع في أرجائها مخابراتيون وغيرهم. بجانبه بدأ مخابراتي بالتحقيق مع ثلاثة، المخابراتي أعرج، وأحياناً يتصوره أعوراً أيضاً. تذكّر ادعاء المعارضين بأن مشوهي الأجسام أو النفوس أو الاثنين معاً يُقبلون على العمل في أجهزة المخابرات، ويتلذذون بإهانة وتعذيب ضحاياهم، للتنفيس عن حقدهم على مجتمعات لا ترحم العاجز. سأل الأعرج الثلاثة عن مجالستهم لآخرين في مقهى بالقرب من مجلس الشعب. وضع أمامهم أوراقاً وقلماً وأمرهم بتدوين أسماء رواد المقهى من زملائهم الناصريين. التفت إليه بعينه الوحيدة. نضحت العين العوراء بحقد مضاعف. بوقاحة وصلف أخبره بأنهم قرأوا رسالته إلى الصحراوي المضيّاف، واسترعى اهتمامهم وصفه لدبلوماسيّ السفارة بالمخابراتية. تهدّج صوت (الأثرم) بغضب مكبوت. أجابه بأن كل فرد في بلد (الدهن والدبس) يعرف هذه الحقيقة، واسألوا القاطنين منهم في بلدكم. أزعجت (الأعرج) نّبرة صوته. تعوّد سماع كلمات الاستعطاف والتوسل من ضحاياه.

أرسله مخفوراً إلى رئيسه، مدير الفرع. بادره بنفس السؤال الغبي، فأجابه بذات الجواب، فلم يقتنع. أمهله أسبوعاً لتزويده برسائل الصحراوي المضيّاف، التي أبلغته بزيارة الدبلوماسيين للمعهد. أخفى عنهم أنها رسالة شفويّة واحدة نقلها أحد مواطنيهم، لئلا يورطه مع المخابرات. خرج محتاراً من الاستجواب السوريالي، أما أن يكون المخابراتيون متخلفين عقلياً أو هم يبغون رشوة، أم كليهما.

كان قريبه مستجمّاً في سويسرا. يستضيفه مصرفيّ مهاجر كل سنة مقابل توسطه لدى المخابرات. للمصرفيّ مقلع أحجار في لبنان، ولا يستطيع تصدير منتجاته من دون موافقة المخابرات. وصل القريب قبل انتهاء مهلة الأسبوع، كلّم (المعلم)، هكذا سمى ضابط المخابرات. انتفع من صلاته به، من بينها شقة من دون آجار، وسيّارة مرسيدس معفية من رسوم الجمارك، وقسائم بنزين مجانية وقبول لأبنائه في المدارس والجامعات استثناءاً من شروط القبول. بعد الاتصال أرشده لضابط برتبة ملازم في نفس فرع المخابرات، هو رفيق ابن القائد (إلى الأبد) وفارس مثله. وجد الملازم تحت مقصّ حلاق. طمأنه بأنه كلّم رئيس الفرع وسويا القضية. شكره وانصرف.

ما قبل المخابرات ليس كما بعدها. قبله عذاب وبعده شيء آخر. يتحسس ولا يوصف. مثل سرطان للنفس لا الجسد، حتى بعد شفائك منه تظل تترقب عودته، فلا تهنأ بعيش. وكل منغّصة، حتى لو كانت بحجم حبة، تحولها النفس المسرّطَنة إلى قبة. لا مكان فيها للفرح، أشبه بمغناطيس للهموم، تجتذبها من الذكريات والحاضر وحتى المستقبل المتشائم، لتختزنها في زاوية حصينة من النسيان. أكمل (الأثرم) حياته من دون سكينة.

حيره اهتمام المخابرات به، بالتأكيد لا يقرؤون كل الرسائل، فلم رسائله بالذات، على ندرتها؟ ولم يستبعد وشاية، ومن أحد المهاجرين من بلد (الدهن والدبس). من قبل بثوا عتابهم عبر (سيف): لم لا يزورنا قريبك؟ هم أيضاً يرّون أنفسهم قادة مثل (الطاغية) فالواجب زيارتهم والتقرب لهم. تذكّر أحدهم. وقف وراءه في صف انتظار عند مدخل مكتب رعاية مهاجري بلد (الدهن والدبس). عندما جاء دوره أخرج بخفيّة بطاقة هوية

مخابرات للعسكري الواقف على الباب، تبين بأنه جاسوس على مواطنيه. نصحه العسكري بإبراز هويته حين وصوله حتى يدخل بدون انتظار. حتى قريبه يردد: لو كان (الطاغية) من طائفتي لعبدته. لا عبادة في بلد (الدهن والدبس) إلا للقوي الباطش.

في مكتب القريب وسط دكاكين التحف، الحقيقية والمزيفة، جلس ضيف من بلد (الدهن والدبس). سمع بأزمته مع المخابرات فسأل عن السبب. أجابه القريب:

- شكوا بأنه جاسوس لنظام (الطاغية).

علق الضيف:

- لا يلامون على الشّك بالجميع.

كره الضيف وأمثاله. لو شكّوا بعمالته لعدوهم، لكان الأجدر مراقبته، ورصد زياراته وزواره. لو فعلوا لملّ مخبريهم، فلا زوار يطرقون باب شقته، ولا زار أحداً سوى قريبه الفظّ وعائلته، للمجاملة فقط، فما لقى ترحيباً.

حضر ابن القريب الأوسط وانصرف أبوه والضيف الغامض. قال الابن:

- اِحمد ربك لم يجروك إلى القبو حيث كراسي الخوازيق!

حاول الحصول على وظيفة في الجامعة. أحضر نسخاً من شهاداته وبحوثه. بعد تصفحها سأله رئيس القسم:

- كم كلفتك طباعة هذه البحوث؟

أخبره بأن الدوريات العلمية في بلاد الغرب تزود الباحثين المنشورة بحوثهم بنسخ من أعداد الدوريات والبحوث المطبوعة. رفضوا تكليفه حتى بمحاضرة واحدة ومن دون مقابل. تعرف على رئيس الناصريين اللاجئين. هرب من بلاد (الدهن والدبس) خوفاً من بطش الطاغية. منعوا زوجته وبناته من اللحاق به. عمل في الجامعة براتب شهري لا يكفي لشراء حذاء محلي الصنع حسب قوله. ادعى بأن بعض الطلاب ينجحون في الامتحانات برشوة أساتذتهم، وأحياناً صفيحة زيت الزيتون كافية. سخر من خواء مكتبات الجامعة من مصادر أجنبية، وخمّن بأن ثمن سيّارة مرسيدس من سّيارات مسؤول كافي لملأ أرففها

الخالية. هرب إلى لندن بعد مؤامرة الإطاحة به من زعامة المجموعة، دبّرها نائبه. أرسل إلى المخابرات وشاية بأن رئيسه ينتقد القائد (إلى الأبد)، فعجل باللجوء إلى بريطانيا قبل القبض عليه.

حرك (الطاغية) قواته واستعد للحرب الثانية. في ليلة الهجوم بثّت اذاعته أغنية شعبية: يا حافر البئر لا تغمّق مساحيها ترى الفلك يندار وأنت تقع فيها. فات على (الطاغية) بأنه حفّار أيضاً، وحفره مليئة بالأشلاء والدماء. انتعشت الآمال بنهاية (الطاغية)، لكنها سرعان ما خبت. لم يحن وقت الخلاص من البلاء وربما لن يحين حتى قيام الساعة، فنحن مستحقون. بعد احتلال الكويت سمع البعض يجاهرون بتأييدهم للطاغية، نكاية بالصحراويين المتكبرين. توقعوا احتلاله لدول أخرى وافتقار الصحراويين واضطرارهم للجوء إلى بلادهم. تندروا حول أي الصحراويات أصلح للخدمة في بيوتهم. انفعل صانع حلويات جمع ثروة طائلة من العمل في بلاد الصحراويين وهو يتنبأ بانتصارات مذهلة للطاغية ستطال حتى قارة أوروبا. حتى الذين أثروا من الصحراويين يكرهونهم.

قبل التقاط أنفاسه من صعود الدرج أبلغه الضابط مالك الشقة بعدم رغبته بتجديد عقد الايجار:

- لاموني أصدقائي. قالوا لي أنت حمار لأنك أجرّت شقتك لمنفي مرتبط بلا شك بالمخابرات ولن يخرج منها.

تمنى لو صارحه بكرسي الخوزقة المنتظر مؤخرته في فرع مخابرات حكومته. بدلاً من ذلك أكد له بأني سيخلي شقته ولو لم يجد سوى خيمة يسكن فيها لأن في عقيدته لا تصح العبادة في ملك مغصوب. انتقل إلى شقة أخرى. بعد أشهر جاء الضابط ليعرض عليه تأجير شقّته من جديد فقبل. قصد مكتب محامي الضابط لتوقيع عقد الإيجار فوجده مع فتاة روسية جميلة، المحامي لا يعرف اللغة الإنجليزية وترجّاه مساعدته في الترجمة. عندما تفلس الدول تصّدر العاهرات.

توفي والد القريب، وحضر بسيارته مع ابنه الأصغر ليصحبه إلى مكان العزاء في بلدة قريبة. استغرب (الأثرم) وجود ابنه المريض بالنكاف. ما أن صعد للسيارة حتى راح الابن ينفخ بقفاه. بعدها أصيب بالنكاف، ورقد في الفراش أربعين يوماً. ازدادت تعاسته بعاصفة ثلجية، فخرَّ السقف عليه. ترك السّاكنون فوقه الثلوج المتراكمة حتى ذابت وفاضت على شقته. صعد ليزيل الثلوج ونزح الماء، ووقفت زوجة الجار تراقبه من مدخل شقّتها.

عقد التأجير لستة أشهر، لو زاد عن ذلك يكون عقداً دائماً. تعب من التجوال على مكاتب العقار وفكر بشراء شقّة صغيرة. أرشدوه لشقة أهملها مالكها حتى سكنتها الجرذان. لعل كثرة الجذران دفعت بجارة لتربية قطيع من القطط. من نافذة خلفية راقب (أم القطط) وابنتها تطعمان قططهما أحشاء الدجاج المشتراة من جزاري الحي، وما زاد تحمله في كيسها إلى حيواناتها المفضلة. وحتى أحياء بعيدة. شاهدها مرة قرب المتحف وحولها ثلّة من القطط الجائعة. مات ابنها الشاب بمرض غامض وبارت ابنتها.

اتصل (أبو الجعل). ترك وظيفته وغادر إلى البرتغال. لديه مشروع مربح، وبحاجة إلى عشرة ألاف جنيه إسترليني. (أبو الجعل) غشيم، ولا يفهم في المشاريع، وأراد ربع مدخراته. كان (الأثرم) الأحوج لنقوده، لكن شقّ عليه خذلانه شقيقه الوحيد. استكثر المبلغ فتظاهر بأن المطلوب منه بالدولار لا الجنيه. حول لحسابة عشرة ألاف دولار، تساوي حينئذ خمسة ألاف جنيه. عاد للمطالبة بالمزيد، حتى وصل المبلغ قرابة العشرة ألاف جنيه، هو ربع كل مدخراته. شجعه سخاؤه أو بالأحرى سذاجته فاتصل مجدداً، ولنفس الغرض. اعتذر بقلة ماله، وانعدام الأمل بوظيفة، وعرض عليه المجيء إلى الشام، ليتقاسما ما تبقى لديه. رفض لأن زوجته حريصة على الاتصال بعائلتها، وحيث يقيم لا توجد اتصالات. احتدّ في كلامه، واتهمه بالبخل عليه لأن كتبه تباع في مكتبات لندن. كانا كتابين وكل ما جناه منهما بضع مئات الجنيهات. توقف بعدها عن الاتصال به. لو لم يسلبه (أبو الجعل) ربع مدخراته، ولم يتكرم بعشرها على المعارضين الأنذال لاشترى بها شقّة.

(سيف) الوحيد الذي زاره في شقته. يتعمد أبوه اهانته أمام غرباء، فلا يعترض أو يجادل. أذلّه بالمصروف ونفوذه لدى المخابرات، بدونهما تصبح حياته مستحيلة. كشف عن مكنون نفسه يوماً بأنه يتمنى لو سنحت له فرصة انقاذ أبيه من محنة شديدة، ليثبت له محبته. في السنة الأخيرة من دراسته الجامعية رفضت زوجة أبيه المسافر اعطاءه كلفة بحث التخرج، فاقترضه من (الأثرم)، ودعاه لحضور امتحانه الشفوي، وكان الوحيد من عائلته الذي شهد نجاحه وتخرجه. بعد رجوع أبيه من السفر عرض عليه تسديد القرض، فرفض (الأثرم) لأنه يعتبره هدية النجاح. أخبره (سيف) بأنه لم يستلم المبلغ من والده.

سكن (الأثرم) شقة مطلة على شارع عمومي، صبر على ضوضاء المارة ودخان حافلات الركاب، لكن أعطال أسلاك الكهرباء البالية اضطرته للاستعانة بكهربائي بدين، انثنى السلم المعدني تحته بعد أول يوم. اشترى الكهربائي مواد عمله وسدد (الأثرم) أثمانها. أسعار المواد الكهربائية في قوائمه متضخمة، أثارت ارتياب (الأثرم). اشتراها الكهربائي من دكان أمام البريد المركزي. فضحته أسعار المواد المعروضة في واجهة الدكان. انتظر (الأثرم) حتى انتهاء صاحب الدكان وابنه الصغير من الصلاة ليسأله عن سبب فروق الأسعار بين المعروضة في الواجهة والمدونة على القائمة الصادرة من دكانه. أقرّ بأن البائعين أمثاله اعتادوا تزويد الكهربائيين بقوائم المواد المشتراة من دون بيان أسعارها، فيضع الكهربائي الأسعار كما يشاء. لم يعتذر عن خطيئته وتواطئه مع الكهربائي المحتال. تركه (الأثرم) لحساب ربنا.

بعد الكهربائي جاء دور السمكري، بعد انتهائه من تركيب خزان المياه فتح (الأثرم) الصنبور فلم تنزل قطرة ماء، استلم السمكري أجرته كاملة وانصرف. ما أن سمع جاره الفلسطيني في الطابق الأعلى بضوضاء العمال حتى نزل ليعاين. لاحظ ضم الشرفة الخلفية للمطبخ، ابتز (الأثرم): سأخبر البلدية بالمخالفة إن لم تبنوا لي غرفة مكان الشرفة في شقّتي. أذعن مكرهاً. اشتكى الجار في الطابق الأسفل من تسرّب الماء من شقة (الأثرم)، أصلح الخلل فتوقف التسرب. شقّة الجار ملك للأوقاف. لا يمر أسبوع من دون سماع أصوات

عراك، زعيق أنثوي متواصل ودوي ارتطام أثاث. لابنتهم حبيب. أرادت استعمال هاتف (الأثرم)، للاتصال بحبيبها على الأغلب، ولم تصدّق بأن لا هاتف في شقته، لأن خط الهاتف سلعة تباع وتشترى بمبلغ باهظ. فشل أخوها في المدرسة فجنّدوه. تحملت أم الزوج اهانات كنّتها، حتى نفذ صبرها، وغادرت إلى المجهول. شلل الإرادة أوصل الزوج إلى شلل الجلطة. تعقد زوجته (الشيخة) ندوات لتعليم النساء تعاليم دينهن. حضرت جارة (الأثرم) الفلسطينية إحدى محاضراتها عن برّ الوالدين. عندما التقت أنظارهما أشاحت (الشيخة) بوجهها. بعد زمن قصير توفي الزوج بالجلطة الثانية.

يأتيه (سيف) بأخبار المهاجرين والمهجرين. ازدرى المهجرين. طردهم (الطاغية) إلى خارج الحدود، بعد انتقالهم إلى الشام رابطوا أمام سفارة بلد (الدهن والدبس) يتوسلون السماح لهم بالعودة. بعد اغلاق السفارة فقدوا الأمل، وانصرفوا إلى تحصيل معاشهم، بالعمل أو السياسة. عندما يسيطر الذعر على النفوس تستيقظ أو تقوى النزعات الدنيئة. أغرت مئة دولار شهرياً البعض لإعلان ولائهم لانتهازي، واشتغل غيرهم بالتهريب. حصلوا على رخص استعمال الطريق العسكري بين الشام ولبنان. انفضح شيخ دين بعد انقلاب سيارته وتبعثر الساعات المهربة المخفية في صندوق سّيارته. اكتفى أبناء شاعر مشهور بتهريب مواد استهلاكية لمتجرهم. الذين سأموا انتظار الفرج وموافقات اللجوء استقلوا رحلة غير مرخصة إلى لندن، نظمها الأكراد بألفي دولار لكل رأس، ما أن حطت في المطار حتى مزقوا جوازات سفرهم وطلبوا اللجوء. كسرت رتابة حياة الباقين يوماً شجار دموي، بين نفر منهم، اختلفوا حول ملكية مؤخرة مخنث فاحتكموا لمبارزة بالسواطير.

سكن (سيف) مؤقتاً في شقة صغيرة لوالده في حي ناء، اشتراها من لاجئ بسعر بخس. انتبه يوماً لأصوات وحركة عند الباب، وكأن احدهم يعبث بقفل الباب. اقترب ليكتشف. انفتح الباب ووجد عند عتبته معارض معروف، كان حتى وقت قريب من أنصار (الطاغية) المخلصين. بجانب المعارض المنافق وقفت فتاة شابة، شاهدها (سيف) من قبل، وتذكّر بأنها صديقة ابنة المعارض المنافق من زوجته الأولى وزميلتها في المدرسة الثانوية. أعطى

والد (سيف) مفتاح الشقة للمنافق ليختلي فيها معها. بعد سنين انتخبوه نائباً عن الشعب في مجلس نواب ما بعد (الطاغية).

في زيارات (الأثرم) القليلة لقريبه في مكتبه المجاور للمتحف الحربي تنتهي الأحاديث الرتيبة فيسود صمت ممل. يكسره أحياناً بقصّص عن معارضين. زعيم مجموعته الخماسية من المعارضين ابن سياسي معروف من العهد الملكي. بعد احتلال الكويت دعتهم مخابرات الصحراويين النجديين إلى العاصمة، فباعوا ولاءاتهم مقابل حفنة من الريالات. استحوذ زعيم الخمسة على معظمها، وكان نصيب قريب (الأثرم) الفتات، فسخط على رئيسهم. ادعى بأنه مدمن مخدرات، يعاشر المومسات، ويستدعي المفضّلات منهن بطائرة خاصة. وعلى ذكرهن وصف دهشته لرؤية منظر غير مألوف. سأل عنه مسؤول أمن المطار. كانا يتسامران في مكتبه المطلّ على المدرج. أخبره بأن الفتيات الجميلات القادمات من بيروت عارضات أزياء، نزلّن من حافلة وسيغادرن إلى عاصمة الصحراويين النجديين، لإمتاع الحكام. تذكّر (الأثرم) ادعاء أحدهم بأن رؤية ثلة من مضيفات الطيران في قصر الملك ظاهرة متكررة. ولكن قد لا تتكرر الوجوه. تستعرض المضيفات الحسناوات أمامه فيختار واحدة منهن لتلك الليلة.

ورّط قريب (الأثرم) خاله في صفقة خاسرة. أقنعه باستثمار مبلغ كبير مع شريك محلي في مشروع عقاري. أخفى الشريك عنهم مديونيته الكبيرة. حجز الدائنون العقار فضاعت نقود الخال.

توفي قريب آخر بمرض السرطان. جمع ثروة من عمولات صفقات بيع نفط الصحراويين، واشترى قصراً في ضواحي لندن، وملأ القبو بقناني النبيذ والخمور المعتقة. أوصى بدفنه في بلاد (الدهن والدبس)، لكن حكومة الطاغية رفضت السماح بدخول جثمانه. دفنوه في مقبرة حديثة قرب مزار في ضواحي دمشق. حضر ابنه الدفن برفقة (السلبوح). ساعده المتوفى في الحصل على وظيفة لدى الصحراويين. بعد الدفن نعاه والد (سيف):

- أحسن طريقة لتذكّر ابن عمنا بشرب النبيذ الذي أهداه لي.

وشرب هو وابن المتوفي و(السلبوح) من النبيذ، ورفض (الأثرم) المتدين قائلاً:

- قبل قليل قرأت على روحه الفاتحة!

في عزاء المتوفي همس (سيف):

- بالأمس دفنا ابن رجل دين كبير. ارتد عن دينه، لكن اباه أصر على دفنه مع المسلمين.

قدمت عائلة لاجئين من مخيم رفحا في الصحراء. زعموا مشاركتهم في انتفاضة الجنوب، من قبلها كانوا أنصاراً للطاغية وحزبه الحاكم. بعد فشل الانتفاضة فروا من انتقام (الطاغية). أسكنهم الصحراويون قرب الحدود، أسموه مخيماً لكنه أشبه بمعسكر اعتقال، عزلوا العوائل عن العزاب، ومنعوا الدخول والخروج، إلا للعائدين، وأحاطوه بأسلاك شائكة وحراس مسلحين غلاظ. ازدروهم لأنهم روافض، كما يسمونهم، لكنهم لم يبخلوا عليهم في الطعام والشراب. بعد أشهر تبدد فرحهم بنجاتهم من بطش (الطاغية)، واستوحشوا من الصحراء المحيطة بهم، ونفروا من وجوه الحراس المتجهمة، ويأسوا من لقاء قريب مع الأهل والماء والخضرة، فلم يبق لهم من مخرج من ورطتهم سوى اللجوء إلى دولة بعيدة في قارة أخرى. غلب الحنين إلى الأهل تعقل البعض، عبروا الحدود، ورجع بعضهم بقصص الرعب. من لم يمرض جسده ضوت نفسيته، فكثرت الشجارات بينهم، ألقوا بالمسؤولية عن تأجيجها على أعوان (الطاغية) المندسّين. الأحقاد المتبادلة مع حراسهم جمر متقّد تحت السحنات الرمادية المتجهمة. كانت مسألة وقت لا غير قبل اندلاع العنف بينهم. اشتعلت بعد اتهام طبيب المعسكر أحد اللاجئين بالبصق عليه. اقتحم الحراس المعسكر للقبض عليه، فهب اللاجئون لمنعهم، وتحول التدافع إلى شغب وعراك بالأيدي، انتهى بأطلاق الحراس الرصاص عليهم، فسقط قتلى وجرحى.

اعتاد اللاجئون العزاب حملات التفتيش المفاجئة، وفي كل مرة يخرج الحراس خائبين، سوى مرّة واحدة. شكوا بوجود امرأة في المخيم، بعد رؤية حمّالة صدر منشورة على حبل غسيل، تبين بأنها لمخنث اعتاد ارتداء ملابس نسائية، فاستاقوه معهم.

زارهم رجل دين، أو هكذا ادعى، لجمع تبرعات للمعوزين في بلدان الشتات، قبّلوا يده، وسلّموه بعض القليل من دنانيرهم وريالاتهم، وتبين لهم بعد التقصّي بأنه محتال.

لرجال الدين مكانة مرموقة بين اللاجئين. في عزاء (الأملس) توسل أحدهم من قارئ عزاء مشهور:

- سيديّ نريد منك عزاءً يدمع العيون لأن في نفوسنا عبرات كثيرة مكتومة.

بعد قليل غطى القارئ وجهه بوشاحه ونهض مشتكياً من دخان مدفأة المازوت، وغادر على عجل. لا يستحق بعضهم كل هذا التبجيل. عادت سيدة محملة بصدقات للفقراء وعدة حقائب مليئة بملابس أثرياء مستعملة، لكنها أثمن من الجديدة هنا. سلّمتها (الأثرم) ليوزعها على الفقراء والمحتاجين. دلّوه على أحد رجال الدين. وصفوه بأنه أحسنهم سيرة. بيته من طابقين يحسده عليه معظم اللاجئين. طرق الباب فخرج خادمه الأفغاني. شرح له غرضه من الزيارة. عاد بعد دقائق ليخبره بأن رجل الدين يقبل نقود الصدقات لكنه يرفض استلام الملابس. تركه ووجد رجلاً وعد بتوزيعها على الفقراء.

تقاطر اللاجئون للتبرّك بالمراقد ورؤية وجوه مألوفة. تعرف (الأثرم) على أحدهم. أستاذ جامعي زامل (أبا الجعل) في الجامعة، وحضر معه الاجتماعات الحزبية. بعد يأسه من علاج الأطباء لمرضه بالسرطان توسل بالأولياء.

حضر القادمون من دول أوروبا الشمالية لطرد برد الغربة من نفوسهم. وجدهم (الأثرم) متحفزين لرواية معاناتهم قبل وبعد اللجوء، ووجدوه مستمعاً صبوراً، أنصت وتعاطف من دون أحكام. شجعوه على تدوين سيرهم، وشهد بنفسه جوانب من حياة البعض منهم. هنالك فساد في الدنمارك، وهاملت ليس الوحيد المعذب فيها، وتبدأ المأساة بلجوء شاب من بلاد (الدهن والدبس) إلى الدنمارك. عمل بجد لجمع نقود تكفي لاستقدام زوجته وولديهما الصغيرين. باع النفاخات في الحدائق، واشترى بأرباحها شاحنة لنقل الأثاث. حسده البعض وقلّده أحدهم. عندما أبلغوه بصدور تأشيرات هجرة عائلته وصف نفسه بأنه أسعد إنسان في العالم. لم تدم سعادته طويلاً. بعد وصول زوجته وطفليهما استلم رسائل

من مجهولين، تضمنت ادعاءات مرعبة، بأن زوجته زانية، وتخونه مع آخرين. تكررت الرسائل حتى نمت بذرة الشّك في عقله. كتمها حتى فاضت به نفسه، فصارح بعض أصدقائه، وأحدهم حكى لـ(الأثرم) المأساة. كذّبوا دعوى الرسائل، ونصحوه بإهمالها. تساءلوا عن هوية مرسلها، وحامت شكوكهم حول شيوعيين حاقدين على المتدينين أمثالهم. وكأن لعنة هاملت الدنماركي غير كافية، فاكتملت بمأساة عطيل، ولكن برسائل بدلاً من منديل. كان أحدهم يشاهد نشرة الأخبار، واندهش لرؤية صورة صديقهم على الشاشة، ولكن إلمامه باللغة غير كاف لفهم الخبر. قبل حلول الليل تفشّى النبأ المفجع: صديقهم مسجون بجريمة قتل زوجته. تشاجرا في المطبخ فطعنها حتى الموت أمام طفليهما. كان يردد في زنزانته: لم أقتلها، هم قتلوها، يعني كتبة الرسائل. في التحقيق أنكر أصدقاؤه معرفتهم بالرسائل، اتفقوا على ذلك بينهم، أملاً في الحكم على صديقهم بأشد العقوبات، متمنين لو أن حكم الإعدام ما زال سارياً في الدنمارك. عجب (الأثرم) من ادعائهم التدين وارتكابهم إثماً عظيماً بكتمانهم الشهادة. بعد تشريح جثة القتيلة تبين بأنها حامل بجنين من صلب القاتل.

أحياناً تكشر الضحية عن أنياب المفترس المستتر، ليس في الدنمارك فقط بل بالقرب من أسوار المدينة القديمة. احتال اثنان من المهاجرين على زوجة شرطي. أقنعاها بأن لديهما تأشيرات هجرة إلى دولة أوروبية. بالمقابل سلّمت لهما جسدها وكل مدخرات زوجها. تفاخرا أمام البقية بفتحهما.

بلغ عائلة المهاجرين من مخيم رفح خبر مفجع من الشمال الكردي. تسمّم شقيقهم بعد شربه الشاي في مقهى. اتهموا أعوان (الطاغية)، ولن تكون أول مرة يسقى معارض سّمّ الثاليوم. سافر الأخ الأصغر إلى الحدود لنقل شقيقه. أدخلوه مستشفى المواساة. لم يظهر أثر للثاليوم في نتائج التحاليل. زاره (الأثرم) في المستشفى. عزم أشقاؤه على طلب اللجوء لأخيهم المريض من السفارة البريطانية، وطلبوا من (الأثرم) مرافقتهم للترجمة. برهانهم الوحيد تقرير بالإنجليزية من طبيب كردي. بعد قراءة التقرير فاجئهم (الأثرم) بأن

شقيقهم تسمّم بكحول مغشوش لا بالثاليوم. أصروا على المضي بطلب اللجوء من دون التقرير. ملأ (الأثرم) طلبات الهجرة وجلس معهم بانتظار النتيجة. في الجهة المقابلة من صالة الانتظار جلس أربعة أكراد، شابان وفتاتان. خمّن بأنهم عرسان جدد. تزينا ساعدا الفتاتين بأساور ذهبية. تعمدتا رفع يديهما مراراً لإسماع الحاضرين رنين الذهب. رفضوا طلب لجوء الشقيق. صمّم شقيق آخر على هجرة العائلة ولو بطريقة غير قانونية. تعرّف على مزوّري جوازات السفر وتأشيرات الزيارة وموظفي مكاتب السفر المرتشين، لم ينقصه سوى ظهر مخاباراتي. قبضوا عليه مرتين. أول مرة خرج بوساطة قريب (الأثرم)، وبرشوة ألفي دولار في المرة الثانية. نجح أخيراً في تدبير هجرة غير قانونية لعائلته، سفّرهم إلى تونس ومن هناك إلى لندن.

أنجح وسيلة للهجرة جواز سفر مسروق، ثمنه باهض، أغرى بعض الصحراويين ببيع جوازاتهم، وخاطر لصّ بسرقة جواز سفر دبلوماسي صحراوي، استعملوه أكثر من مرّة قبل الغائه. ينصحون المهاجر خلسة بتمزيق جوازه المزوّر أو المسروق قبل هبوط الطائرة أو عبور الحدود، ومن طمع ببيع الجواز المزوّر أو المسروق بعد استعماله خبأه في حذائه، ولو عثر عليه مفتشو الهجرة يرحل إلى بلد المنشأ. هاجر أحد أقرباء (الأثرم) بجواز سفر جزائري، لا يعرف ان كان مسروقاً أو مشترى. قضى أياماً في التحضير. سينادونه باسم الجزائري، وقد يسألونه عن تاريخ ولادته ومسقط رأسه. حفظها وسمَّعها لزوجته، لكنه احتار في إخفاء لون عينيه، عينا الجزائري زرقاوان وعيناه بنيتان. تعمّد الإشاحة بوجهه عن موظفي أمن المطارات.

خشي (الأثرم) من نفاذ نقوده لو بقي في الشام فعزم على الهجرة نحو الغرب. قصد السفارة الاسترالية. أبلغه موظف بأن شهاداته وخبرته لا تعادل في ميزانهم وجود أقرباء سبقوه إلى بلادهم. خرج بإحساس بأنه غير مرغوب به، لأسباب غير موضوعية.

سفارة كندا تجري قرعة علنية أسبوعياً للراغبين في الهجرة. جرّب مرّة واحدة، بعد تردد طويل. ولم يفارقه شعور بالضّعة حتى نادوا على آخر الفائزين بالقرعة. اتصل بوكيل

للهجرة، ووافق على تقديم طلب هجرة مشروطة باستثمار. مضت شهور قبل صدور الموافقة. غمره يومها حزن داخلي عميق. توجّس من مجهول بانتظاره، بعيداً عن أهله وبيئته، وإن جاروا عليه بالحرمان من جواز سفر ووظيفة يتعيش منها وخوفوه بمخابراتهم، لكنه ما غفر لهم تشريده في المنافي.

أرسل وكيل الهجرة الموافقة بعد صدورها بشهور، فلم يبق سوى أسابيع قليلة قبل انتهاء مهلتها. وموظفو السفارة المحليين غير مكترثين، من جرّبهم من قبل يؤمن بأن أفضّل منشط لهم زيارة قسّ، يتوسط لك ولا يخرج من مكاتبهم بدون امضاءاتهم وأختامهم على ورقك، ولن تجد طبيبة السفارة المحلية أيضاً بك علّة مانعة، لكنها توقفت عند ارتفاع يسير لضغط الدم، وأنذرته بالسيطرة عليه وإلا. بعدها بأيام اتصلت لتطلب منه مراجعتها فوراً، ورفضت بيان السبب. في العيادة وأثناء سيره باتجاه مكتبتها استوقفته، وأمام جمع المرضى المنتظرين سألته بصوت سمعه الجميع:

- هل أصبت بكسر في عمودك الفقري؟

أجابها بالنفي، فأكملت بنفس اللهجة المستفزّة:

- لماذا إذن مشيتك عوجاء؟

لم يسمع من قبل بأن مشيته عوجاء، ولو تعرض عموده الفقري للكسر لكشفه الفحص والأشعة. صدرت التأشيرة.

في المطار أخذه موظف الجمارك على جنب ليهمس:

- يريد الرفاق حلاوة مقابل السماح لك بإخراج أمتعتك.

أعطاه "الحلاوة" وغادر إلى مرارة ثالث منفى.

في آخر اتصال من أحدهم نصحه:

- احرق سفينتك فلن تكون هنالك عودة.

لعنه في سره.

آواه وآواه يا كندا

على طائرة المرحلة الثانية من هولندا إلى كندا. صدم (الأثرم) بأول انطباع عن الكنديين. ترّنح راكب قرب مقعده، ثم تهاوى وسقط على أرض الطائرة. انتظر من الركاب مساعدته على الوقوف، لكنهم اكتفوا بالتفرّج. نهض ورفعه من تحت إبطيه، فجاءت مضيفة واحتضنتنه من الخلف. مساعدتها جاءت متأخرة ومعرقلة. أوصله إلى مقعده. بعد قليل استعاد الكندي من أصل هندي نشاطه فوقف وسط الممر وشكر الجميع. هزّ المتفرجون رؤوسهم. لم يكن بينهم سامري طيب. تمنى ألا يكون الكنديين مثل هؤلاء الركاب، وتأكد له بعد حين بأنهم لم يكونوا شواذاً على القاعدة.

لم يحفظ من النشيد الوطني الكندي سوى أول شطر، نداء يا كندا. بعد سنتين استبدله بندب: آواه وآواه يا كندا، وألّف كتاباً باللغة الإنجليزية لتبرير ذلك. أول الهم اختيار مكان الإقامة وتأجير السكن، ومن دون مسكن لن يزودوك ببطاقة الصحة. ولا اختبار رخصة قيادة قبل إقامة ستة أشهر. تنقل بالحافلة العمومية وسيارات الأجرة.

تأخر وصول حقيبة، فذهب إلى المطار لاستلامها، سائق الأجرة مهاجر جديد مثله. نصحه:

- إذا أردت مساعدة استعن بقومك!

حتى هنا في أقصى الأرض حيث يعيش أناس من مختلف أصقاعها لا يجد من يعينه غير أبناء قومه! عمل بنصيحته. زار مصلى قومه، أكثرهم من مخيم اللاجئين في بلد الصحراويين. شعر بينهم كالدخيل، وعندما عرف بأن من شيّده يحظر انتقاد (الطاغية) عزم على عدم الرجوع.

بدأ هطول الثلوج، أول اختبار حقيقي للمهاجر، من لا يطيقه يغادر من أول شتاء. تسوّق من الدكاكين القريبة مشياً على الأقدام. سحب وراءه حقيبة صغيرة على عجلات

لنقل مشترياته، قبل انتهاء الشتاء انفصلت عجلاتها، وبلوغ جزارة اللحم الحلال يتطلب ركوب حافلتين عموميتين.

تناقصت مدخراته، الغلاء بالوعة نقود، فلا بد من وظيفة. قاوم عاصفة ثلجية ونزل إلى وسط المدينة، وفي مكتبتها الرئيسية وجد عناوين كل جامعاتها، عددها بالعشرات. راسلها وانتظر. بعث الأمل في نفسه منظر مظروف بنّيّ ممهور بشعار جامعة، وخبا بعد قراءة الجواب. للرفض صيغة واحدة، وكأنهم اجتمعوا واتفقوا عليها. نأسف لعدم وجود وظيفة شاغرة وسنحتفظ بمعلوماتك لو شغرت واحدة في المستقبل. دعته جامعة قريبة لمقابلة. الوظيفية صيفية مؤقّتة، ولكنها أفضّل من لا شيء. شارك اثنان في المقابلة، المستدعي وامرأة. عرّفه بها، متعمداً ذكر تفصيل غير ضروري، هي خريجة جامعة حيفا في فلسطين المحتلة، فأيقن بالرفض. خمّن بأنهم دعوه امتثالاً لشروط التوظيف التي تفرض مقابلة عدد من المرشحين، بعد خروجه من المقابلة بحث عن سجلهما الأكاديمي، فتأكد له بأن بحوثه المنشورة باللغة الإنجليزية وفي دوريات علمية بريطانية وأمريكية اكثر من مجموع بحوث الإثنين. أكدت أستاذة جامعية ظنه السيء بجامعات كندا. حكت لسيدة جالسة بجنبها في رحلة بالطائرة تجربتها. قالت بأنها حصلت على الوظيفة بوساطة أستاذ في الجامعة، وبأنها شاهدتهم بنفسها يمزقون طلبات توظيف لآخرين من دون قراءتها.

بعد اليأس من الجامعات جرب الكلّيات، والنتيجة واحدة، ثم تحول إلى الوظائف المعلنة في الجرائد اليومية، واختار المناسبة منها، فأجاب البعض بأنهم يشترطون خبرة كندية، وهي ذريعة مختلقة لرفض طلبات المهاجرين الجدد وشكل من أشكال العنصرية والاقصاء المتعددة. في مكتب التوظيف الحكومي أخبره موظف شاب بعدم وجود وظائف مناسبة، فأبدى استعداده للقبول بأي وظيفة، حتى وظيفة عامل مخزن معلنة على لوحة الوظائف الشاغرة، استاء الشاب وكأن (الأثرم) أهانه وصرفه. بلدهم في النصف الشمالي من الكوكب، أقرب إلى السماء كما يدعون ولكنه أبعد منها في الإنسانية. لا يخجلون من مصارحة المهاجرين الجدد بنواياهم الخبيث:

- أنتم وأبنائكم أمتعة زائدة. ما يهمنا أحفادكم فقط. هم سيندمجون تماماً في مجتمعنا ويصبحون كنديين أقحاح.

كل من سمع بمحاولاته الفاشلة للتوظف سرد عليه قصصاً مماثلة، لأساتذة جامعيين يوصلون طلبات مطاعم البيتزا، ومهندسين يسوقون سيارات أجرة، وجامعيين يعملون في محطات البنزين. أما محاسب من بلد (الدبس والدهن) فنصحه بتزوير سجله التعليمي والوظيفي. لم يسمه تزويراً بل تحسيناً. هو أيضاً اصطدم بحجة افتقاره لخبرات كندية فاختلقها، ومثله كثيرون. فقد الأمل نهائياً بوظيفة، ولعن موظفة الهجرة التي منّته بسهولة التوظف في بلدها.

الموافقة على هجرته مشروطة بتأسيس أو شراء مصلحة خاصة، وخلال مدة سنتين، ولو فشل سيطردونه من بلادهم. بدأ بالبحث عن مشروع يلبي الشرط. وجد عدة بدائل جاهزة. تناوب مهاجرون مثله على شراء وبيع دكان جزار، حتى وضعته إدارة الهجرة على القائمة السّوداء. يكلف متجر بضاعة الدولار الواحد الكثير من المال، ويتطلب دواماً طويلاً. انتابه شعور بالرثاء لنفسه، لمجرد تصور نفسه بائعاً، يقف وراء آلة النقود، يحي الزبائن ويقبض منهم الأثمان ويضع مشترياتهم في أكياس ومن ثم توديعهم، وهل سيعلق شهاداته التي قضى نصف عمره في تحصيلها على الجدار خلفه؟ لو فعل فسيتوقف بعض الزبائن عن التردد على دكانته، لأن منظر شهاداته المعلقة تحرك فيهم مشاعر الرثاء، ولكنها ستجتذب اللئام الذين يجدون متعة في تعاسة الغير.

حمّسه أصله الفلاحي لشراء مزرعة فُطر حتى تبين له أنها مجرد مخزن مظلم مليء بالتبن. بعد اليأس من العثور على مؤسسة صغيرة ترضي شروط الهجرة قرر انشاء مشروعه الخاص. اختار مجالاً قريباً من مهنته التربوية. صمّم لعبة لاختبار الإلمام بالمؤلفات الأدبية الكلاسيكية، بمستويات مختلفة من المعرفة، ليشارك فيها أطفال وشباب وكبار عائلة واحدة أو أكثر. اقتنع بأنها ستلقى رواجاً، فالغربيون مولعون بالقراءة، وسيقبلون على شرائها لتنمية عادة القراءة بين أبنائهم. أرخص مكان لصنعها الصين، لكن لا سبيل

للوصول إليها. اتصل بشركة صغيرة يملكها مهاجر من أصل إيراني. قبض ألف دولار مقدماً، ثمناً لمقترح سخيف حملته اثنتان من موظفاته، حضرن بملابس قصيرة جداً، خرجن عابسات بعد سماع رأيه بهن وبرب عملهن. رفض ارجاع نقوده، ودافع عن نزاهته، مدعياً بأنه يترفع عن اطعام عائلته من مال حرام. أبدى مهاجر من بلاد (الدهن والدبس) استعداده لصنعها، بعد توطد المعرفة بينهما أخبره بأنه مصمّم على المغادرة قبل بلوغ أبناؤه الثانوية لئلا تفسد أخلاقهم. لديه خبرة مع المطابع. لم يجد غيره، فاضطر للموافقة على تكلفته الباهظة.

بعد ساعات من رفع الثلوج المتراكمة عند مدخل البيت ألمته خاصرته، واشتد الوجع بعد أيام. أحاله طبيب عام إلى جراح لإجراء عملية فتاق. لأنه بلغ الخمسين لا بد من أشعة للصدر قبل العملية. قبل انصرافه رأى في عيني طبيب الأشعة نظرة غير اعتيادية، رسالة رثاء وفضول. طبيب العائلة سيفكُّ رموز الرسالة. جرّاح رتق الفتاق من أصل صيني، كان متوتراً أثناء الفحص. بعد الفحص غسل يديه بالماء من دون صابون أو تعقيم، وامسك قلمه الجاف، وبدأ بالضغط على زر الفتح والإغلاق، بعصبية واضحة. عرف السبب بعد غرز إبرة التخدير في ذراعه. خاطبته ممرضة بدينة:

- هي أول عملية فتاق تجريها يا دكتور.

تحرك الذعر في نفسه، لكن مفعول المخّدر أبطله.

مضت شهور، وأوشك صانع اللعبة الثقافية على اكمالها. دق جرس الهاتف. المتصل جرّاح الفتاق، أخبره بأنهم لاحظوا شيئاً غير اعتيادي في أشعة الصدر، ويريدون منه مراجعة الطبيب بدون تأخير. غضب (الأثرم) لتأخرهم في إبلاغه.

ما بين موعد طبيب وآخر أسابيع من القلق، يشتت العقل، ويحاصر الفكر في نفق مظلم، لا يعرف ان كان في نهايته بصيص ضوء أم ظلام قبر. لم تستبعد طبيبة السّرطان أن تكون آثار تدرن رئوي، والوراثة في صالحه، فلا (اليقطينة المخرومة) ولا (الملطومة) مرضا بالسرطان، ولا تشخيص مؤكد من دون تحليل خزعة. لو ثبت أنه مصاب بالسّرطان فأول

الجناة هذا البلد وأهله الظالمون الذين حرموه من تحصيل رزقه، والدليل خلو صورة الأشعة قبل الهجرة من أي أثر لورم خبيث، لكن آخرين يشاركونهم في الجريرة: بلد (الدهن والدبس) والحاكم الطاغية وضابط الأمن وأقاربه وكل من شرّده.

اقتادوه إلى قاعة انتظار، سبقه عشرون أو أكثر إليها، بانتظار دورهم. بعد قليل دخل رجال شرطة ومعهم سجين مصفّد اليدين، وأجلسوه غير بعيد. لفلف رداء المستشفى القصير ستراً لجسمه، ودار بنظره داخل القاعة، وتوقف عند فتاة في الصف المقابل، التقت نظراتهما. ابتسمت بخبث، ثم باعدت بين فخذيها فانكشفت ظلال سوداء، خاف من الموت والمنظر منطبع على مقلتيه.

جاء دوره. حضر طلاب الطبيبة للتفرج. لم يخفف المخدّر من ألم اقحام الناظور في بلعومه كما وعدته. سمعها تخاطب طلابها:

- هل ترون دماءً؟ هذا دليل على وجود سّرطان.

إذا كان الناظور كافياً لتشخيص مرضه فلم الحاجة لخزعة؟

بعد أسابيع استدعوه لرؤية الطبيبة ومعرفة نتائج الفحص. بادرته بالقول:

- لدي أخبار سيئة وجيدة. تأكدنا من الفحص بأن الحالة سّرطان في الرئة لكن من حسن الحظ من النوع بطيء النمو، وقد تمضي خمسة عشر عاماً قبل بلوغه مرحلة الخطر. لك الاختيار في ازالته الآن أو الانتظار حتى ذلك الحين.

لم يتردد في اختيار اجراء عملية جراحية للتخلص منه. لو أجلّ العملية فسيقتله القلق قبل السرطان. سألها من سيجري العملية فسمت جرّاح الفتاق. استفسر منها عن خبرته في مثل هذه العمليات فقالت بصراحة بأنها ستكون أول عملية فتح صدر له. هو من افتتح تجاربه في عمليات الفتاق به وتريد أن يكون أول من يشق الصيني صدره، ويزيل القسم الأكبر من رئته اليمنى. رفض فقالت محتجة:

- لكنه بحاجة لاكتساب خبرة في هذا النوع من العمليات؟

يرفضون توظيفه لأنه بدون خبرة كندية، لكنهم يريدون لزميلهم خبرة على حساب بدنه. لا حاجة للنبش في تاريخهم الأسود فهذه التجربة كافية للحكم عليهم.

بقي اختبار واحد قبل العملية. بعد صعود عدة طوابق في المستشفى قاسوا طاقة رئتيه، بعد الانتهاء قال الطبيب:

- المصابون بالسّرطان يتبرزون أكثر من المعتاد.

لأول وهلة ظنه يمزح، لكن ملامح وجهه أكدت العكس. أراد سؤاله عن المقصود بالمعتاد، عدداً ووزناً، وتخوف من إغضابه. دعا أن يكون الجراح أرجح عقلاً من هذا الطبيب.

قبل العملية حلت سكينة على نفسه، لا يدري من أين أتت، بالعادة أبعد ما يكون عن السكينة وراحة البال، ربما عقله حضره للنهاية والقبول بها.

صوت صادر من مكان بعيد ألح عليه بسؤال: حار أم بارد؟ أوقظه ألم حاد بعد الصوت من اغماءة التخدير. انقشع الغمام لدقائق، ليتأكد بأن الجراحة مستمرة، وجرحها الغائر في ظهره، وربما يد ومشرط الجراح تقطع رئته، وإبرة أنبوب التخدير الفالتة تخز نخاعه الشوكي، واليد المسكة بها تبحث عن مكانها السابق، ثم عاد الظلام وتوقف الصوت والألم. تبين بعد ذلك أن إبرة أنبوب التخدير المغروسة في نخاعه الشوكي انفصلت، وأرادوا منه أثناء افاقته المبكرة وتحت مشرط الجرّاح مساعدتهم في تحديد مكانها، البارد خطأ والحارّ صحيح. بعد انتهاء العملية بأيام مرت طبيبة التخدير مع ثلة من طلابها. وبّخها بشدة على اهمالها أثناء عمليته. أنصتت الطبيبة بصمت ثم غادرت وطلابها.

أفاق في غرفة الإنعاش. الطبيب المناوب كويتي متدرّب. بعد معرفته بأنه من بلد (الدهن والدبس) تجهم في وجهه، ورمقه بنظرات شزر كلما مرّ بالقرب من سريره، حتى توجس من انتقامه، فهم يكرهونهم من قبل الاحتلال، ولم يبقوا من دهنهم ودبسهم إلا القليل بعد هزيمة بطلهم السابق (الطاغية).

زاره متعهد صنع اللعبة الثقافية في غرفة الإنعاش. اصفرّ وجهه لرؤية غابة الأنابيب المغروسة في جسمه. وضع باقة الزهور عند مدخل الغرفة وغادر مسرعاً. احتار (الأثرم)

في فهم سلوكه. من قبل وصف له المتعهد مراجعته للأمن العامة في بلد (الدهن والدبس)، لضرورة المصادقة على وثيقة. غلبه النعاس وهو في قاعة الانتظار فأغمض عينيه ونام. ارتعب من منظر مريض في مستشفى لكن مجاورته لغرف التعذيب وأحواض الأسيد المذيبة للحم والعظم البشري لم تطرد النعاس من عينيه.

بعد نقله من غرفة الإنعاش جاء والد المتعهد لعيادته:

- لماذا لم تطلب منهم إزالة رئتك بالكامل؟

فاجأه بالسؤال الغريب. قضى أسبوعاً في المستشفى، بانتظار تمدد الفص الباقي من الرئة اليسرى. في كل يوم دفعوا بآلة تصوير إشعاعي داخل الغرفة لتصوير رئته. لو استأصلوها بالكامل لبقي برئة واحدة. تحمل كآبة المستشفى ومشاركة الغرفة مع مريض ميؤوس من شفائه كل ما يتمناه فنجان قهوة.

قبل خروجه من المستشفى طلب من الجرّاح الاطلاع على الخلايا السرطانية المستأصلة، تحجج بأنها في منتهى الصغر. كلما يتذكّر المشهد يكرر:

- كانت نظراته زائغة، كدأب الكذّابين.

تركت العملية الجراحية شقاً طويلاً في ظهره وثقباً في جنبه الأيسر بين الأبط والخاصرة. سأله أطباء آخرون عنها. لم يسمعوا من قبل بسّرطان بطيء النمو، لا يهدد الحياة إلا بعد خمس عشرة سنة. في آخر يوم في المستشفى جذبت ممرضة الشريط اللاصق على صدره لتزيل مجسات القلب، فاقتلعت معه شعر صدره وطبقة رقيقة من جلده. عاد بعد أسابيع لسحب أنبوب النزح الخارج من الفتحة الجانبية فتدفق معه دم داكن اللون، نشّفه بلّفة ورق كاملة، واكتفت الممرضات المارّات بالتفرج عليه.

الحياة ما بعد السّرطان ليست كما قبله، ووحدهم مرضى السّرطان المتعافون يعرفون ذلك جيداً، أما الغير فينصحونك برفع معنوياتك وتجنب التمرغ في وحول الاشفاق على الذات. موظفو الهجرة لا يكترثون أيضاً بمرضك. فأما تلبي شروطهم أو الإبعاد المذلّ. استهان بذلك زوج ابنة (بمقدساتي)، في الموعد المحدد لمقابلة الهجرة حضر خالي اليدين

من سوى تقرير طبي، هو الآخر مرض بالسّرطان، لم يعذروه. حاكموه وكادوا يسفّرونه، سبقهم الموت وأخذه إلى قبر في أرضهم رغماً عن أنوفهم.

تساءل مع نفسه أن كان البعض تمنى موته بالسّرطان. أجابته نفسه الشكّاكة بأنها أعز أماني أقاربه ولئام بلاد (الدهن والدبس).

قبل انتهاء فترة النقاهة حلّ موعد مقابلة الهجرة. تحامل على اعيائه وذهب حاملاً حزمة من الوثائق وعلبة اللعبة الثقافية. أصر محاسب الشركة على مصاحبته، ظنها خدمة مجانية، حتى استلم منه مطالبة بأربعمائة دولار، على الرغم بعدم سماحهم له بحضور المقابلة. وفىّ بكافة الشروط واجتاز المقابلة.

عاد الاتصال بينه وبين (أبي الجعل). وجد (أبو الجعل) وظيفة إدارية في جامعة، واشترى شقة بالقرب من مطار هيثرو، لكنه صمت عن العشرة ألاف جنيه التي استلفها منه في أيام عوزه، وما زال يعاني الحاجة وقلة المال.

بعد مكالمة طويلة قال لنفسه:

- (أبو الجعل) يتحدث بلغة المبشّرين المسيحيين. أخشى أن يكون بدل دينه.

رد هو على الصوت الشكّاك:

- أنت متوهم.

حسدوه على الغربة والضياع. ظنوا بأن السماء هنا تمطر نقوداً لا ثلوجاً، وأن البرد المتساقط يغسل قلوب السكان من الضغائن والعنصرية. عرف القليل عن جيرانه، لكنه كاف لمعرفة المجتمع الكبير. على بعد أمتار طعن قاتل مأجور امرأة حتى الموت مقابل مرآب بيتها، أستأجره زوجها الصيني الغائب. وبالقرب من مدرسة ابتدائية قتل مهاجر من سريلانكا ابنه الصغير وأحرق بيته وحاول الانتحار لأن زوجته طلبت الطلاق. انتحر ابن جار لأن ابنته توفيت في حادث سيّارة فيتّم ولده، وبعدها بأيام حاولت صديقة شقيقه الانتحار لأن والديها طردوها من بيتهم، وسقمت جارة من الوحدة إلى درجة استضافتها شابين أوروبيين تعرفت عليهما من بعد، فنقلتهما سيّارة إسعاف بعد أيام لعلاجهما من

مرض الإيدز. بعد عشر سنوات تطلق الزوجان الساكنان عبر الشارع. أغرم الزوج بزميلته في العمل، واشتكت زوجته من رفضه الإنجاب طيلة زواجهما حتى قاربت سن اليأس. دأب أحد الجيران وعائلته على رمي قمامتهم في حديقة منزل (الأثرم) الخلفية، وفي نهاية كل صيف أضافوا عدداً آخر من علب البيرة الفارغة ونفايات أخرى، من ضمنها لباس حريمي داخلي كالجديد في رونقه ولونه الأحمر الزاهي، فإن كان دعوة لم يلبّها (الأثرم).

حال قومه في الغربة ليس بأحسن. يشتكون من التمييز ضدهم في الدين والعلاقات الاجتماعية والوظائف. من أسمه افرنجي هنا أفضّل حظاً في إيجاد وظيفة، لذلك يتخذ المهاجرون الصينيون اسماءً غربية، لكنهم وغيرهم من الجماعات الإثنية يختارون العيش والعمل سوية.

تصدر الحكومة تحذيرات منتظمة من المحتالين، وغالباً ما يختارون ضحاياهم من المهاجرين الجدد والمسنّين، ولا يستنكف بعض المهاجرين من بلاد (الدهن والدبس) من الاحتيال على القوانين. يدعي بعض الأزواج الطلاق ليحصلوا على إعانة مالية أكبر، وهم كحال من تركوه خلفهم في التعصب لطوائفهم وقبائلهم. طاردته أعراف القبيلة المقيتة حتى اقتحمت نفسه وأفجعته.

استغرب من خبر وصول (سيف) إلى كندا. كان قريبه يرفض الهجرة إلى دول الغرب، ويظن أن أباه فرضها عليه. تعب في إيجاد وظيفة مناسبة فاختار مهنة سياقة الأجرة. هو الآخر تعرض لعملية احتيال منظمة، متجاهلاً تحذيرات (الأثرم)، ثم وقع في الأسوأ. نصب نفسه مدافعاً عن حقوق جماعة من المهاجرين من بلاد (الدهن والدبس) تبرعوا لتشييد مصلى برعاية رجل دين معمّم. تلكأ المعمّم في تنفيذ المبنى، فطالبوه بردّ أموالهم. صمم المعمّم على الانتقام من (سيف). في صباح يوم استلم (سيف) بالهاتف طلب توصيلة بسيّارة الأجرة. توجه إلى المكان المتفق عليه. صعد راكبان. أحدهما ابن المعمّم والثاني خطيب ابنته. وضع الابن سلكاً معدنياً حول رقبة (سيف) وبدأ بخنقه، غير عابئ بتوسلاته بحق محمد وآل محمد وولديه الصغيرين، حتى لفظ آخر أنفاسه، وكاد أن يقطع

رأسه عن جسده. أفضت تحريات الشرطة للقبض على الجناة. قال أحد أفراد الشرطة بأنه لم يشاهد وحشية في القتل مثلها من قبل. نقلوا جثمانه بالطائرة ليدفن في مقبرة البلدة المقدسة حسب وصيته. بعد سنوات أفرجوا عن المعمّم فعاد إلى بلاد (الدهن والدبس) معززاً مكرماً بين أبناء مدينته وقبيلته.

انقضت السنوات الثلاث من الإقامة المطلوبة، ومن دون عمل في الغربة غربة في بطن غربة، أضافت تجارب وذكريات مقيتة جديدة. الكل يريد الانتفاع منك، ولو بسلبك اللقمة في فمك.

في حفل التجنيس، دارت فتاة شديدة القصر على صفوف الحاضرين. راقبت أفواههم، وخمّن (الأثرم) بأنها كانت تقرأ الشفاه للتأكد بأنهم يرددون قسم الولاء للملكة بريطانيا لا مقطع من أغنية. ظفر بجواز السفر بعد حرمان لخمسة عشر عاماً، وتهيأ للسفر وبدء صفحة جديدة من حياته أو هكذا تمنى.

سفرة الخيبة

نزل في فندق بوسط لندن، غرفته بمساحة حمام صغير، والدخول إلى حمامها بالكتف لا بالصدر. انتظر بفارغ صبر لقاءه بشقيقه الوحيد، بعد فراق طويل. دعاه للغداء في شقته القريبة من المطار. لم يرزقا بأبناء. والسبب السفلس كما أذاع (القمرجي). صارحه بذلك (أبو الجعل). كان اليوم الجمعة والعزيمة سمك مشوي. تمنى أن تكون مجرد صدفة، أو حفاوة زائدة، فإطعام الضيف السمك إكرام زائد في بلاد (الدهن والدبس)، وتناول السمك أيام الجمع طقس مسيحي. حان وقت الصلاة، فطلب (الأثرم) سّجادة أو قماشة. أحضر له ما أشبه بممسحة أحذية توضع عند الباب الخارجي. صلّى عليها. سمعهما يتهامسان في المطبخ القريب. نبرة صوتها حادة وآمرة، ردّ عليها بخنوع مستغرب. فرغ من الصلاة، وشكرهما على الغداء واستأذن بالانصراف. أصرّ على مرافقته. عند منعطف شارع التفت (الأثرم) وسأله:

- هل تنصّرت؟

أجابه:

- نعم.
- ومارست الطقوس؟
- نعم.
- وغيرت اسمك؟

ذكر اسمه واسم العائلة الجديدين. من حيث الاسم على الأقل لم تعد بينهما صلة عائلية. أضاف مسرعاً:

- لا تفترض بأني فعلت ذلك متأثراً بزوجتي.

- هذا اختيارك. واختياري ألا تكون لي علاقة بك. فأنا منذ اليوم لا أعرفك ولا تعرفني.
- أنت قاس جداً.

تركه واقفاً وسط الشارع وابتعد. توقع ذلك لكن فجعه سماع توكيده. سار كالمسطول، وثانية واحدة فصلته عن عبور الشارع أمام سيّارة أجرة مسرعة. توقف عند حافة الرصيف في اللحظة الأخيرة.

كان بحاجة للبوح لأحد بالخبر، لعل بعض ثقله ينزاح عن صدره. اتصل بزميل من أيام الدراسة فهرع لمواساته. بعد اغلاق سماعة الهاتف لاحظ الصور والإعلانات داخل كابينة الهاتف اللندني. كلها لعاهرات يعرضن خدماتهن باللغة العربية.

استدل على مكتبة قريبة، تبيع كتباً عربية. كان الزبون الوحيد، ربما لأن معظم العرب لديهم اهتمامات أخرى غير الكتب. اشترى نسخة من الإنجيل، وعاد إلى الفندق. قرأ الكتاب، لم تكن أول مرة. قرأه في الثانوية باختياره، لا بتأثير المدرسين القساوسة، وفي الجامعة أيضاً وأجزاءً من العهد القديم وكتباً لديانات أخرى.

قضى ساعات في تدوين نصوص من الكتاب، تناقض العقيدة التي اعتنقها (أبو الجعل) المرتد، ويظن بأنها رسالة المسيح. عاد إلى منفاه محملاً بخيبة مرة.

الفصل الأخير

انتهى من كتابة الرد على (أبي الجعل) وأرسله على عنوانه البريدي. اتصل هاتفياً أكثر من مرة. دار بينهما حوار غير ودّي. لا يتذكّره حرفياً:

- أنت لا تعرف تفاصيل تركي لديانتكم واعتناقي المسيحية. لقد كانت معجزة! كنا في زيارة لإحدى الكنائس، وهناك رأيت تمثالاً لقدّيس مدفون رفع يده وأشار إلي بثلاث أصابع.
- لماذا اختارك أنت بالذات؟ لتبشر بديانتهم؟ أو لتغير مسار البشرية؟ أنت مجرد نكرة.
- لماذا تهينني؟ يجب عليك احترامي لأني أخوك الأكبر.
- عجيب! ألم تقرأ إنجيلك؟ اتركوا اباءكم وأخوتكم واتبعوني. أنت تركتنا وتطالب باحترامك كأخ.

أكمل (الأثرم):

- ألم يخطر ببالك بأن ما رأيته قد يكون خداع بصر أو حتى هلوسة؟ ربما تناولت طعاماً دسماً قبلها؟ الهلوسة أحد أعراض تناول أدوية الاكتئاب والمخدّرات. لو كنت مكانك ورأيت بالفعل ما تظن أنك شاهدته لاعتبرته وسواساً شيطانياً.

عاد ليؤكد اعتقاده بأنها معجزة خاصة به.

حدثه (أبو الجعل) عن معجزة أخرى، اقنعته بترك دينه، وهو أصلاً كان مسلماً بالهوية فقط. رقم ثلاثة تجلى له مرة أخرى. قبل اجتياح جيش (الطاغية) للكويت بأشهر عزم على مغادرتها. كان زمن رحلة الطائرة التي أقلته وزوجته الساعة الثالثة بعد الظهر. لا يعرف (الأثرم) من السابق في الزمن ثالوث الأصابع أم ثالوث زمن الرحلة. ألهذا يدعو الناس ربهم لتثبيت عقولهم؟

احتلت القوات الأمريكية الغازية بلد (الدهن والدبس)، وأسقطت نظام (الطاغية). كان شعوره مثل رجل جائع جاءه خنزير في فمه رغيف خبز. اختلطت المشاعر المتضاربة، فرح بالخلاص من (الطاغية) وابتئاس بالاحتلال، وسرعان ما انقضى الأول وحل محله الثاني. بعدها أهدر عشر سنين من عمره، يقرأ أخبار بلد (الدهن والدبس)، ويتفاعل معها بالحسرة والغضب وكتابة المقالات الناصحة، ثم بعدها ندم، لأنهم لا يستحقون اهراق نقطة حبر واحدة . وودّ لو يستطيع محو كل تلك المقالات بكبسة زر.

ألّح الأقارب عليه بزيارتهم. تحججوا بأن كل المغتربين عادوا لرؤية أحبابهم، إلا هو، حتى أنهم يدعون بأن لا نية له لزيارتهم. بعد تردد طويل استجاب لدعوتهم. في الطريق بين الحدود والعاصمة مرت سيارة الأجرة بثلّة مسلحين منهمكين بتفتيش سيارات أخرى، حاملو جنسيات أجنبية مثله أهداف مغرية للخطف والفدية. أخفى سائق الأجرة جواز سفره ومحفظة نقوده في مخبأ سري تحت مقعده. مروا بسلام. في مكان غير بعيد وتاريخ أحدث أوقفت عصابة إرهابية حافلة ركاب، قتلوا الجميع وأخفوا جثثهم.

وجد أرضه الزراعية منهوبة، تقاسمها الأقرباء، ولم يسلموه درهماً واحداً من عوائد غلة أرضه لعشرين عاماً. لأن المال السائب في قاموسهم القبلي يحيل الحرام حلالاً. طال الخراب منزله القديم. صعدت نبتة متسلقة من الحديقة الأمامية حتى الطابق الثاني من الملحق، ودخلت غرفة من نافذتها المكسورة. قبضوا أجرة بيته، وتركوه خرباً. تمنى على الأقل لو كنسوه واستبدلوا النافذة المكسورة قبل وصوله.

أثناء إقامة (الأثرم) في المنفى أدرك الموت إثنين من أبناء (أم لسان الزفر)، وبطنيهما مليئة بالمنهوب من مال (الأثرم). أولهما (العرقجي) الأصغر ثم تبعه (بمقدساتي). كان الأخير يردد:

- أنا لن يحاسبني الله! بل أنا سأحاسبه لأني لم أحظ بفرصة للدراسة.

كذب (بمقدساتي)، لأن اباه (اليقطينة المزروفة) بذل كل ما يستطيع ليكمل دراسته قبل أن ييأس ويصفه مع رعاة الغنم من أولاده كما كان يسمي الفاشلين منهم في الدراسة.

لم يشف (القمرجي) من ادمانه على القمار، وكلما خسر سب الرّب أو الدين أو النبي، أو الثلاثة في نفس واحد، فيضحك رفاقه من أشقائه وأقاربه وأصدقائه مخبري النظام الفاشي، ثم استدل على مواقع القمار الإلكترونية، فصار يتردد عليها يومياً، ومالكوها يسخرون من غبائه في سرهم، ويسحبون المبالغ التي يخسرها بانتظام من رصيد بطاقة ابنه الائتمانية في قارة أوقيانيا.

تكفل (أبو وجهين) ابن (المخبول) بزراعة أرض (الأثرم)، ثم انقلب عليه وخانه. يبدو بأن صفعات نعال أبيه لم تبق من ماء وجهه قطرة واحدة، وورث من والدته جينات السفاهة ومن جدته (القهرمانة) خبثها. في حسينية (أم السرجين) التي لم يولد فيها يسجد على تربة الحسين، وفي المسجد القريب من بيته في العاصمة يصلي عاقد اليدين.

اتفق (أبو الجعل) مع أعوانه (أبي وجهين) و(القمرجي). استولوا على نصف أملاك (الأثرم) الزراعية، التي استنقذها من النّهّابين، وكأنهم فرحوا بارتداد (ابي الجعل)، وأرادوا الانتقام من (الأثرم) الذي أعلن في الصحف براءته من المرتدّ. تآمر أخرون على استلاب ما يقارب النصف من مساحة بيته القديم. شيدوا عليها داراً بدون موافقته واضطرّوه لدفع كلفة البناء، لكنهم ادعوا زوراً بأنه وعدهم ببيع الأرض وهم من تحمل الكلفة.

باع (أبو الجعل) المرتد بيته في (أم السرجين). فضّله (اليقطينة المخرومة) ببيتين على بقية أبناءه، لو كان يدري بأنه سيرتدّ ويتنبأ له بالخلود في جهنم. رأت ابنة أخي (الملطومة) عمتها في المنام وعليها ثياب خضر من سندس واستبرق وتسأل: لماذا توقفت رسائل ابني (أبي الجعل)؟ لا يعرف (الأثرم) كيف يستلم الأموات رسائل الأحياء، لكنه هو الآخر أوقف رسائله ودعواته الصالحات.

قطعت بلاد (الدهن والدبس) تحت الاحتلال آخر صلاتها به. رفضوا اعطائه هوية وشهادة جنسية من دون رشوة. قبل أشهر اطلع على قائمة بجوازات صادرة حديثاً. كان بين الأسماء ابنة الحزبي (المتحرّش). أراد معرفة من حرّض على حرمانه من جواز سفره

فشرّده وحرمه من الوظيفة وتحصيل معاشه لعشرين عاماً. طلب صورة من سجله الوظيفي في بلاد (الدهن والدبس) فرفضوا. تستروا على الجاني أو الجناة ولم ينصفوا المجنى عليه (الأثرم). ينقلون عن نوري السعيد قوله لو قمت من مكاني لطارت رائحة كنيف، لكنه لم يصدق تماماً فالرائحة النتنة موجودة من قبله وبعده.

فصول حياة (الأثرم) مأساوية، كشف عن بعضها وأخفى الكثير، وما خفي أمرّ. لم يعد له قريب من عائلة (اليقطينة المخرومة) وناصبه غيرهم العداء، لا لذنب اقترفه بل لمجرد أنه مختلف معهم. لا يدعي بأنه من المتطهرين الذين أراد قومهم اخراجهم من قريتهم، لكن قومه بالتأكيد ليسوا من الأتقياء. كان كصخرة ملتصقة بأرض، جاء هؤلاء ومعهم كل أهل بلاد (الدهن والدبس) بمساحيهم ومعاولهم فحفروا بينه وبينهم حفرة عميقة، حتى انفصل عن أرضهم وصارّ مثل جزيرة. لو مدوا جسوراً فسيقطعها، وأوصى بدفنه بعيداً عنهم ليبعث وحيداً.

يقولون أن الإنسان يرى شريط حياته قبل موته، لأن ذلك كفيل باستحباب الموت. كل كلمة أملاها هنا عن حياته خرجت مع حشرجة، وكل فقرة ظنها آخر فقرة قبل توقف قلبه عن النبض، وكل فصل سيأتيه بجلطة دماغية تريحه من دنيا العذاب وشرور الخلق. الآن تأكد له بأن (الطاغية) المقبور كان مرآتهم الناطقة، فيها انعكاس كل رذائلهم، وان كسروا كل المرايا فسيرون صورها داخل أنفسهم، ولن تفيدهم المعاذير. سيرون فيها المسحولين على أسفلت الشوارع ودموع الصبية المغتصبين وفساء السلاحف المعذبة حتى الموت وآثار أحذية المحتلين على أرضهم.